إسحاق ماشباش

جـبل المـوت

ترجمة
وليد تحقاخه

مايكوب 2019

استفاد مؤلف الرواية من كتابات العاملين في حقل المعرفة: بغَجَنْقُه، وزَمِشحه، وميخائيلوف، وسَقُّر، وراخْييف، وتسي، وبرزج، وخُتْقُه، وغُج، وغُته، ويعقوبوف، وقُشْحَبي، ودْغُيف، وقَجار، وكُزمين، وعليوف، وأ. د. نالوي، وزايسيف، وإ.م. نالوي، وجَمِخ، وقادرنيازوف، وقجارم، وميتيروف، وعبد السلاموف، وميرزوف، وأوبرِشكو، وأباظه، وطِمخُج، وكُشَج، وطابش، وقَغَزَج، والصحفيين: حفأزه والزوجين كوتلياروف.

الرواية التاريخية "جبل الموت" التي كتبها إسحاق ماشباش كاتب شعوب الاتحاد السوفييتي وروسيا، وجمهوريات الأديغي والقبرتاي – بلقار، وشركيسيا، الحائز على جائزة شولوخوف، موضوعها معركة قنجال التي جرت على أرض القبرتاي في أيلول عام 1807. تُظهِر الرواية ببراعة وحِرْفية أن الانتصار الذي أحرزه الأديغة في تلك المعركة كان بداية الذرائع التي تسببت في المآسي التي جرت في حياة الأديغة.

مقدمة

في أحد الأيام هاتفني محمد حفأزه من نالشيك:

– يا أخي الكبير سأخبرك برجاء كثيرين من العاملين في مجال الثقافة في القبرتاي أن تكتب رواية عن معركة قنجال التي هي إحدى مفاخر قومنا.

سألته باختصار، والمآسي التي مر بها الشراكسة تهيج قلبي من جديد :

– معركة قنجال بداية الوعي القومي عند الشراكسة ؛ أَفَليس في القبرتاي من يستطيع كتابة مثل هذا العمل؟

– بلى، ولكنهم يرونك أجدر به، وواثقون أنك أقدرُ على تحقيقه.

– يسرني أن أصدقائي يوْدِعون أملهم فيّ، ولكني لا أؤمِّلهم.– وأردفت في الحال نادماً على ما قلت: – نعم يا محمد، نعم، ما حمّل الله أجدادَنا هو حِمْلُنا نحن أيضاً... حسناً سنرى...

وقضيت بضعة أيام بين الحزن لمآثر أجدادنا وتشجيع تلك المآثر لي. ومرت بضع سنوات وأنا أتذكر ثم أنسى، وأصدرت آخِر رواياتي الأربع التي تؤرخ للحرب القفقاسية: "المطرودون" و"الغرباء". وفي خلال تلك المدة كان رجاء إخوتي تأريخ معركة قنجال يصرخ من دمي دون وعي مني، فلا يفارق ذهني.

وفي أحد تلك الأيام هتفت لحفأزه محمد:

– أنا جاهز لكتابة الرواية يا محمد، ولكن لا أعرف كيف سيرى هذا العمل النور.

الفصل الأول

كان عالمَ الشراكسة القديم واسعاً، يمكن أن يقال إنه شمالُ القفقاس كاملاً: الأرضُ الممتدة بين بحر قزوين من جهة والبحر الأسود وبحر آزوف من جهة أخرى. يبلغ طوله ألف فرست[1] ويتراوح عرضه بين ثلاثمئة وخمسمئة. ولا تحيط العين بحدودها ولو وقفت على أعلى نقطة في القفقاس وهي قمة جبل ألبروز. والشراكسة ممن يعتقدون أنهم بين أقدم أعراق البشرية على الأرض التي تشرق عليها الشمس منذ ألاف القرون[2]. والأديغة الذين يتكلمون لغة واحدة، ويخضعون لقانون واحد (خابزة) كانوا يعيشون في اثني عشر فرعاً: القبرتاي والبسلني والأبزاخ والجمكوي والمخوش واليَجَرْقواي والأدْمي والحاتيقواي والشابسغ والجانيه والبجدوغ والناتخواي. وإلى الآن لا ينسون تنافسهم وصراعاتهم الداخلية.

ومع أن الفروع الاثني عشر كانت تعيش في أماكن محددة فإنها لم تخضع جميعها لنظام الإمارة. اتبع القبرتاي والبسلني والجمكوي والبجدوغ والحاتيقواي واليجرقواي نظام الإمارة. في حين عاش الأبزاخ والشابسغ في ظل حرية فردية. ورغم أنهم كانوا فروعاً مستقلة فإن شرعة الأديغة لا تزال أعلى شرعة في حياتهم منذ مئات القرون وإلى الآن.

---

[1] وحدة قياس روسية قديمة تساوي 1.07كم. المترجم.

[2] تكتب الصحيفة الإنجليزية "غليسون" الصادرة عام 1845 في لندن: الشراكسة الذين يسمون أنفسهم بالأديغة هم من أقدم الأعراق البشرية. باستثناء شعوب الصين ومصر والفرس، فتاريخ الشراكسة قديم جداً. ولم يرضخ هؤلاء البتة للشعوب الأخرى. وكانوا يحتمون بخصوصيات عاداتهم حين تتغلب عليهم شعوب أخرى ذات قوة خارقة، فلا يدخرون جهداً إلى أن يتحرروا. ولا تخطئ إن قلت إن الشراكسة من أشد الأعراق إلحاحاً على معرفة تاريخهم. والمهتمون بالتاريخ القديم يعرفون هذا جيداً: يظهر اسم الشراكسة بوضوح في مؤلفات هيرودوت وفيريا سترابون وبلوتارخ وآخرين من مشاهير المؤرخين، ويُثنون على مسيرة حياتهم وبسالتهم. وهم يحمون حريتهم منذ ألفين وخمسمئة عام على الأقل". المؤلف.

كانت أرض القبرتاي موزعة منذ عهد الأمير الكبير إيدار إينال على ثلاث إمارات: تالوستانيه (الشولوخ)، وإيداريه (الإيدار)، وجالاخِستانيه (الألْقَس)[1]. تتجه الأولى باتجاه روسيا – والثانية نحو القرم — والثالثة نحو الفرس. وكانت وجهات نظرها في موضوع حماية إماراتها مختلفة وإن كانوا جميعهم أديغة. ولما توفي شَجَنِقوه أجَقوه، ولحق به حتَحُشْقوه قازيّ، انعدم الأمن في القبرتاي نتيجة خلافات ورثتِهم: كان أمراء القازي بزعامة الأمير مِشَوَسْت يعملون جهدهم، متضافرين مع خانية القرم، لإضعاف أسرة إيداريه، غير راضين عن انحيازهم إلى الروس. وكان الجلخستان الذين يلقون دعم الفرس بزعامة الشاهَين عباس الأول وعباس الثاني المتزوجَين من امرأتين من القبرتاي، في أزمة. وكان زعيم الداغستان، وخانُ القالمق، وورثةُ أوردام النغوي، يتدخلون في شؤون القبرتاي نتيجة تنافر أمرائهم.

صارت أرض القبرتاي سهلة المنال،لأي طامع، من أي جهة أتى، بالقياس إلى الأعراق الأخرى، بسبب الاختلافات بين الأمراء. وكان المستفيد الأول من هذا الوضع تركيا التي تسيطر على قرارات خانية القرم. وكان خان القرم لا يزال يعتبر من حقه تحصيل الإتاوة التي فرضها سنوياً على الأديغة، متذرعاً باحتلالِ جنكيز خان كامل أرضهم قبل قرون وفرْضِه الإتاوة عليهم، مهدداً إياهم بآلاف الجنود.

ولم يكن فرض الإتاوة مقتصراً على المال، بل كانوا يُلزِمونهم أن يرهنوا عندهم عدداً من أولادهم الأصحاء الأقوياء وبناتهم الجميلات، وشبابهم المتقنين لكل ما يُطلب منهم. وكان الأديغة يقعون في مثل هذا المأزق إثر كل هجمة لتتار القرم. وعامة الناس يدينون أمراءهم على قبولهم بهذه الشروط المجحفة.

بلاد القبرتاي جميلة تأسر العيون وتريح القلوب في كل فصول السنة. لا تحيط العين بقمم أوشحه مافه[2] البيضاء، وسهولها المترامية الأطراف، وغاباتها الكثيفة

---

[1] الأقواس من المؤلف. المترجم.

[2] الجبل المبارك، بلغة الأديغة، وجبل ألبروز عالمياً. المترجم

المتنوعة الشجر، وجبالها المتراصّة، ومراعيها الملونة. تهب فيها الزوابع والعواصف الثلجية، وتُرعد سماؤها، وتمطر مطراً دافئاً. شمسها دافئة، وقمرها منير. وتدور فيها حفلات رقص في الأعراس. وليست مآتمها قليلة.

خرج أمير القبرتاي الوالي حَتَخُشقُوه كُرغوفُه[1] من غرفة الإمارة ضائقاً صدره رغم أن الصباح هادئ في مضيق باخسان. تجاوزت عيناه أشجار التفاح والخوخ البري والكرز المزهرة حديثاً، ودفعه قلقه الناجم من الأخبارِ الواردة من خانية القرم، المتناغمةِ مع اختلافات الأمراء، إلى أن يذرع مسطبة البيت عدة مرات.

تذكر الأمير الوالي كيف أجابه خان القرم منغل- جري في العام الماضي، عام 1707، حين غزا أرض القبرتاي بآلاف الجنود فذهب حَتَخشقوه إلى مقرّ قيادة القائد التتري ليخبره ثورة الناس الذين لم يعودوا يتحملون إتاوة التتر، وتصرفات جيشهم غير الإنسانية، ليجدوا مخرجاً من الأزمة باتفاق ما، فأجابه الأخير بأن "ما يسري هو كلامي لا كلامكم"، وأهال على رأسه صفوة غليونه. قلنا إن علينا أن نزهق أرواح بعض قادة التتر فكان أولاد الزنا، الإخوة نبلاء قارمه، هم من رفضوا لأن ابنتهم كانت كَنّة التتار. حقاً نحن لا ننكر أنهم أقرباؤنا من جهة ابنتنا،ولكن حين يقع القوم في مهلكة فلا يجوز التوقف عند مثل هذه المسألة. عليك أن تسفح دم من يسفح دم قومك كائناً من كان؛ وإلا بقيتَ بلا أصل ولا شرف. ألا يجب وضْعُ حدٍّ لغزواتِ هؤلاء، الهادفةِ إلى إرهاب قومنا وإهانتهم؟! في نواحينا من لم يقبل، كما خان القرم، بمقتل الخان الشاب شاهباز- جري في البسلني على يد الإخوة أمراء قانقوه ناقمين على إهانة أختهم. وعلى كل حال فعلوا بالخان الشاب العابث ما يستحقه. وربما كان مثلُ هذه الحادثة ما جعل الشراكسة يقولون "من مدّ يده إلى عينك فمد

---

[1] كلمة الوالي بالعربية في الأصل. يبدو من سياق الرواية ومن روايات أخرى للكاتب نفسه، أن الأمراء كانوا ينتخبونه في مؤتمراتهم السنوية، وله الكلمة الفصل في القرارات. وأنبّه القارئ الكريم إلى ان المؤلف يستعمل أحياناً اسم الشخصية، وأحياناً نسبه، وأحياناً "ابن فلان" حسب تقاليد النداء، وحسب الموقف. واكتفيت غالباً باسم واحد إلا عند الضرورة. المترجم.

يدك إلى روحه". هل يعيدون الكرة علينا ناسين ما فعلْنا العام الماضي بمنغل – جري، وردَّه على أعقابه مهزوماً؟" وما يُدري خانات القرم ما وراء قولهم "من لا يرتدعْ من تلقاء نفسه يقابلْ من يردعه؟" — نادى الأمير الوالي كُرغوقُه حارسه وهو يخرج من أفكاره:

– هيِّئوا لي حصاني، سأروِّضه قليلاً.– ركب الأمير الوالي حَتَخُشَقوه، ثم قال للحارسين اللذين يتبعانه:– النهار جميل، ومنظر جبلنا أوشحه مافه أجمل.

بعدما ترك الأمير الوالي كرغوقه حَتَخُشقوه وراءه تلال حارَقُره على يمين الداخل إلى مضيق باخسان خبباً، وابتعد قليلاً، عبر نهر غُدَلَن الذي يخرج من مضيق تِزِل، عاد بحصانه سريعاً قبل أن يصل إلى الغابة القائمة على مرتفع،والتي كانوا يصيدون فيها ناحية أوشحه مافه، وتل قنجال المائل للسواد حيث صخرة ساوسرقوه الكبيرة ما يزال على مسافة نصف نهار. وفعل مثله حراسه الذين اعتادوا على قرارات أميرهم المفاجئة.

كانت الطبيعة التي كانت تنفض عن نفسها آثار الشتاء ناعمة جميلة في القبرتاي، ولكن الهمّ الذي كان ينغّص على كُرغَوقه حياته حتى حمله على السفر لا يفارق ذهنه. ماذا سيتصرف حياله؟ خاطب نفسه: "المخرج الذي أراه لا ثاني له: مجابهتهم يداً واحدة بالسلاح. فعلنا بهم هذا في العام الماضي، ولكن يبدو أنهم لم يفهموا الدرس. تبَعاً للأخبار التي جاءنا بها الأديغة إخواننا الذين يعيشون في أقصى الغرب فهم يجهزون الجيش الذي سيغزوننا به ويزودونه في القرم. ويؤيد هؤلاء، أخلافَ جنكيز خان وباتي خان اللذين تركاهم وراءهما في أرض الأديغة، كلٌّ من ينتمون إلى العرق التركي من النغوي وغيرهم ممن لم ينسوا أنهم من أصل واحد. ونحن أمراءَ القبرتاي، يجب أن يهب كل منا لنجدة الآخر. فإن لم نفعل، وأهملنا الثأر للقوم، صرنا ممسحة لأقدام الغزاة. وأفنَوا، كامل عرق الأديغة، في أرضنا".

وصل الفرسان إلى منزل قزنقوه جباغ. قال حَتَخُشقوه لنفسه مبتسماً ابتسامة صفراء وقد رأى الخيل المربوطة إلى باب الدار: "لا يزال هؤلاء مجتمعين في المضافة ولكن لا أعرف ماذا يقولون وماذا يفعلون..." — ثم نادى حراسه من

ورائه: – أحد الأحصنة إن لم أخطئ هو حصان قزنقوه جباغ. وشرح لهم في الحال مقصده: – بلى، لست مخطئاً، ربما عادوا معاً من إحدى رحلاتهم. أُدعوا جباغ أن يأتيني ظهراً".

كانت عينا حَتَخُشَقوه كرغوقه، الكهلِ الممتلئ، تتأملان الطبيعة من خلال النافذة المتجهة إلى أرض الدار حين سمع صوت انفتاح الباب بلطف. ولما دخل قزنقوه جباغ، الشاب ذو الخمسة والعشرين بوجهه النحيف وجبينه العريض إلى المضافة، ألقى التحية على طريقة الشراكسة:

– نهارك خيرٌ يا أمير.

– ليغمرك الله بعطفه يا جباغ. تفضل، اِجلسْ!

– نقف في حضرة الله خمس مرات في النهار. نسجد له ونركع ونقوم، ولكن لا أستطيع القول إنه يشملنا برحمته يا أمير. وكما يقول أشَبه مينشاقه فهو لا يستجيب لدعائنا، ندعو إليه فلا يسمعنا، ويسمعنا ولا يرانا. ومع ذلك لا نسمح لأنفسنا أن ننساه، فمن يدري؟!

– كنتم جماعة غير قليلة فهل كان هذا موضوع حديثكم؟.. — قال الأمير الكبير حاتَخشَقوه مبتسماً. — ما مصيركم إن كان من تغتابونه قد سمعكم؟..

– اعتنقت مجبراً الإسلام الذي فرضه الترك علينا رغم إرادتنا. وسأجيب إذ سألتَني على هذا السؤال إن كنت ستصدّقني يا أمير: كان مصيرنا مصير الشراكسة الآخرين، هذا يصوم والآخر يعبّ الخمر[1].

جلس الأمير الوالي على المقعد الملاصق للجدار حيث عُلِّقت سجادة مزينة بالسيف والخنجر والمسدس والقوس، ممتعِضاً من عبارة "إن كنت ستصدقني"، وقال لجباغ:

– بالله عليك أن تجلس!

– لا أستطيع هذا يا أمير في حضرة الأمير الوالي. أفضل بقلبي وبأديغيتي الوقوف في حضرة كبيرنا معبّراً بوقوفي عن احترامي.

---

[1] قد لا يعني شرب الخمر حرفياً غير أن الجملة على مبدأ السجع. المترجم.

– لستُ أعرف، أنا وغيري، فطنَتَك الأديغية اليومَ فحسبُ. لا بأس أن تجلس!

– إن كان هذا رأيَك يا أمير فسأجلس مسترشداً بقولهم: "لن يعود فيغتابك من يسمح لك بالجلوس". أستمع إليك إن كنت تحتاجني في مهمة.

– نعم، نعم. استغرب الأمير عبارة "إن كنت تحتاجني في مهمة" التي تعبّر عن اعتداد بالنفس صريح ولكنه وافقه دون أن يستخفّ به، مصيرُنا مصير الأديغة، غير أنّ افتقارنا إلى وحدة الكلمة يُفنيني.

– وهل في العالم شعب يتمتع بوحدة الكلمة يا تُرى؟! — قال جباغ كمن يخاطب نفسه، ثم تحرّج من سؤاله: – أخشى ألا يوجد مثل هذا الشعب.

نهض الأمير ذو القامة المتينة الممتلئة الرشيقة بعدما تفكّر في كلمات جباغ، وذرع أرض الغرفة بضع مرات، ثم أجاب جباغَ الذي نهض من مجلسه:

– وأنا يُخيَّل إليّ هذا...– وأضاف الأمير الوالي كُرغوقه بعدما اقترب من السجادة الجدارية: – مثل هذا الوضع عارٌ على أي شعب، لا على الأديغة وحدهم يا جباغ. لا فائدة من الاحتفاظ بهذه الأسلحة معززة في البيت.

– وهذا رأينا نحن يا أمير، – وافق جباغُ الأمير، وأضاف: – إن وضعت بالسلاح جانباً صدئ أو كانت مَنِيّتُك على يده.

تفكّر الأمير في الكلمات التي عرّض له بها جباغ، ثم التفت إليه بعينين واسعتين صافيتين حاملاً كلامه على السلاح فحسبُ. ثم عاد إلى مكانه. وفعل مثله جباغ بعدما تأخّر عن الأمير قليلاً.

نقض الأمير الصمت الذي ران على الغرفة:

– إن كنت تظن يا جباغ أن كلامك المبطن قد جرحني فالسلاح المهمل الصدئ يصقله دم العدو. حقاً كان الأفضل ألا نفعل ما فعلناه أو نقول ما قلناه، ولكن خان القرم الذي قرّبْناه إلينا معبرين له عن احترامنا، فجرّأناه علينا، هو من يدفعنا إلى هذا الكلام.

– أنت على حق يا أمير. لن تصبح رجلاً ما لم تشعر بالإهانة. ولكن يُقال إن من يُهانُ يجدُ الفرصة للانتقام.

– ومن الناس من يقول: إن من لا يقبل الإهانة يفنى بسهولة، – قال كُرغوقه، واختتم باختصار: – شرف القوم ودمهم واحد. لا بد أن نعقد مؤتمر القبرتاي بسرعة ونتشاور في الأمر.

– حقاً يا أمير، ونحن الشباب فكرنا في الموضوع، – صحيح ما يقولون: "العقل مبعث للشك، والفطنة زادٌ." ولكن ألا تعرف الغرور الأديغي المقترن بالعناد؟ وكذلك سعي من لا يستحق إلى الزعامة؟ العقل قليل حيث الجلَبَة عالية. ألا يُحتمل أن يغلب على المؤتمر الخلافُ وضجيجُ النقاشات؟ صحيح يا أمير مرة أخرى. أفهم طموحك – الأمنية: الأمة لا تجتمع على باطل، وليس كل أفراد الجماعة مجانين. وصحيح ما يقولون: "اجتماع الأنهار يؤلف بحراً". ولكني أتساءل: من يعرف؟ فحسبُ.

– وماذا يقال يا جباغ عن المتوجس؟

– مثل هذا يا أمير لا يثأر لوالده. – اختتم جباغ القول الأديغي المأثور، ثم أنهى بكلمات أخرى، – ولكنهم يقولون أيضاً: "من يختر منهم يضلّ، ومن يتأمل فيهم يقيد نفسه".

ألقى الأمير الوالي الذي انتفض برأسه نظرة ود على جباغ الآن، وخاطب نفسه: "رأيت اليوم بأُمّ عيني مِصداق قولهم:لا يعرف أحد ما في نفس الآخر ما لم يتكلم". ثم خرج من أفكاره واختتم الحديث سائلاً:

– أريد أن أسألك في أمر وأنسى... سمعت أن قائد جيش الغزاة التتر حمل معه في العام الماضي إحدى بنات آل جَأرَف، لا أتذكر اسمها، ما قرابة هذه الفتاة إلى النبيل أَشَبَه مينشاقه؟

– سأخبرك يا أمير باسم الصبية التي سألت عنها. كانت المرحومة أمها التي شيّعناها قبل أيام تناديها: نالْمَس. ووالدها الذي قضى وهو ينتحب على ابنته اسمه: جأرف فِجِبز. – سكت جباغ لحظة، ثم أضاف: آل أشبه وآل جأرف أقرباء. غُشان والدة نالمس تنتمي إلى آل أشبه. وهي الأخت الصغرى لـ"مينشاقه" الذي ينوي السفر بحثاً عن ابنة أخته.

– وهل يعرف النبيل مينشاقه أخبار الصبية التي مضى على اختطافها عام

كامل؟
وفي الحال سُمع صوت المؤذن الذي يخبر أهل القرية الذين لما يدخل الإيمان قلوبهم بموعد صلاة العصر، طائراً من قرى حَتَخشقوه، إلى مضيق باخسان.فتبادل الأمير الكهل وجباغ الشاب النظرات، وصدرت من وراء الباب أصوات الإبريق والطشت أداتي الوضوء.

الفصل الثاني

كيف كان حال خانية القرم التي يتردد ذِكرُها؟ سيكون الجواب قصيراً إن استشهدتَ القرونَ الماضية بصدق واستقامة.
كان الكيبشاك – البولوفسا الرُّحَّل الناطقون بالتركية استوطنوا مراعي القرم في القرون الوسطى. وفي القرن الثالث عشر احتل المغول – التتار تلك الأرض، فصارت جزءاً من المملكة الذهبية الواسعة. وكان هؤلاء اعتنقوا الإسلام في القرن التالي، واندمجوا في الدولة الذهبية الكبيرة.وفي عام 1443 استقل حاج – جري عن الجنويين المستوطنين منطقة كافا فلم يعد تابعاً لأحد، فألَّف خانية القرم. واستقر في بَخَجَسراي التي اتخذها عاصمة. ولم يمض وقت طويل حتى خضع في كل شؤونه طوعاً لتركيا العثمانية التي احتلت شيئاً فشيئاً المناطق الخاضعة للجنويين.
لم تعش خانية القرم في بلاد محددة منذ مؤسسها حاج – جري، وإلى قبلان – جري الذي جرت معركة قنجال في عهده، وانتهاء بأواخرهم. وكان خان القرم الذي بدا كأن خانات القرم الآخرون انتخبوه،حاكماً شكلياً خاضعاً كلياً للأتراك الذين أتوا من آسيا فاستولوا على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، وسمَّوها إستانبول. ورضخ للأمر الواقع الخانات الآخرون بعدما كانت لهم آراء مختلفة. ولكن هؤلاء لم يطل حُكمهم بذرائع مختلفة.
حفظ التاريخ اسم خانية القرم،مهما قيل فيها، بصفتهم محاربين أشداء ينتمون إلى جنكيز خان، وهي الخانية التي فرضت على الآخرين الإتاوات الثقيلة

المرعبة. فهل هذا ثناء عليهم؟ يمكن مقاربة الموضوع من زوايا متعددة[1].
كل خانات القرم تقريباً هم من سلالة الخان حاج – جري. والخان قبلان – جري من هؤلاء.
الآن، إذا قارنت عاصمة الخانية بَخَجسراي في بداية الشهر الأول من عام 1708، بشتاء العام الماضي فالجو معتدل. وبغض النظر عن الريح الجليدية القارسة الخفيفة التي تهب من جهة بورونشاك على قلعة كِرْك – وَرْ حيث كان يعيش حاج – جري فالجو هادئ وقت العِشاء. وأصوات بعض المؤذنين القادمة من جهة عاصمة الخانية انقطعت. ولا تكاد تسمع صوت نهر شُرُك–سو الثرثار. وعلى ذرا الصخور المدببة في المضيق يهيمن ظلام صامت يبعث على الملل كأن الكلاب كفّت عن النباح، والحمير عن النهيق، والديكة عن الصياح. ولا تَسرُّ النجومُ القليلة اللامعة من خلال السماء السوداء القلبَ.

---

[1] يكتب دزّمحه قاسبولات في كتابه "حوليات الأديغة في تاريخ روسيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر": أراضي الجيران الروس والأديغة والأوكرانيين والليتوانيين كانت مورداً مالياً لخانات القرم عن طريق الغزوات. –... في خلال تلك الحروب التي لا نهاية لها كان التتر ينهبون متاع الناس ومواشيهم، ويأسرون الفِتيان والفتيات فيصطحبونهم، فكان ما يُنهَب بهذه الطريقة أساس اقتصاد خانية القرم. وكان هذا النهب يظهر في أملاك الإقطاعيين التتر.
وهذه بضعة أمثلة من غزوات التتر: نهب جيش الخانية مدينة كييف عام 1482، وهاجموا في عامي 1484 و1487 بودول ومولدوف وغاليسيا وخولمسك وليوبليانسك ولفوفسك. ودمّر الدولة الذهبية الكبيرة. واخترق عام 1503 بيلاروسيا وأحرق نوفوغرودك وسلوسك. وريازنا عام 1513... وفي السنوات التالية غزوا موسكو مراراً، وأحرقوها عام1571. ومارست الخانية الجرائم نفسها بحق الأديغة في الأعوام 1539 و1545 و1546 و1547 و1555 و1616 و1619 و1629 و1631 و1635 و1640 و1653 و1657 و1688 و1699 و1700 و1701 و1707. وأسر الآلاف ونهب ما لا يُحصى من الأموال. المؤلف.

قام قبلان – جري ذو الثلاثين عاماً بجسده الرشيق المتين عن صلاة العشاء. وما كاد يعيد سجادة الصلاة إلى الجدار حتى دخلت زوجته ألْسو بقامتها الرشيقة دون أن يهتز خصرها الدقيق، تفوح منها رائحة طيبة، وأبلغت الخان بصوت عذب:

– لا تفعل هذا يا نوري، كثيرون من الخدم العاطلين عن العمل مستعدون له.

– لا أفعل هذا إلا لأجل الله العلي العزيز الذي يغمرني برعايته. – أجاب الخان وهو يعلق السجادة دون أن يلتفت.

– هذا رأيُك يا نوري؟ – أسرعت ألسو بالجواب كعادتها.– نعم، الله الذي أرسلك يغمرك برعايته، يعصمنا من الخطأ.

– لا تصفيني يا حلوتي بأني رسول الله سبحانه، فتدفعينا إلى الخطأ. رسولُ الله خالقِ البشر هو محمدٌ النبيُّ.

– هكذا؟ – تظاهرت السيدة باستشارة الخان، وبرّأت نفسها: – أقول هذا لأن سلطان تركيا الذي ستزوره غداً يلقِّبونه برسول الله.

– تقارنين بين من لا يتشابهون... – ثم غيّر الخان الموضوع بأول ما ورد على خاطره: – أين الصبية نالمس، لم أرها طوال النهار.

نصّت ألسو برأسها المتطاول الجميلِ لما سمعت، وسألته بعينيها السوداوين، كاظمة غيظها، متظاهرة بالمزاح:

– يا خان القرم، هل اشتقت إلى الصبية الشركسية العجفاء التي ليس على عظمها إلا الجلد؟

– ما هذا الكلام يا حلوتي؟ – قال قبلان – جري بسرعة مخفياً رياءه، – أنتِ الوحيدة التي أشتاق إليها ليلاً ونهاراً.

– لا أعرف، لا أعرف...

– كم رجوتك ألا تتكلم في هذه المواضيع... الأفضل أن تحلقي لي رأسي قبل أن يخيم الليل كما اعتدتِ.

– أنا من تفزع إليه ساعة حلاقة الرأس!

– إن كان هذا رأيك يا حلوتي فالليلة...

احمرّ وجه ألسو الأسمر، ولمّت خصلة شعرها التي لم تفارق قبعتها المطرزة بخيط الذهب. وخرجت من الغرفة تنفّث عن ضيق صدرها:

– ماذا ننتظر يا نالمس؟ هل تسمعين، اغسلي للخان رأسه!

لم يتحمل قبلان — جري الصوت المدوي فلم يُطق إلا أن يردّ:

– لا تقسي هكذا على الصبية الشركسية!

ابتسمت ألسو في سرِّها: "اسمع ما يقول هذا!.. هل نسي ماذا فعلوا العام الماضي بأخيه الأصغر مِنغلين — جري في القبرتاي؟ كيف قتل بضعة المجرمين الذين تظاهروا بإضافة عدد من مرزاتنا[1] وكيف أعادوا أخي الوسيم مقطوع اللسان؟ مهلاً، انتظرْ قليلاً، أنا أعرف ما سأفعل بهذه الصبية الشركسية التي تنطق أنت اسمها على نحو جميل، سأعطيها إلى أرمل عاجز مشوّه. لو كان الأمر بيدي لوضعت الصبايا الشركسيات اللواتي وردن مع الإتاوة تحت تصرف مقاتلينا المشوهين في الحرب إماء لهم يفعلون بهن ما يشاؤون. وأما الصبيان فكنت ربيتهم على احتقار قومهم وحاربتهم بهم. وهل عجيب أن زوجة السلطان أحمد الذي يدعوك إليه كانت شركسية؟ وخاناتنا لا أعرف ماذا سيفعلون بهم وقد نسوا نسائهم. كانت نساء الشراكسة، اللواتي يتعلمن لغتنا بصعوبة مثل نالمس يكنسن بيتي، زوجات لهم. وقيصر روسيا الذي أحرقنا مدينته موسكو، وكدنا نأسره كانت زوجته من نساء الشراكسة الذين يدفعون لنا الإتاوة. ولكنهن لم ينفعن قومهن في شيء...

دخلت نالمس ذات الثمانية عشر عاماً بالإبريق الفضي والطست، بلباسها الشركسي الذي يشدّ على خصرها الدقيق، والتي كانت زوجة الخان تسخر منها، دون أن يحس أحد أنها فتحت الباب. وفجّر منظرها غضب زوجة الخان المرائية:

---

[1] المفرد مرزا: مؤلف من مير = أمير، وزه: مختصر "زاده" بالفارسية = ابن. وأحياناً يطلق اللقب على أقرباء النبي محمد من جهة الأم. ويبدو هنا أنها كانت رتبة في الجيش التتري. المترجم.

– ألستِ من أمرتُها ألا تلبس هذا الثوب الباهت الذي لا لون له؟!
قالت نالمس برقّةٍ تُداري حنقها:
– هذا لأني ظننت أن هذا الكساء يُعجب خاننا المنير.
– هل تسمع يا خان القرم كيف تردّ عليّ دون حياء سليلةُ الكلاب هذه التي تحميها؟ اغربي حالاً من وجهنا دون أن تَلْحَني بلغتنا الجميلة التي وهبها لنا الله!
– سأغرب، – أجابتها نالمس بالصوت الرقيق نفسه — إن كنتِ قادرة على غسل رأس خاننا المنير.
وخرجت نالمس راضية عن نفسها وإن كانت تخشى من وقْع كلماتها الصريحة.
– هذا ما وجدته الصبية الشركسية التي كنا نحميها تهينني به،– لمحت ألسو للخان تهدّئ نفسها، – تعال يا نوري أغسل لك رأسك وأحلق شعرك قبل أن يبرد الماء.
– ارتاحي يا ألسو، – قال الخان الذي يغسل رأسه لزوجته متوددًا. — لا تهتمي لخادمتك التي لا تُطيقينها. كثيرون في تركيا مستعدون لشرائها. ستُسرّ زوجة السلطان أحمد الشركسية إن قدمناها لها.
– هل تقصد أن تصحبها غداً إلى إستانبول؟
– لا، بل بعد عودتي من القبرتاي.
– هكذا؟ ألا تقول لي إذن!

الفصل الثالث

الريح التي تحمل الثلج القارس تهب عاصفةً من جهة باخسان كحصان جامح. وتصفر من خلال مضيق تِزِلْ، وفوق مرتفع قنجال المستوي.
أمراء القبرتاي السبعة والخمسون المتظاهرون بالاستخفاف بالريح اللاذعة متجمهرون عند جامع قرية حَتخُشقوه الجديد، قريباً من المصلّى المتجه نحو نهر باخسان. كانوا يرتدون فراءَ الخرافِ والذئابِ الطويلةَ والقصيرةَ. وتتدلى منهم الخناجر والسيوف والمسدسات. وقلانسهم مدببة بأشكال مختلفة. والقبعات المستديرة مختلفة الأعالي. وأكثرهم يحملون على أكتافهم أغطيةَ رؤوس سوداء

من اللباد متآلفةً مع لباسهم. ووراءهم يقف النبلاء، والمتنفذون من الأعراق، والعامة المتميزون. ويبدو غيرَ بعيد العامةُ المتجمهرون في جماعات. ومن الناحية التي يُعَدّ فيها الغداء تفوح روائح اللحم المسلوق والمشوي الطيبة. وكل ما يبدو في المدى المنظور،سواء كانوا طباخين أم فتياناً، لابسو قبعات فحسب، ولا ترى ذات غطاء رأس.

دخل الأمير الوالي حتحُشقوه كرغوقه إلى ساحة المؤتمر بفراء مفتوح الصدر، وقال بصوت حازم كاتماً ألمه، شاملاً الجميع:

– أيها الأمراء، يا من جعل الله أيامكم سعيدة. سأفتتح اجتماع أمراء القبرتاي إن رأى كبارنا أن الوقت مناسب.

– مناسب أيها الأمير الوالي، مناسب، – قال الأمير مدار الذي لا يكاد وجهه يبدو من فرائه الذئبي. — وسيوافقني الأمراء الآخرون باسم أمراء جلاخستان. نمنحك الإذن بالافتتاح. قولك قولُنا، وفعلُك فعلُنا. ولكن إن وافقتموني فلْندعُ العامةَ الواقفين بعيداً إلى الاقتراب ليسمعوا كلامنا ويتفقوا معنا؛ ما رأيكم أنتم؟

– صحيح، صحيح. — وافقه أمير القبرتاي الصغرى، إيداريه الطويل القامة، الممتلئ الجسم. ليس موضوع مؤتمرنا اليوم مقصوراً على الأمراء. بل يهم الأديغة كلهم. دعونا نتذكر شجاعة الحدادِ مَشِقوه وأنصارِه.

– حسنٌ أنكم تذكرتمونا... — غمغم جرجه ماريم.

– الصمت، الصمت!...– دفع تاوقان الأخ الأكبر لماريم أخاه بمرفقه، وهمس في أذنه: – لا تنس أننا أباظة غرباء... ولاسيما أننا استطعنا الاستقرار بين هؤلاء بصعوبة.

– وأي غُربة وقد ولد أبونا وأمنا وأولادنا هنا؟!

– أيها الأخوان جرجه، ألا تسكتان لحظة! — عنّف سَبَانْج كبير الحراس الأخوين مشدداً على لغتهما، لغة الأباظة، – دعونا نسمع ما يقول أميرنا الوالي!

– وهل سدَدْنا أذنيك... — ما إن بدأ ماريم بالرد حتى رأى نظرات الأمير مصوَّبة إليه، فصمت متظاهراً بتمسيد لحيته غير الكثيفة.

تابع الأمير كلامه بعد وقفة قصيرة:
– إن رأيتم الوقت مناسباً فتجمّعوا قريباً مني. سيتّسع مكان ابتهالنا إلى الله لنا جميعاً. ما سأعرضه عليكم اليوم مبعثُ قلق لكل أديغي، وهو الموقف بين القرم والقبرتاي. لن نصبر المزيد على خان القرم الذي يعيث فساداً بأمننا بحجة أن له دَيناً علينا. جيراننا يسألوننا: أليس عندكم زعيم يجمعكم على كلمة واحدة؟! دعونا نتباحثْ في ما يجب أن نفعله. ولنتشاور في ما بيننا!
بدأ أعضاء مؤتمر الأمراء الذين خُيّل إليهم أن الريح التي تحمل ذرات الثلج بدأت تضعف، يتبادلون النظر ويتهامسون، لا يتفقون على من سيتكلم. ولكن الريح المشبعة بالدخان الخانق التي تهب من المطبخ أعادت الوعي إلى الذين هبّت عليهم. فقال الأمير إيدار بهذه الحجة:
– ألا تجدون حلاً لهذا الدخان يا من بارك الله بنسلكم! إنه يعمي أعيننا، أكان مناسباً عقد مؤتمر في مثل هذا الجو؟.. ومع ذلك، – تقدّم في كلمته بسرعة، – سأُدلي بدلوي حتى لا تتهموني بأني تكلمت مرتين. باسم إينال المنير الذي يُعزُّه الأديغة كلهم إلى الآن، وباسم ابنه ذي الأفضال الكثيرة علينا، وباسم أخلافه زملائي الأمراء، سأطلعكم على رأينا: لا جدال في أننا سنتصدى لعدونا.سنمد أيدينا إلى روح من يمد يده إلى أعيننا. أليس هذا رأيك أنت أيضاً يا جباغ بفطنتك التي وهبها الله لك؟ يسرنا أنك أنت وسائر أبناء جيلك الأصحاء جسداً وعقلاً، وعامّة قومنا، تساندون أميرنا الوالي كُرغوقه. أنتم المسؤولون عن سدِّ طريق القرم فهبّوا إلى واجبكم، النجدةَ النجدةَ! لا تدعوهم يتقدمون. ألسنا نحن أيضاً أديغة، ومن أسرة واحدة ولو كنا بعيدين عنكم؟! وكما قال الأمير الوالي كُرغوقه الذي جمعنا اليوم، أمراءَ ونبلاءَ وعامةً، ويدير مؤتمرنا، سنكون كلمة واحدة. وكما سألكم الأمير القادم من جلخستان، ولا تؤاخذني على عدم ذِكرِ اسمك، أسألكم أنا أيضاً يا أهل جلخستان: ما رأيكم يا إخوتنا؟ واختطف خنجره ورفعه عالياً فوق رأسه: هل ترونه؟ أُشهِد هذا على ما قلته!
– نعم، نعم، – وافق بعض النبلاء والعامة الأمير عسى أن يُنهي ثناءه الطويل.
– إذا كان الأمر هكذا، – قال الأمير إيدار فرحاً بامتداحه، واقفاً على رؤوس

أصابع قدميه مما زاد ضخامته ضخامةً، – فهذا ما قلناه لكم — وأردف بعد وقفة قصيرة: ولكن إذا كان ما سأقوله لا يسوؤكم يا أهل باخسان فسأشرح لكم بدايةَ ما يقلقنا اليوم: السبب هو زياراتكم المتبادلة مع القرم.

– نعم، نعم، أيها النبيل الذي سمعت صوته ولم أعرف اسمه. — قال الأمير إيدار بسرعة، وبرّأ نفسه: – حدث مثل هذا، أنت على حقّ، ولكن ما مضى انتهى فلا نعدْ إلى الكلام عليه! وسأقول لك ثانية: العادة في نواحينا إلى الآن أن يستمع الناس إلى كلام الأمير، ويثقوا به، ولا ينقضوا كلامه. وإن كنت أكذب فسيسدد كلامي أخونا الأصغر قزنقوه جباغ.

– لا يا أمير، أيها الكبير الذي أدعو له بشيخوخة سعيدة. — لم يستطع جباغ الوارد اسمه إلا أن يجيب: — أيها الكبار الذين جمعَنا بكم المأزقُ الذي نحن فيه. أسلافنا الذين ورّثونا شِرعة الأديغة قالوا: هذه شرعة الأديغة، لا شرعة الأمراء أو النبلاء أو عامة الناس.. لا تدَعونا نضمّ إلى شرعتنا من لن يتفق معنا. سأقول رأيي باختصار في سبب اجتماعنا اليوم حتى لا أطلب الكلام ثانية. سأتجنب الأخذ والردّ في أقوال من سبقوني إلى الكلام متناسياً إياها ، فأقول: أوافقهم في موضوع الوحدة التي هي ملجؤنا الأخير. وكما كان يقول كبارنا بارك الله في ألسنتهم: "إما أن نكون رجالاً أو نموت!" فلا مخرج لنا سواه. لِيكنْ هذا الشعار منطلَقنا إلى وحدتنا! — وتابع قزنقوه جباغ كلامه مُشعِراً باتفاقه مع النبيل أشبه مينشاقه: – يكفي ما سمحنا لهؤلاء بإهانتنا؛ إن كان من يتعرض لإهانة يجدُ الفرصة للانتقام فهذه فرصتنا؛ لنعدْ إلى وعينا.

انتصبت صورة نالمس أمام مخيلة خالها أشِبَه مينشاقه إثر الكلام الذي سمعه من جباغ. وتساءل: ما أخبار تلك المسكينة يا ترى؟! أتكون في إحدى دور البغاء التابعة للخان أو للسلطان؟

هيجت الفكرة المفاجئة التي هاجت في رأس مينشاقه غضبه، فهبّ دون وعي إلى مقبض خنجره.

نصح جرجه ماريم صديقه الأكبر سناً.

– اصبرْ! – لا أحد يقول ما يهيجك.

وبعدما تكلم بعد الأمراء عدد من النبلاء وزعماء العامة متفقين على أفكارهم، خرج الأمير الوالي من الحلقة مرة أخرى وخاطبهم:

– أيها الأديغة، يا من تعدون صدقكم بعضاً من شرفكم، أدعوكم ونحن نقترب من نهاية مؤتمر أمرائنا بالاتفاق والتفاهم إلى اتخاذ قرار مشترك إن لم يكن بينكم مَن عنده ما يضيفه.

خرج رجلٌ من بين أعضاء الأسر المتنفذة:

– وكيف لا يكون بيننا أيها الأمير الذي يعقد القبرتاي آمالهم عليه؟ اسمحوا لي أن أساهم باسم الرعاة الذين يعملون لنا في مرتفع قنجال كي لا يجري لنا ما جرى لمن دُعُوا إلى عرسٍ وصُرفوا دون أن يُسمح لهم بالرقص.

– مهلاً، مهلاً! — دخل الحاج الأفندي قَسَي إلى الساحة وهو يهز رأس عصاه الفضية، – اصبرْ يا شردم جانخت، يا من هو شابّ مع الشباب، عجوزٌ مع الشيوخ، لسنا في عرس للجنّ، أنا من أمة محمد رسول الله الذي خلق السموات والأرض، الذي يتضرع إليه الجميع، ولا يتضرع إلى أحد. سأقود دعاءكم إليه كي يحمينا من الناس الأردياء الذين لا يُكنّون لنا الخير، ومن قرنائهم الشياطين.

قاطع الأمير الوالي الذي عاد في العام الماضي من الحج كلام قسي الذي يدّعي الأفنديّة:

– لا تدَعونا ندخل في جدال يا حاجّ – موعد دعائك متى انتهى اجتماعنا، لا الآن.

– إن كان هذا رأيك يا أميرنا الوالي فلن نعصي أمرك لأنك لا تنسى الله سبحانه وتعالى.

في اللحظة التي قرر فيها الأمير الوالي تجاهُلَ الإطراءات التي انهالت عليه، واستكمالَ كلام الراعي العجوز الذي قطع الأفندي الأسنّ منه كلامه، رأى الرجالَ الذين يحملون موائد برك الجبنة والشلامه، والنساء اللواتي يتبعنهم، فوجه إليهم قائلاً: "حسنٌ أنكم تحركتم أخيراً!":

– تفضَّلْن يا أخواتِنا العزيزات، تفضّلْنَ! يسرّنا أنكنّ ما نسيتُنّنا. نسمعكن نحن

كل رجال المؤتمر.

قالت أكبر النساء سناً، المرأة التي تلقّت إيماءة احترام:

– أيها الوالي الأمير حَتْخشقوه، يا من ستذكر الأجيال اسمه بالخير. يا مؤتمر الأديغة القبرتاي الذي ندعو له أن يتفق على رأي واحد، نحن موفدات من نارِنه، عقيلة الأمير، ندعو لكم باسم كافة نساء الأديغة أن تكون قراراتكم خيراً عليكم. وسنكون معكم في اليوم بل الساعة التي ستختبرون فيها رجولتكم.

انتهت المرأة الزعيمة من كلامها، فنقض الأمير الصمت الذي ران على رؤوس المؤتمرين:

– أشكركن أيتها الأخوات العزيزات باسم المؤتمر. نعِدُكنّ أن نزيد في رجولتنا، وأن نحمي أطفالنا، ولا ندع الأمهات يأسين عليهم. وندعو لكنّ أن ترين الخير في أُسَركنّ، وتعشِن معها شيخوخة سعيدة.

– قل يا أمير: باسم الله العزيز الذي خلقَنا، – قال الأفندي قسي لا يطيق صبراً، ورأس عصاه الفضية نحو السماء، ثم توجه إلى المؤتمر: – لا يجري شيء في دنيانا العاجلة دون علمه تعالى يا جماعة المسلمين. قولوا: إن شاء الله! اذكروه في سِرِّكم دائماً. ولا تنسوا وضوءكم وصلاتكم!

– أليس القرم الذين يأتوننا كل عام ليسْبوا أطفالنا مسلمين؟ – عرّض أحد العامّة بالأفندي – ألا يعلم الله تعالى ما يفعلون بنا؟!

– اسكت يا عديم الإيمان! لا يُقال مثل هذا التجديف في خالقنا سبحانه وتعالى. — اعترض الأفندي كلام الفلاح بعنف.

– وهل في القرآن أن يسفك المسلم دم المسلم؟

– وكيف لمن لا يعرف لغة العرب أن يعرف ما فيه؟!

– اسمع ما يقول هؤلاء! — همس الأفندي قسي في سرِّه، وعاد مسرعاً إلى ريائه: – نعم، صحيح، أنتم على حق يا إخوتي المسلمين. التتر أيضاً على ديننا، ولكن سترون عاجلاً أو آجلاً كيف يخرجون عن دينهم. ولن يغفر الله تعالى ما يفعلون. وسينالون عقابهم في نار جهنم. وأنا مسؤول عن كلامي أمام الله تعالى، وبعده الأمير الوالي الذي بنى لنا جامعاً يشرح القلوب.

كان الأمير الوالي حتخشقوه معتاداً على أقوال الحاج الأفندي قسيّ فاكتفى بإعلام الحاضرين موافقته له بإيماءة رأس، ثم عاد إلى شردم جانخت الواقف بانتظار كلام الأمير الذي نطق الآن باسمه على مسمع من الجمهور:

– اعذرنا يا جانخت على مقاطعتهم كلامك. وعَدْتَنا أن تُسمعنا ما لم يقله غيرك فهات ما عندك!

– نعم، أقول: هل سيتخذ مؤتمر القبرتاي الذي سيشبع من بضعة خراف سِمانٍ ترعى على جبل قنجال أيّ قرار يا ترى أم سننصرف بعدما نفّسْنا عن ضيقنا؟ والآن موضوع آخر،وهو موضوع يقول العامة إنهم لم يسمعوه هنا. ألسنا نحن والأديغة الذين يعيشون مواجِهَ القرم في سهول نهر بشزه، وأمراء البسلني والبجدوغ والجمكوي والجانيه، ونبلاؤهم، ومتنفذوهم، وعامّتهم، من عرق واحد؟ نكلفكم أن تطّلِعوا على آراء كل هؤلاء.

– لا تتعارض أقوال مؤتمر الأمراء وأفعاله.ولا ننسى أبناء قومنا في حوض نهر بشزه. وسنستأنس برأي هؤلاء. — أجاب الأمير حتخشقوه بابتسامة خفيفة،

– إذا كان هذا رأي رعاة جبل قنجال فسنختتم مؤتمرنا اليوم بالاتفاق على اقتناع ورضا من الجميع. ولما كنا اتفقنا على تكليف قزنقوه جباغ بصياغة نص الاتفاق فلتتفضل يا جباغ!

– لن أطيل الكلام على مبدأ "مَن قرارُه وفِعله مختصَران فكلامه مختصر": لِيرفعْ خنجرَه دليلَ قَسَم كلُّ من يوافقنا على أننا سنكون الموت لأي عدوّ!

ارتفع صليل عشرات الخناجر إلى السماء المتجمدة من البرد. وتوجه الحاج الأفندي الذي لا يحمل سلاحاً إلى المؤتمر رافعاً طرف عصاه:

– قولوا جميعاً، المتوضئين منكم وغير المتوضئين: آمين! وادعوا إلى ربكم أن يتقبل منا قرارنا الذي أقسمنا عليه. وادعوا إلى من غمرنا برحمته بقراءة الفاتحة. ولْيردِدْ من يحفظ الأدعية ورائي بقلب خاشع. ومن لا يدعو فلْيحفظها في قلبه، وليصبح جزءاً من كيانه. — انتهى الحاج من دعائه فقال متخذاً شخص المضيف: والآن تفضلوا باسم الله تعالى إلى ما أعده لكم أميرنا الوالي!

الفصل الرابع

المكان: إستانبول، قلعة توب – كابي الكبيرة.

الزمان: الثالث من شباط عام 1708.

الريح الباردة التي كانت تهبّ أمس من جهة مضيق البوسفور توقفت. والمدينةُ التي غرقت في صمتِ صلاة الظهر عادت إليها الحركة والضجيج: الدكاكين والمطاعم والمقاهي افتتحت أبوابها. والأسواق تبيع وتشتري. وعربات الركاب الأنيقة تتجول، وعربات النقل التي تجرها الحمير. والباعة المتجولون يحملون الماء والشاي والحلوى تعلو أصواتهم في كل مكان. ويضاف إلى أصواتهم جلبة تحيات المسافرين في السفن عبْر مضيقي البوسفور والدردنيل اللذين يربطان آسيا بأوربا. إذا عدت قرابة قرنين ونصف من الزمان فالقباب المدببة لمساجد إسطنبول عاصمة روما الشرقية (بيزنطة) سابقاً والتي كانت تحمل اسم القسطنطينية، تشهد على إخلاص العثمانيين الأتراك للإسلام. وهذه المآذن تستضيف من يطيعها، وتُرهب من يعصيها.

مضى على زيارة قبلان – جري، خانِ القرم لإستانبول أكثرُ من ثلاثة أيام: لا يزال السلطان أحمد الثالث يماطل في استقباله بين اليوم والغد. قبلان – جري يخمن مصدر هذا "اليوم والغد" ولكنه يخاطب نفسه متحلياً بالصبر والرجولة: "وأنا أتحمل قسطاً من المسؤولية. خذلَنا منغل – جري مع القبرتاي، لم يكن على قدر ما توقّعنا منه. أبادوا عدداً من فرق جيشه الأميري في ليلة واحدة، فنجا هو بجلده، فهل يثق السلطان بك وأنت على هذه الدرجة من الجبن؟!ماذا أقول له؟ وبأي عين أنظر في وجهه؟ ما جرى لنا، نحن الأخوين، نستحقه. أيُّ أخوين؟ بل شهباز – جري الذي قُتل في البسلني ثالثُنا![1]

---

[1] شهباز جري ابن خان القرم سليم – جري ساهم في حرب تركيا – بولونيا على رأس التتار الكالغار. حارب تحت إشراف والده سليم – جري في حرب تشرين عام 1694 ضد جيش ليتوانيا. وفي الأشهر الأولى من عام 1695 دمر القلاع التي حصّنها الجيش البولوني في كامانيث – بودولسكا، وأرسل الزاد إلى الجيش التركي الذي كاد يهلك من المجاعة.

احذروا من مقاتلي الشراكسة الغيورين على سمعتهم، أرضهم عزيزة عليهم، يقارنون رمحهم بحريتهم. لا تغزوهم بذريعة أن لكم عليهم إتاوة قبل أن تعرفوا نقاط ضعفهم! لا تنغروا باختلافاتهم الداخلية فتغزوهم. استغِلّوا كل ما يمكنكم الاستفادة منه من شِرعتهم! غفِلنا عن كل ما كان والدنا سليم – جري يوصينا به".

خُيِّل لقبلان – جري الذي كان يذرع أرض الغرفة الواسعة بعنف حتى لَيكاد يخرقها أن الباب الذي يتأمل انفتاحه قد انفتح، فتوقّفَ، وأنصت. وحين فهم أن سمعه قد أخطأ هذه المرة أيضاً تذرّع بالاقتراب من خلال إحدى النافذتين المطلتين على البحر كي لا تتجعد ملابسه الرسمية ولا يُضطر إلى أن يخلع سلاحه.

يظهر مضيق البوسفور غير قريب ولا بعيدٍ. وبعض المراكب تعبره. وتشرق فوقه شمس يوم غير بارد من كانون الثاني. ولا يُسمع تصايُح طيور البحر العابثة. ومتى تجاوز قبلان – جري بقلبه هذه المناظر رأى مراعي القرم، وأطل على بخجساري التي تختفي في مضيق نهر جورك – سو المتعثر بين القمم الصخرية المدببة. – انتصب قصر الخان أمام عينيه. ورأى فيه الغرفة التي قضى فيها ليلة حلوة مع ألسو ليلة سفره. وأحس بالعرق الخفيف الذي غطى رأسه المحلوق حديثاً. وعبر خصرُ نالمس الدقيق أمام عينيه.

وفي عام 1699 نشبت الفتنة بين الإخوة حين استلم أخوه الأكبر دولت – جري السلطة. ووقف في وجهه أخوه غاز – جري الطامع في أرض كالغار. سيطروا عليه في البداية ولكنه لم يستسلم. وبدأ أخوه من أمه شهباز – جري يحاربه سراً. وفي أواخر عام 1699 جاء إلى شركيسيا لعقد صلح مع أمراء الشراكسة، وقُتل في البسلني بعد قليل على يد الإخوة قانقُش. يروي كانتيمر ديمتري هذه الأحداث كما يلي: " حين أرسل الخان سليم – جري ابنه شهباز – جري إلى البسلني لاستيفاء إتاوة السنتين التي عليهم، سددوا له الدَّين مع احترامهم. ولكنه رأى فتاة جميلة فاستدعاها إليه وحبسها في الغرفة لينام معها، فقتله الإخوة قانقش عقاباً. المؤلف.

ابتسم خان جري: "هذه أغلى هدية أتتني من القبرتاي في العام الماضي وإن لُمتُ وقتها منغل – جري العاثر الحظ. إن أردتَ الحقيقة واضحة فإن الصبيان والصبايا الستة والثمانين لا يُستهان بسعرهم في أسواق كافا أو إستانبول. لو جئت إلى السلطان أحمد الثالث الذي دعاني إليه بنالمس الصبية الشركسية التي تغار منها ألسو كما كنت قررت، لَاستهان بكل ما يملك لأجلها. ولكني فعلتُ خيراً إذ لم آت بها هدية لمن جعلني أنتظره كل هذه الأيام. وليس قليلاً ما جئته به على كل حال: برميل من الباخسمه المصنوعة من الذرة الصفراء التي يحبها السلطان جداً، مع قرن غزال جبلي مطلي بالذهب يشرب به، وكل هذا على حصان من جنس القبرتاي عليه أحلى سرج مطلي بالذهب والفضة. ولم أنس زوجته الشركسية فأهديتها أكثر من ثمنها لو بيعت: خاتماً ذهبياً محلّى بالألماس والياقوت وقرطين مثله".

التفت قبلان – جري على صوت الباب الذي ينتظر انفتاحه؛ فسأل الحاجب:

– ما الخبر؟

– يدعوك السلطان إليه مع صلاة العصر.

– ربما يدعوني لأصلي العصر معه.

– وهذا ما أخمّنه أنا أيضاً.

– وهل سألتُك عما تخمّن ؟ – نهر الخان الذي كان يكظم غضبه بصعوبة حاجبَ السلطان، ثم رقّ له: – هيا أُطلب منهم أن يجهزوا لي عربتي. إن كان هذا كلامَ السلطان فلأصلِّ العصر لأن الوقت لا ينتظر أحداً. وهل تريد أن تضيف شيئاً آخر؟

– نعم يا خان، رأيت عربة عليغُت باشا، قائد الجيش المرابط في كافا على باب القصر.

– ومن أين تعرف أنها لعليغت باشا؟

– سألت عنها فأخبرني السائس.

– وهذا خبر جيد... – قال قبلان – جري بلسانه، وقال في سِرّه: "ولكن لا أعرف لماذا طلبه قبلي؟"

كان قد بقي قرابة ساعة على صلاة العصر حين أُصطُحب قبلان – جري إلى قاعة السلطان. كان الخان يعرف أن حمل السلاح ممنوع في تلك القاعة فتجرد من سيفه وخنجره، وسلّمهما للحارس الضابط، وعبَر البوابة الكبيرة التي تلمع فوقها مطرَّزات الذهب والفضة. وأومأ بالتحية للسلطان أحمد الواقف أمامه على مسافة بضع خطوات. وما إن قبّل اليد التي مدّها إليه وتراجع حتى دلف قائد الجيش مرتاض باشا بكتافياته الجديدة اللماعة. وحيّا السلطان على طريقة الخان تماماً.

قال قبلان – جري وهو يتأمل السلطان: "ليس هذا الرجل متقدماً في العمر كما كنت أتصور. هو أكبر مني أو من عمري. عليغت باشا بالنسبة إلينا كهلٌ ربما في الخمسين. مرآه رجل عبوس، وإن كنت لا أدري مدى طيب أخلاقه. والأشدُّ عبوساً منه السلطان الذي نقف في حضرته. لا ترى في وجهه أثراً لابتسامة. كلمة السلطان سهلة النطق ولكن أعباءه كثيرة. من الصعب أن تكتشف حقيقة أي إنسان من أول نظرة. الطريقة الوحيدة لمعرفتها هي أقواله وأفعاله، وسلوكه وتصرفاته..."

لم يخطئ قبلان – جري في تقدير عمر السلطان أحمد الذي التقى به اليوم لأول مرة، فهو أكبرُ منه بخمس سنوات. السلطان أحمد الثالث الذي في الخامسة والثلاثين هو ابن السلطان محمد الرابع. ولد عام 1673، وحين خُلِع أخوه مصطفى الثاني استلم الحكم وهو في الثلاثين. ومنذ اليوم الأول لحكمه اتبّع تعليمات والده في الاستفادة من خان القرم وتطويعه لمجابهة الفرسِ، والشراكسةِ خصوصاً من سكان القفقاس. وهو يتخذ من حاكم السويد كارل الثاني عشر الذي يحارب روسيا حالياً، ومن يسانده سراً حاكم أوكرانيا مازيب، صديقين،ويؤمّلهما بالمساعدة. وفي الوقت نفسه يحزنه أن تركيا العثمانية متخلفة عن أوربا في العلم والتربية. ويفكر في ما يجب أن يفعل. وهو يحب كل ما هو جميل، فيمتّع نفسه مع حريمه، ويسمي الفتيات في هذا الجناح بالزهور.

– تفضلوا، اجلسوا! – قال السلطان وهو يجلس على عرشه، – لن نضيع وقتنا الذي أرسله الله لنا عبثاً. وسندخل مباشرة في الموضوع الذي نجتمع لأجله.

وصلاة العصر تقترب. – والآن دعنا نسمع القضايا المتعلقة بالشراكسة يا خان القرم؛ أعلِمنا بحقيقة الوضع.

نهض قبلان – جري ناسياً أنه خان القرم وقال وهو يودّ لو تنغرز ركبتاه في الأرض في حضرة السلطان:

– سأعرض عليك رأيي وإن كنت أعتقد أنك أكثر اطّلاعاً مني يا موفد اللهِ، اللهِ الذي يضرع إليه الجميع ولا يرجو هو أحداً، وأضمِّن كلامي ما فعل القبرتاي الشراكسة بمنغل – جري في أرضهم.

– اجلس أيها الخان، اجلس، سنتحدث جالسين.

أكمل قبلان – جري جالساً:

– كانت أمورنا حسنة منذ أخرجَنا من لم يُخلق مثلُه على الأرض، القائدُ الكبير جنكيز خان من شمال القفقاس فاستوطنّا القرم، إلى العام الماضي.

– ما تسميه "موطناً"، لا يناسب آباءنا فلتنسَه! – أصلح السلطان أحمد كلام الخان ذي القامة الطويلة والكتفين العريضتين، – وكما قدّر الله العلي لنا طرفاً من أرضه فقد أخرج الشراكسة من القرم وخصّكم بها[1].

---

[1] يكتب العالم الأرمني تير – أبراميان وبوركشيانر، وتوافقهما الباحثة الشركسية تْسَي زاريمه: "كانت بعض قبائل الشركس تعيش في القرم قبل خانية القرم في القرون الوسطى البيزنطية. ويشهد على هذا كثير من أسماء القرى والجبال الشركسية التي ما تزال تُسمع في القرم، مثل شركس و شركس – علي وشركس توغاي...

ثم إن من الممكن إثبات هذا بطريقة أخرى. حين زار مارتين برونيفسك القرم عام 1578 وصف ما رآه هناك كما يلي: "القلعة شركس كيرمن قلعة بناها الترك حديثاً. ولا يعرف الروم والتتار والترك سبب تسمية القلعة القديمة المهدمة التي تحمل الاسم نفسه. والمكان الذي تقوم فيه هذه القلعة يسمونه إقليم الشركس.

وتبعاً لكتابات المؤرخين ففي عام 1475 حاول السلطان العثماني إخضاع القرم فقتل جنودُه الأديغةَ – الشركس المقيمين في القرى والأماكن الشركسية التي عددنا أسماءها،كما قتلوا

– نعم، يا موفد الله، نعم — برّأ قبلان – جري نفسه مرتاحاً لِما سمعه. — نبّهتَني إلى ما لم أفطن إليه. وكما قلتَ فقبل أن أكرر كلمتي القصيرة وأختتم يا بديل الشمس فقد جئتك من قلب خانية القرم بهذا الخنجر الفضي – الذهبي. والتتر أبناء قومك يتأملون منك أن تُعِزَّهم وتحميهم وتقوّي عُرا العلاقات معهم طوال عمرك وحكمك. وكما أمنحك كل مودتي فهم يمنحونك كل احترام. وسنبقى وراءك في كل مهامّك، وأنا شاهد على عواطفهم نحوك.

نظر السلطان أحمد إلى عليغت باشا القائد بطرف عينه، وابتسم في سره، وقال لنفسه:" هذا الخان بالقياس إلى الخان الثقيل الذي جئنا به إلينا منغل — جري، يمكن أن تطوّعه كما تريد. لا تردعه المصيبة التي جرت لأخيه، ولا يسأل عن أحواله. ومهما سأل وتوسل فما يدرينا ما سيجري غداً. ربما يعرف أننا لن نغيره له. ولكن يقال إنه لن يتنازل عن عرشه وإن كانت فيه أشواك تخِزُه. منغل — جري، وإن لم يتبوّأ عرش القرم، طامعاً فيه حال عودته من القبرتاي حاملاً علم الثناء، أسيرٌ عندنا بلا أمل، مشعِرين إياه أن آماله خائبة. وعنده الكثير من الوقت ليفكر في شخصه. وسنرى الآن ماذا بمقدور هذا الخان المحب للمديح أن يحقق في أرض القبرتاي... وإن جرى له ما جرى لأخيه؟ هذا لا يجوز! هكذا سنخيّب أمل كارل ملك السويد، ومازيب. وسنحقق ما يريده قيصر روسيا بطرس ذو العينين الواسعتين...".

خرج السلطان أحمد من أفكاره:

– رضي الله عنك يا خان على مشاعرك نحو أبناء قومك، وأنا أبادلهم المشاعر نفسها. بلّغْهم امتناني لهم وإعزازي. ولكن يا خان، – سكت السلطان برهة وأكمل، – لن أستطيع الشهادة يا خان على المهمة المستعجلة التي لم تنته بعدُ. متى غزوتم مدفوعين بالإهانة التي ألحقها بكم هؤلاء الكفار في أخيك، وعُدتم

المسيحيين فيها.وأسروهم. ويُظن أن بعضهم هاجر إلى حيث يعيش إخوانهم في غرب القفقاس. المؤلف.

برؤوسهم فسأشهد على بطولتكم. ما رأيك أنت يا عليغت باشا، أليس كلامي صحيحاً؟

– صحيح يا موفد الله، أنت شاهد على رجولة الترك يا بديل الشمس!

– إن كان هذا رأيَك فلتكن شاهداً على قبلان – جري خان القرم. كم ألفاً من الجنود ستقود إليهم؟

– نحن جاهزون بستة آلاف الجنود المعسكِرين في كافا.

– يكفي خمسة آلاف. لا يجوز ترْكُ كافا دون حماية. وأنت يا خان كم تستطيع أن تحشد؟

– نحن بإمكاننا أن نحشد أكثر من خمسين ألفاً في القرم.

احتدّ صوت السلطان:

– لا أفهم يا خان معنى "سنحشد"؛ هل يعني هذا أنكم لم تحشدوا الجيش بعد؟

– نحن جاهزون في أي لحظة يا بديل الشمس بمجرد إشارتك. وكما كلّفتَ عليغت باشا فبإمكانه أن يضيف إلى حشْدِنا خمسة آلاف. وقد أبلغَنا أبناءُ ملّتنا النغوي أن بإمكانهم أن يضيفوا إلينا عشرة آلاف متى اقتحمنا بلاد الشركس.

– قال السلطان يزمّ عينيه:

– أفهم من كلامك أن أمير الجمكوي بولتقوه أقرب إليكم. ماذا تنوي به؟ ليَقف معك هو الآخر!

– لا أعرف كيف أعبّر لك يأيها السلطان: الجمكوي بزعامة الأمير بولتقوه من عِرق القبرتاي – الشركس.

– نعرف هذا... ولكن صهره أبرج يقيم عندكم. أسمع أنه يُخالط الشراكسة كثيراً، وأنهم يسمعون كلمته. ويقال إنه يتخذ من باتر مُفتي بولتقوه صديقاً له. أليسوا من أتباعهما؛ لماذا لا تستفيد منهما؟

– تعرف أحوالنا جيداً يا موفد الله. ساعدَنا مبعوثنا وْراقه عبد الجليل على إرساء أساس متين مع شراكسة الغرب. سأشدد عليه أيضاً ما كلفتني به.

– فكرتَ جيداً، على كلامك سيكون ثمانون ألف مقاتل تحت تصرفكم؛ كم يستطيع الأديغة – القبرتاي إذن أن يحشدوا مقابلكم؟

– صحيح أن إقليم الأديغة – القبرتاي كبير، ولكن خلافاتهم أكبر. نعتقد أنهم سيحشدون خمسة عشر ألفاً.

– بالإضافة إلى النغوي يقيم البالقر – الترك أيضاً بين القبرتاي – الشركس. – قال السلطان أحمد كأنه غير مهتم بمن يذكرهم، – نعرف النغوي الرحَّل أكثر من سواهم. هؤلاء كان عندهم امرأتان من الشراكسة، الأختان الكُبريان لزوجة القيصر إيفان. من نجهل أحوالهم هم البالقر الجبليون. إلى من يميل هؤلاء يا خان؟

– هؤلاء أيضاً كأنهم من ملّتنا حسب لغتهم. وهم مسلمون. ولكنهم يُجبرون أنفسهم على التعايش مع جيرانهم الشراكسة وإن كانوا يبغضونهم في أعماقهم. ولا تخلو علاقاتهم من بعض التوترات أحياناً.

ابتسم السلطان:

– ونحن اتخذنا زوجات من بنات الشراكسة...

– أقول هذا على أمل أن يتفهّمونا؛ ألسنا من دم واحد يا بديل الشمس؟ – خطر له أن يقول للسلطان: "وهؤلاء عندهم صهر متحالف مع الروس هو أيوك القالمق، غير أنه تراجع إذ لم يره لائقاً.

– وهل تعدادهم كبير؟

– ليسوا قليلين على ادعائهم.

رفع السلطان رأسه فجأة:

– إياكم بهذه الحجة أن تتهاونوا! الشراكسة محاربون أشداء مثلنا. يستهينون بالموت في سبيل حريتهم. إن ظهر بينهم رجل نبيه مثلكم، إن كان أميراً أم غيرَه، استطاع أن يجمع حوله هؤلاء الذين تدّعون أنهم متفرقون... يكفي ما جرى في العام الماضي للمسكين منغل – جري معهم... ثم إن كانت رجولتكم تفي – ولا أشك في هذا– فلي عندكم طلبٌ آخر: الشراكسة الذين هربوا من

منطقة الجبال الخمسة[1] التي تحت سيطرتنا فاختفوا محتمين بمضائق الجبال، أريدكم أن تطردوهم من مِنَعِهم التي لجؤوا إليها، فتعيدوهم إلى حيث كانوا يقطنون.

أخفى عليغت باشا ذُعره مما سمع، وألقى نظرة مودة إلى السلطان. وألقى النظرة نفسها إلى الخان. وأصلح وضع أحد أزرار معطفه الذهبية دون حاجة إلى إصلاح، ومسح أطراف شفتيه الغليظتين بمنديل أبيض. وألقى نظرة ثانية إلى الخان تقول: نحن ماضون إلى حرب، لا إلى تحصيل الإتاوة.

سأل السلطان الذي لاحظ تلك النظرة قائدَ جيشه:

– هل تريد أن تقول لنا شيئاً يا باشا؟

– انتهينا من الكلام في شأن الشراكسة يا بديل الشمس، إن سمحت لي أود معرفة حقيقة المهمة التي كلَّفْتنا بها.

– حقاً، استوفينا الحديث في شأن الشراكسة. — قال السلطان باسماً، ثم أضاف: – ولكننا نسمعك إن كنت لن تصحح كلامنا.

– وكيف أصحح كلام سلطان الترك المنير! — بل نحن مستعدون، إن لزم الأمر، لأن نوقِف كل عرق الشراكسة في حضرتك مطأطئي الرؤوس. ولكن من حق مقاتليك أن يعرفوا مهمتهم فأود أن أعرف: هل نحن ذاهبون إلى القبرتاي محاربين أم لتهدئتهم؟

– عليكم أن تشعلوا نار جهنم في أرض الشراكسة العصاة. وتعرّفوهم مدى قوتنا. ولا تنسوا أننا أجبرنا في حربنا الأخيرة قيصر الروس بطرس ألا يتدخل في شؤونهم وشؤون كل شراكسة شمال القفقاس[2]، — سكت السلطان برهة، ثم

---

[1] بيتاغورسك حالياً. المترجم.

[2] يكتب بِغَجَنَقوه بارسيي: في عام 1700 تعهد القيصر بطرس بموجب المعاهدة بعدم التدخل في شؤون شمال القفقاس.وتبعاً لهذا التعهد وجب أن تتأثر سلباً كل التفاهمات بين روسيا والقبرتاي. وفي ذلك الوقت أدرك الأمير حَتْحُشقوه كرغوقه أن لا فائدة من الاعتماد على روسيا، فبدأ يبحث عن الجيران الذين يمكن أن يساندوه. ولكن القالمق وقوزاق تيرسكه

سأل الخان والباشا معاً بصوت ألطف: هل فهمتما؟

– نعم، فهمنا يا بديل الشمس. – أجاب عليغت باشا باسمه وباسم الخان. – ثقْ بنا، لن ينبو سلاحنا، وسنعمي أعين الشراكسة الكفار.

– إن فهمتما فهذا هو المطلوب... سيسمع الله تعالى دعاءنا، ويشملنا برحمته. نختتم اجتماعنا المشترك هكذا يا مرتاض باشا. سنجتمع ظهر غدٍ أيضاً للحديث عن شؤون كافا. والآن سنبحث أنا وقبلان – جري تفاصيل بعض شؤون القرم.

لم يتكلم السلطان وقبلان – جري على أي موضوع يتعلق بالقرم. حين خرج عليغت باشا من القاعة نظر السلطان بخبث إلى الخان وقال له:

– تفضل يا خان،ينتظروننا بعد صلاة الظهر في مسجدي، في جناح الحريم، حيث سنمتّع أنفسنا. أراك في عزّ شبابك. لا أظنك أصغر مني بكثير. ما أحوالك مع النساء الجميلات؟ في الحريم نساء روميات وأرناؤوط وعرب وتتر وروس وترك. وفيه من تشبه بجمالها البنت الشركسية التي تحتفظ بها عندك، كما أخبرتْني زوجتي الثانية. ألا يكفيك أن تنام مع إحداهن؟..– مازحه السلطان كأنه غيرُ مَن كان إلى ما قبل لحظات متكبراً مغروراً.

– لن أخالفك إن كانت هذه رغبتك يا بديل الشمس، – قال قبلان – جري مرتاحاً، واستغرب في سرّه المفاجأة: "هذا الرجل ليس سلطاناً قاسياً فحسبُ، بل يعرف المزاح. ولا يخفي شهواته، وإن كنت لا أدري كيف سيتصرف معي لاحقاً..."

– ما الأمر يا خان؛ ألأول مرة تزور المكان الذي سأصحبك إليه؟

– لا، لا... بل لأني أخجل من ثقتك بي.

وغيرهم تجاهلوا طلباته. وباختصار كانت القبرتاي زمن هجوم قبلان – جري في وضع صعب. ولم تعد تركيا وخانية القرم تتهيبان القبرتاي كما في الماضي. وكان موضوع الحديث بين السلطان أحمد الثالث وخان القرم قبلان هو سرعة الانتصار على القبرتاي ومساعدة كارل الثاني عشر الذي يحارب روسيا. المؤلف.

– أهذا هو مقصدك؟! – ضحك السلطان، وأنهى سؤاله بمزحة: – ألا يجب أن يستريح الثوران المقيدان إلى النير ساعة ما؟!

– صحيح أيها السلطان، صحيح. ولكن إذا قارنت نفسي بك فسيتخذني من يعرف هذا مني مهزأة... عفواً، نسيت...– أسرع قبلان – جري إلى جيب فرائه وأخرج الخاتم المرصَّع بالألماس والياقوت: – هذا الخاتم والقرطان هدية من زوجة الخان إلى زوجة السلطان.

– أبلغ السيدة التي تذكرتْنا احترامنا لها وإعزازها. ولكن المرأة الشركسية المدللة التي أُرسلت إليها الهدية تتلقى مثلها كل يوم، ولذا فلنتفق على ألا تراها، وليبق هذا سراً بيننا.– ليس بعيداً أن تجد حيث نذهب من تستحقها. – وضحك.

لم يدع مساء النهار الشتائي القصير السلطان والخان ينتظرانه طويلاً: ما إن بدأ الظلام يهبط وأوائل النجوم تبزغ حتى توجها إلى جناح الحريم المواجه للمسجد دون الخروج من القصر الكبير.

الجناح المؤلف من عدة غرف منفصلة يرين عليه صمت مخيف. والقاعة الكبيرة المكسوة أرضها وجدرانها بالسجاجيد المزخرفة تتلامع جدرانها بماء الذهب والفضة. والموسيقيون متجمعون مواجه مائدة السلطان العامرة بالحلويات والفواكه. وساحة الرقص الفسيحة تحفّ بها ستائر ملونة، ويشرف عليها السقف المضفور من زينات متنوعة. ووراء كل جدار صندوق ملابس زاهٍ بالألوان. والقاعة ملأى بالأزهار لم تختف في الشتاء. ووراء كل باب أحد الخصيان. وكبيرهم الكهل يقف قريباً من مائدة السلطان.

ما إن ظهر السلطان أحمد سلطان الترك وقبلان – جري خان القرم حتى عزفت الموسيقى. وغنى المغنون ترحيباً بهما. ولما جلسا تحول الغناء إلى ألحان تذيب القلب وتهيج الدم.

قال السلطان أحمد للخادم وراءه بعد أن جلس الزائران يحتسيان الشراب على حذر:

– الآن صُبّ لنا من الباخسمه الشركسية التي شرّفَنا بها ضيفُنا. – وفي الحال همس للخان على يساره كأنه يخبره سراً ما: _ الشراكسة يناصبوننا العداء إلا

أننا نحن نحب مشروبهم الباخسمه كما نحب بناتهم. ارفع كأسك يا خان، ثقْ بأن الله سيغفر لنا. ونحن سنكفّر عن ذنبنا عبر أحد الكفار كما يقول صديقنا كارل حاكم السويد. — قال السلطان الذي ثمِل قليلاً عبر الحديث، ونظر في وجه الخان.– صديقي كارل احتل غْرودْنا، ويستعد لاحتلال مينسك. وبعدها إلى موسكو عاصمة الكفار التي أحرقتموها يوماً. الحقّ هل ترى لأول مرة هذه المرأة السمراء التي تسمّرت عليها عيناك؟ ليس هذا مهماً، الآن سنرفع كأس انتصارك القادم في القبرتاي رغم الكفار، ورغم القبرتاي أنصاف المسلمين. ولن ننسى القوزاقي مازيب الذي تحالف معنا، فلنرفع كأسه. ثم غيّر السلطان موضوعه فجأة: – من أي شيء يصنع الشراكسة هذه الباخسمه العجيبة؟ ليس في إستانبول أحد يرشدني إلى صناعته. وحين أسأل السلطانة ابنة الشراكسة تقول لي كي لا تدَعني أشرب منها: على صانع الباخسمه أن يمتلك يدين شركسيتين. وبعد لحظات تراجع السلطان عن كلامه: – أقول هذا على سبيل المزاح. ولكن أليس في تركيا الواسعة، ومعها القرم، من يستطيع صناعة هذا الشراب؟!

سأل قبلان – جري نفسه يغلبه التوجس، ولا تُسرّ عيناه بالراقصة الألبانية أمامه: "هل يُعقَّل أن يسكر هذا الرجل على جلالته من كأسين أو ثلاث؟.. أيتظاهر بالسُّكر ليختبر صحوي ويدفعني إلى الثرثرة؟ يمتدح الشراب الشركسي ويهجوه، حتى زوجته الشركسية لا تسلم من لسانه! لا يدعني أستمتع بالنساء الجميلات اللواتي جاء بي إليهنّ. وكيف يكون لك سرٌّ مع من نتأملهن، ومن تعطف علينا، ومن تديم النظر إلينا؟.."

– أراك يا خان تشرد رغم بهجة مسائنا. لم تُجبني على سؤالي.

– لأن هذه الفتاة ذات القوام الجميل سحرتني يا بديل الشمس. — قال قبلان — جري وما في قلبه غير ما على لسانه، فاتهم نفسه. — لم أنس سؤالك وإن لم أُجب عليه. سأبدأ جوابي يا موفد الله بما كان يقوله المرحوم سليم —جري والدي من أن علينا الاستجابة لبعض طلبات النساء. وأختتم بقوله:لا يجوز طلبُ رأي النساء في شأن شهوة الرجل.

– إن كان الخان سليم جري يقول هذا فسنسايره ونرفع هذه الكأس من أجلهن ومن أجل نسائنا في البيوت. ولكن تظهر من بين النساء اللواتي يرقصن أمامنا من يصلحن أن يكن زوجات سلاطين وخانات... ماذا قلت لي عن أصل الباخسمه؟

– عند الشراكسة، بالإضافة إلى الباخسمه المصنوعة من الدُّخن والذرة الصفراء، شراب من العسل تتراقص منه سيقان الرجال.

– لا حاجة بنا إلى شراب تصطك منه سيقاننا!..– حسم باختصار ما سمعه، ثم أتبعه بنبرة لطيفة: – انظر إلى الفتاة الشركسية التي أخبرتك عنها... ها هي المرأة التي ستهديها ألماسك وياقوتك حين تبقيان وحدكما بعد الرقص. إن أعجبتك فسأتخلى لك عنها تصطحبها إلى القرم.

– حرام ألا تعجبك مع كل هذا الجمال.من أغريتني بها أمرٌ لي. ولكن هذا سيكون يا بديل الشمس متى رجعت من القبرتاي إن شاء الله.

– هناك أساليب كثيرة للعودة من القبرتاي... ولكن ما لا أعرفه يا خان هو كيفية خروجك من عند المرأة الشركسية التي ستدخل إليها... لا تتهاون، إنها تنتظرك. ونحن سنتسلى إلى وقتها.

حين خرج الخان من غرفة الحب التي أُرسل إليها ولم تمض ساعة محمرَّ الجسد، قال السلطان دون اكتراث بما يرى وهو يمسح فمه:

– أنجزت بسرعة!

– ماذا تقول لمن لا تعرف لغتها؟ يصعب الجلوس إليها.

– حقاً، لا تزال تجهل التركية. ولكن هل للجنس لغة أيها الخان؟

– لا يا بديل الشمس، كما أنه لا لغة للألماس والياقوت.

– فهمت، جواب ممتاز. والآن أجبني بصدق على سؤالي الصريح: بلغني أن بعض المرزات يعارضون اقتحامك أرض الشراكسة بالجيش؛ هل هذا صحيح؟

– وخانية القرم من الأمور التي يمتحننا فيها الله في دنيانا العاجلة. بين المرزات الذين سألت عنهم أمثال هؤلاء. إن حاولتُ الاستجابة لكل طلبات هؤلاء فقدتُ السيطرة على البلاد.

– وهذا تفكير رجلِ دولة، – قال السلطان أحمد. وأسرّ لنفسه: "يمكنك الوثوق به!"

الفصل الخامس

اليوم بالقياس إلى اليوم المكفهرّ الذي جرى فيه مؤتمر أمراء القبرتاي القصير يوم صاف، فلا غيمة في السماء، ولا نسمة هواء، بل تشرق شمس ناعمة على مضيق باخسان. وتُسمع أصوات الصبيان والصبايا الذين يلعبون في مضاحي الشمس غير قريبة ولا بعيدة. وبعض الديكة تصيح وقد التبس عليها الوقت بين الصباح والظهيرة. وينضم إليها نباح بعض الكلاب، ونعيق بعض الغربان على الأشجار.

مهما جاء إلى الشراكسة من رحّالة من أصقاع الأرض، فلمسوا إنسانيتهم، وذاقوا من طعامهم، وعرفوا علاقات كبارهم بصغارهم، ورجالهم بنسائهم، وعرفوا حسن استقبالهم لضيوفهم، ورأوا قمم جبالهم الثلجية، ومراعيهم، وغاباتهم المتنوعة الألوان، وحقول حبوبهم، ومكارمهم الأخرى، فجمعتَ مدائحهم فيهم، وأطلعت الأقوام الأخرى عليها...كان ما جمعته مثالاً مفيداً. ولكنهم ما يزالون إلى الآن يدفعون ثمن ما كتموه خجلاً عن ضيوفهم، من تنافسهم المخفي عنهم، وصراعاتهم، والدسائس بينهم.

توقف حتخشقوه كرغوقه الذي كان يفكر في هذه الأمور كلها وهو يتنزه على ضفة النهر، والتفت إلى الحارسَين اللذين كانا يتبعانه ببضع خطوات:

– يا من بارك الله في نسليكما؛ ألا توحيان لي بطرف فكرة ما!

أجاب الحارس قرج كمن كان ينتظر هذا الكلام:

– لو لم نكن في هذا العالم المضطرب لسرّنا هذا أيها الأمير الوالي.

مازحه الأمير مسروراً بما سمع:

– أي عالم قبيح تتكلم عليه غير منتبه إلى نهارنا الجميل؟

وقال مرتاحاً لما يرى في هذه اللحظة:

– ها هو صاحبنا جباغ العظيم آتٍ. أمسِكوا بزمام حصانه تكريماً له ليترجل.

هيا تفضل يا أخي الصغير الغالي، كنتَ في بالي اللحظة.
– حياك الله. — ابتهل من أجلك أن تكون إمرتك — ولايتك التي شرّفك بها قومنا الذين يستحقون كل خير كحال نهارنا الجميل. وأنت خطرتَ على بالي مشتاقاً إليك فلم أُطق البقاء في البيت، فتوجهت إليك يا كبيرنا الخيِّر.
– فهمت يا جباغ، فهمت سبب ضيقك بالمنزل... — قال كرغوقه، وأبلغ حارسيه: – إن كنتُ مَن تحرسونه فأنا أسمح لكما بالعودة إلى دار الإمارة.
ابتعد الحارسان المعفيان من الحراسة محتجَّين، وقال سَبَانْج لقرج حين وصلا إلى شجرة الصفصاف التي تمد أغصانها على سطح الماء:
– أتوقع أن يطلب منا الأمير التوقف. نحن نقوم بما علينا.
– تعال، الأمير ينظر إلينا.
– لينظر كما يشاء! إن حدث له شيء فنحن الملومون.
غضب الأمير مما لاحظ على حارسيه فغمغم كاظماً غيظه:
– انظر يا جباغ إليهما، لم يتقبلا ما قلت لهما. — يا للأديغة! كلهم من أمراء ونبلاء وفلاحين وحرس متشابهون. كلهم يتشبهون بأوشحه مافه!
– التشبُّه بالحَسن حسنٌ يا زعيم الخير، ولكن الادعاء الأجوف سيئ.
فرح كرغوقه للقول السديد الذي سمعه:
– ما أعمق ما أصبت كبد الحقيقة!
– لست القائل، بل من تركوا لنا لغة الأديغة وتقاليدهم.
– لا أظن أن في العالم قوماً بلا فضائل. — قال كرغوقه كمن يخاطب نفسه، وأنهى ممتعضاً: – ولكن يبدو لي أحياناً أننا نحن الأديغة مختلفون عنهم. ولماذا الابتعاد في المثال: انظر كيف يتصرف معنا، نحن أهل باخسان، شعبُ جلاخستانيه! — ثم أنهى مع شبه ابتسامة: – لا أعرف إذا كنت سمعت ما قاله لي الحارس الثرثار سبانج قبل أيام،وإن كان هذا لا يليق بي بصفتي أميراً: "من

حسن حظنا، نحن القبرتاي الكبرى، أن عندنا القبرتاي الصغرى"[1].

– والقبرتاي الصغرى "جلخستانيه" يقولون لنا: "خير لك أن تكون عاقلاً صغيراً من أن تكون كبيراً أهبل".

– عجباً، إلى هذا الحد! — تجمد حتخشقوه مما سمع. ثم ضحك من أعماق قلبه.

دفع تضاحُك الرجلين الحارسَ قرج إلى القول:

– لم أسمع في الأيام الأخيرة أميرنا يضحك على هذا النحو.

– وأنا لا أتذكر أني رأيت على وجهه أثراً للضحك.– غمغم سبانج الضخم بقامته المنتصبة، – كفى، تظل أنت تنكش أمراً ما. خير لك أن تقلّد هذين الرجلين الكبير والصغير في سلوكهما الأديغي من أن تعلّق عيوبك بغيرك.

– وماذا أستفيد منهما إن قلدتهما؟ شد قرج حصان جباغ رسن الحصان الذي بيده شدة عنيفة دون ذنب. كلاهما يلبس زياً أديغياً متناسقاً. وكلاهما يتقلد خنجراً فضياً، ويرتدي قبعة من جلد الغنم. إذا كانا يفضلاننا بهذه الملابس فسأشير لك إلى ما يميزهما: أحدهما يشبهك في أنه أكبر عمراً وصغير الجسم، والآخر مثلي ضخم.

– ما أغرب ما يجري على لسانك أيها المجنون المسكين! — قال أشمز سبانج دون ضغينة، وفصّل له: – الأكبر في محله المعهود، والأصغر يراعي صِغره. وها هما لم يتناسيا هذا حين جلسا على الأرومة العتيقة، في حين أنك تقف أمامي معتداً بضخامة جسدك وإن كنت أصغر مني سناً.

– أنت على خطأ يا كبير بشهادة هذه الشمس. لا يجوز أن يقال هذا عمّن يكلفونه بالإمساك بزمام الحصان.

– لا تُسمع الحاج الأفندي قسي شهادة الشمس لك! يقول إنها والأرض من خلق الله التي تأتمر بأمره. لن يقبل منك. الآن تعادلنا: كلانا غير مؤمن.

---

[1] يقسم نهر تيريك أرض القبرتاي إلى قبرتاي الكبرى إلى الغرب، والصغرى إلى الشرق، بينهما بعض الاختلافات اللغوية البسيطة. المترجم.

– كنا تعادلنا، مع أننا من عمر واحد لو لم أكن أنا الحارس الأقدم.
_ أتود أن تقول: لو لم نكن كلانا من عامة الشعب؟
– إن كنت فهمت علي فماذا كان يريد من قال: "إن كنتُ أميراً وكنتَ أميراً فعلى من كنا نتأمر؟"
– وهل تسأل عن هذا! ألسنا من يسوس حمير الأمراء؟ أليسوا الفلاحين، عامةَ الشعب؟ كأنك تلعب معي لعبة الأحاجي يا قرج! إن لم يسمعك أحد كان من حظك... أُسكتْ، واسأل أذن الحصان الذي بيدك.– مازحه سبانج، وعرّض به: – ولكن لا أعرف ماذا سيحلّ بك متى وصل خان القرم الذي يهددنا!
– أهنتني مرة أخرى! — انتفض جسد قرج الضخم لِما سمع، وردّ على سبانج الذي سخر منه كاظماً غيظه: ولكني لن أدعك تراني أتقبل الإهانة!
– ماذا تفعل يا عديم الإيمان: كيف تركب حصان الأمير؟ – نهر سبانج صاحبه قرج الغاضب حين رآه يضع مشط قدمه في الركاب.
– كيف أدعه إذن يستمع إلى جنونك؟ سأفعل به ما يليق بحصان الأمير.
– ألا ترى ما يفعل هذا! لم يقبل كرغوقه ما يرى، ونادى حارسه كأنه يعنّفه: ألستَ من أخاطبه يا سبانج؟ تعال!
أعاد سبانج الزمام إلى قرج، ووقف أمام الأمير ببضع خطوات:
– أسمعك أيها الأمير الوالي.
– اسمعْ من يقول لك الحقيقة. من حظي وحظك أن الحارس قرج لم يوقِعنا في الخطأ في شأن حصان ضيفنا جباغ. لا ترتكب مثل هذا العيب بعد الآن!
– سامِحني يا أميرنا المنير. — اتهم سبانج نفسه وبرّأها: – لم أشأ أن أجعل من يراني أمسك بزمام حصان الكبير جباغ يتساءل عما جرى لصاحبه.
– قد يكون في كلامك شيء من الصحة ولكنه ليس عذراً. ولكن إن كان هذا رأيك، وكنت تشفق على الحصان بحثنا لك عن مخرج. أعطِ الحصان إلى أحد صبياننا النشطاء ودعْه يقوده إلى دارنا — ولما انصرف الحارس قال الأمير الوالي كأنه لا يعتب على أحد: – ما العمل؟ هذه حالُنا نحن الأديغة... ما رأيك أنت يا جباغ؟

– ربما يخيل إليك أن ما شهدناه ليس فيه ما يُعاب ولكن فيه عبرة تدعوك إلى التفكُّر: ربما قيل: "لا تجلس إلى الموقد في مكان لا يليق بك" في مثل هذا الموقف.

– ما هذا العجيب يا جباغ؟.. — سأل كُرغوقه وهو يكاد يرفع رأسه، وغمغم ناسباً ما سمعه إلى نفسه: – ربما كان مَن وراء هذا القول واحداً مثلي...– ولكنه اختتم بسرعة: – لم تُخطئ في ما قلتَ يا جباغ، كنت أفكر قبل أن نلتقي في تغيير مدة ولاية الأمير الوالي.

– ألأنّ مهلة السنة قليلة؟ " هناك من يقول: "ليتني كنت سلطاناً مدة ارتدائي قبعتي، والحطب يستريح ريثما ترتفع الفأس عنه".

– أقوالك سديدة. ولكنك اقتربت مما في ذهني بعبارة "مهلة سنة" فلْأُصارحْك به: مهلة السنة في تبديل الأمير الوالي تضرّنا. — وأكمل بعد انقطاع قصير: – لا تظنني أتطلع جهة تركيا، أو جهة القرم؛ بل حتى جهة روسيا التي تزوج قيصرها من ابنة آل إيدار. ولكني أفضل نظام دولتهم على ما عندنا. نحن القبرتاي كأننا نلعب لعبة الغميضة. نحن في مشكلة تبديل الأمير الوالي كل عام.

نظر قزنقوه جباغ إلى حتخشقوه نظرة تعبر عن رضاه عما سمع، فقال في نفسه "وأظن أن الضيق ولد فأنجب الانفجار" ولكنه لطّف من تعبيره فقال للأمير موارِباً:

– لا أظن أن هناك دولة بلا حاكم محدد.

– بلى يا جباغ، بلى!– أسرع حتخشقوه الذي غرق في الهم بعد مؤتمر أمراء القبرتاي، – بلى، لو لم يكن إلا القبرتاي.

– وهل القبرتاي دولة؟ – سأل جباغ كأنه يحدّث نفسه.

– القبرتاي دولة، ولكن فيها غرور الأمراء. — قال حتخشقوه ملوَّعاً، ثم حسم الموضوع: – والأديغة الدنيا التي أتت منها أسرة النبيل قزنقوه ليست أفضل منا.

— ثم دان نفسه بعد قليل: – سامحني يا جباغ إن كنت سخرتُ من أسرتكم النبيلة، أراك لا تقول شيئاً يا قزنقوه!

ابتسم جباغ وإن تأثر بتلميحات الأمير إلى أسرته المنتمية إلى طبقة النبلاء، وأجاب الأميرَ بالمزاح:

– ماذا أقول لك؟ أنا مسرور لأنك لم تقل لي إنك من البجدوغ الغرباء. ولكن الحق أننا نتعايش في هذه "الدنيا العارية" كما يقول الحاج الأفندي قسَي. ولسنا وحدنا، بل كل أمة الله المسلمين كذلك، سواء كانوا عرباً أم تركاً أم تتراً أم غيرهم. نحن نسمي أنفسنا قبرتاي، شابسغ، بجدوغ، أبزاخ... يجمعنا، برضانا أم بغيره، الإسلامُ. أما من هو في ورطة فهو الأمير بَرَقوه الذي سمح للملكِ المسيحي فاختانغ كارتلي السادس زوجِ ابنة آل جلخستانيه بأن يُغويه فيعتنق المسيحية، فبنى كنيسة في قريته: يسخرون من أهل قريته سائلين إياهم: "أأنت بژقُوي أم مسلم؟"

– لا تُسمِع هذا الكلام للحاج قسي! – أجاب الأمير حَتَخُشقوه متصنعاً الضحك وإن لم يكن يسمع الموضوع لأول مرة؛ سيظل يعيّرنا فلا نعرف أين نتجه. – تنهد الأمير الوالي وأكمل: – بديهي أن هذا ما سيحدث لك إن زوّجت بناتك للملوك الأغراب. لا تتعجب يا جباغ، لا أنفي أن ابنة آل حتخشقوه كانت زوجة خان القرم، وأنها لما جاءت إلى مأتم عمها أرفقوا بها عشرين ألف مقاتل تتري، وأنهم نكبونا بالإتاوة.ولا أنفي أيضاً أن آل إيدارقوه طلبوا من صهرهم القيصر إيفان جيشاً فحاربوا بهم القبرتاي الكبرى. ولا أدعي أن السلطان أحمد المتزوج منا لا يحرض خان القرم علينا... دوّخنا رؤوسنا بأنفسنا في دنيا الأديغة طامعين في الإمرة، ناكبين بها أنفسنا؛ قل لي الآن ما العمل وما المخرج؟

– المخرج أمامنا واحد فحسبُ.

– وما هو؟ أسمعك.

– سأخبرك ولكني لا أظنه سيعجبك.

– نرى في العالم كثيراً مما لا يعجبنا. إن كان خيراً استفدنا منه، وإلا تحمّلناه.

– إذا كان الفُرس من الشرق بصحبة أمير الداغستان قد كشف ضعفنا فغزانا، فما يحدثني به ظني في الوقت الثقيل الذي يهددنا فيه التتر من الغرب مع تركيا

هو أن روسيا هي من تكون سنداً لنا.
– أهذا أنت يا قزنقوه من يقول هذا؟ أخلعتَ عن رأسك قبعة الأديغة؟
– لا تدعني أرى نفسي في زي غريب تنكرني فيه! سألتني أيها الأمير الوالي فأجبتك بما يحدثني به قلبي الأديغي.
قال الأمير في نفسه: "لا شك أني أهنت قزنقوه. ما هذا الذي يريدني أن أفعله؟! هل يذكّرني بما فعل الجلخستانيه آل إيدار حين غزَونا بجيش من الروس بفضل صهرهم القيصر، فشقوا صفوفنا؟".
قال حتخشقوه كرغوقه مماطلاً في الكلام، وعدم رضاه بادٍ من تعابير وجهه القلق:
– تريدني على ما تقول يا جباغ أن أرقص على إيقاع شبابة آل إيدار الروسية، وأغيّر اسم الأسرة، وأتسمى بإيفان!
– ما تسميه بالشبابة الروسية يمكنك أن تعزف فيها لحناً شركسياً ترقص معه إن أردت أيها الأمير. ولا أظن تغيير اسم الأسرة أو اسم الشخص إجبارياً على ما أسمع. كما تريد، ابن أسرتكم حتخشقوه قرم – جري الذي كان حليف القيصر بطرس الأول يحمل الآن في روسيا اسم ألكسندر بيكوف – شركس.
– وما لغة ابن أسرتنا الذي غير اسمه؟
– تعلَّمَ لغة من خالطهم. ولم ينس لغته الشركسية. ولا أظن لغة القرم التي رُبّي فيها تثقل عليه.
– ودينه؟
– وماذا سيكون دينه؟! – ضحك قزنقوه في سره من السؤال، وأجاب: تغيير دينه مثل تغيير ديننا نحن: بدلاً من آلهتنا الكثيرين صار عندنا إله واحد عنده أنبياء كثيرون، على حد تعبير الحاج قسي. وأنزل علينا قرآنه. ونبقى شراكسة مع أن أدعيتنا بالعربية. ولكن أفندينا يقرأ القرآن بالعربية التي تعلمها قبل أن يحج ولكن لا يعرف ما فيه. والعيب نفسه في رجال الدين لدى جيراننا البالقر. وإلى الآن لم ينقطع تعلق الجبليين منهم بآلهتهم المتعددين.
– نعم، نعم، – قال حتخشقوه الذي كان يسمع ولا يسمع ما يُحكى له، –

وما العمل بأفراد التاولو الجبليين الذين تأتي على ذكرهم وهم بين أن يريدونا ولا يريدونا. ألست أيها النبيل من يقول: "الجار كالبنطال لا يجوز إهماله"؟ نحن والجيران سنتفاهم بطريقة ما، ولكن المشكلة ما تسميه "المخرج الوحيد"... أتظن أن أمورنا ستسير الآن كما كانت في زمن ما؟ لا أعرف بِمَ أعلّق على هذا؛ لستُ مستعداً للإجابة.

– ما أتكلم عليه أيها الأمير الوالي هو الاتفاق الذي بيننا وبين روسيا.

– ومن يتذكر الآن اتفاقاً مضى عليه قرن ونصف، وأعقبه كثير من القياصرة؟

– العادة أن تبقى الاتفاقيات المكتوبة بين الدول والأعراق فعّالة، لا تلغي نفسها بنفسها.

– حسنٌ إن كان هذا رأيك يا جباغ اللَّسِن! ولكني لا أصدِّق هذا... — صاح حتخشقوه إلى حراسه غاضباً وقد سمع الصبيان يهتفون وراء الفرسان القادمين من الشارع: "ملقار — بلقار![1]" أيّ ضجيج في القرية؟

انعطف فرسان البالقر الثلاثة بلا مبالاة نحو ضفة النهر الذي يجلس فيها حتخشقوه، وهم يعدون عدْواً خفيفاً، فاختفى الصبيان.

قال أكبر الفرسان الثلاثة الذين استقبلهم الحراس بخليط من لغة الأديغة والبالقر:

– سلام عليكم وبركات يا أمراء القبرتاي! — وبعد عبارات الترحيب أطلعهما على رسالته: – "أرسلنا إليكم كبيرنا يدعوكم زعيمُنا ورسبي أزرت إلى عرس حفيده في الجمعة بعد القادمة بعد جمعتنا هذه" عِمْتم خيراً يا زعماء الخير.–

ركب الفرسان البالقر الثلاثة وسلكوا طريقهم بين الجبال.

– جيراننا "التاولو" أناس عجيبون. — ابتسم حتخشقوه وهو يتابع بنظراته الفرسان الثلاثة المنصرفين. — كيف تفهم الجمعة التي هي موعد عرس أسرة ورسبي؟

– جيراننا التاولو ورسبي يماطلون في عرسهم. — ابتسم قزنقوه أيضاً. — إن لم

[1] يعني مل قار: الخروف الأسود. وواضحٌ ما في العبارة من سخرية. المترجم.

أخطئ فسيكون في الجمعة التي تلي الجمعة التي...
– سنزورهم وإن ماطلوا في عرسهم لأنهم ربائبنا.– كثيراً ما ذهبنا إلى الصيد في الجبل أنا وورسبي الذي يدعونا. وكريم والده العجوز حافَظَ على صداقته مع والدنا. وأحياناً يتقاسمان المراعي. وأتذكر أنه أقطعه مرعى قائلاً: الجار محطّ الأمل عند الحاجة.
"قال قزنقوه جباغ في سرّه: "لا تعطهم مرة أخرى بحجة أنه عرس ربائبنا".
وفي الحال ران على القرية أذان الأفندي الحاج قسي.

الفصل السادس

المضافة الشركسية تقوم عادة على مسافة أقرب إلى الباب الفاصل بين غرفة المعيشة وفِناء المواشي. وأمامها مسطبة ضيقة مسقوفة بالقش أو القصب ترتفع على ثلاثة أعمدة. وعلى يمين بابها أو يساره نافذة. والنافذتان في الجدار الرابع تنيران الغرفة. وفي الزاوية موقد للشتاء حوله مقعدان خشبيان واطئان. وعلى رف الوجاق سلة صغيرة فيها نشارة خشب لإشعال النار. وفي الزاوية ملقط حديدي. وفي أحد الجدارين الخاليين من النوافذ بساط مزخرف عليه سيف وخنجر ومسدس تبعاً للحالة المادية للأسرة. والصوفا الخشبية المفروشة بوسادتين كبيرتين أمامها بساط صغير ترتاح عليه أقدام الجالسين. وإلى الجدران تستند أرائك خشبية لمن يزورون الضيف أو الضيوف. وفي وسط أرض الغرفة مائدة بثلاث قوائم. وفي الزاوية المخصصة للكبير مقعد خشبي مفروش بمخدة ناعمة.

كانت المضافات القديمة، بغضِّ النظر عن مساحاتها، متفاوتة الشكل والفرش والتجهيز والزينة، وما يجلب إليها من ألوان الطعام، ومن يتعاقبون عليها من ضيوف، تشهد على تفاوت الأديغة بين أمراء ونبلاء وفلاحين. ولم يكن يحق للعامة السهر في مضافات الأمراء والنبلاء، في حين كانت أبواب مضافات العامة مفتوحة للأمراء. بعد الظهر، عاد سليل الأسرة المتنفذة شردم جانخت من المرعى، وانتهى من ترتيبات استراحة حصانه فألقى نظرة على المضافة قبل

أن يدخل إلى البيت: كانت نظيفة تماماً كالعادة. وتفوح رائحة حرارة خفيفة تنبئك أن ناراً أوقدت فيها. وأشعة شمس الربيع اللطيفة التي تكاد تغرب تعبر النوافذ.

دفعت أصوات الأقدام المنتظرة القادمة من المسطبة جانخت إلى النداء:

– هذا أنت يا ولد؟

– ليس ولداً، أنا هي — قالت الزوجة، واختتمت بصوت قلق: – يا حسرتي لا يزال غائباً في جلخستان، بالي مشغول عليه.

– وهل عاد رفاقه وبقي هو وحده؟

– لا، لا، وكيف يبقى وحده؟!

– ماذا إذن؟

– وكيف لي أن أعرف، الوضع مضطرب.

– يا عجوز آل شردم لا تسمحي للأفكار المزعجة أن تغزو رأسك. مصيره مصير رفاقه. هيا هاتي لي شيئاً نأكله إن كنت حضرت شيئاً. لم نذق شيئاً طوال النهار.

– وكيف لا يكون حاضراً؟! مائدتك تنتظرك، وصلاة العصر تقترب. انظر إلى حالنا يا إلهي، اشملنا بعطفك، وأعِد إلينا ولدنا الوحيد سليماً معافى. وأرِح كنّتنا الحامل من حملها بخير. وها هو قسي أفندي يؤذن للصلاة.

صحيح أن جانخت الذي يُصب الماء على يديه ليغسل وجهه ويديه كان مسروراً مما قيل عن ابنه وكنّته، ولكنه لم يستطع إلا أن يستاء من اسم الأفندي الذي يسمعه من المرأة:

– ما أجمل ما تنطقين اسم من لم يصبح بعدُ مولى[1] ويتنقل من مائدة إلى أخرى، بأجمل مما تنطقين اسمي. أظنكن، معشرَ النساء، مسحورات به.

– أرجو ألا يسمعك أحد تصف موفد الله بهذه الأوصاف يا والد الابن. سيطردك الكثيرون ممن آمنوا بالإسلام،ولو لم يبق إلا زوجة الأمير الوالي...

[1] من عنده بعض التعليم الديني القليل. المترجم.

– أنا من يقول، وأنت من يُقال لها. أنا لا أثق بمن تتكلمين عليهم... ألا يجوز أن أصلي في البيت لا في الجامع؟

– يجوز، ولكن أرى أن صلاتك في الجامع أفضل.

– لا تعلّميني يا بنت آل أفَشْآغ ما عليّ فعلُه. هيا جهزي لي ماء الوضوء، ومدّي سجادة الصلاة إلى القبلة!

– أمرك! – لبّت المرأة أوامر زوجها لأنها تعرف طبيعته. وقالت في سرها: "ولكن لو رآك أصحابك في الجامع لكان أفضل"

اجتمع عدد من رجال الحي مساءً بعدما انتهوا من خدمة المواشي في مضافة جانخت. وأمام الباب يقف عدد من الشباب لا يجلسون في حضرة المسنين. الفتيل الثخين القصير المشتعل في إناء خزفي ينير الغرفة فيرى الجالسون بعضهم بعضاً. ويضاف إلى نوره ضوءُ القمر من النوافذ.

امتلأت الغرفة بالدخان شيئاً فشيئاً فقال أحد الجالسين:

– دخان التبغ يحرمنا من رؤية أحدنا الآخر. ألا يمكن أن نتوقف قليلاً؟

– كنا فعلنا يا دَمْدي لولا لذة تبغك.

– لا لذة فيه البتة، بل أحرق منخاريّ – سأل قُنْدَت الأسمر ذو الوجه المشعر متظاهراً بالغمغمة: – دخانك الذي ننفس به عن ضيقِنا حامض يا دمدي؛ من أين جئت به؟ سنسعى للحصول عليه راكبين أو مشاة، بل على الحمير؛ لا تكتم عنّا!

– لا تدعنا نمشي على أرجلنا بهذه الحجة يا زعيم الخير، لا تركب حمير البلقار، واسأل جارك جانخت فقد يرشدك. وإن لم يبح لك فلا تُحرجه، أنا المسؤول.

– إن كتمنا ما ليس سراً يا دمدي لم يصبح سراً.– لم يدع جانخت الحضور ينتظرونه. – قندت أيضاً يعرف أين ينبت وإن تظاهر بالجهل. اسألوا عجوزنا، ابنة أفشآغ، تخبركم أنها تُنبِته في حقل الفلفل. ولكن إن أردتم معرفة مَنبت التبغ الذي في كيسي فلن أخفي عنكم: في مرعى أعلى جبل قنجال الفسيح، في موقع حَيْماش، حيث تنبعث رائحة كريهة، عدة مواقع ينبت فيها. في أحد هذه المواقع أستنبت هذا التبغ الحامض الذي لم تذوقوا مثله.

– هكذا إذن! – صرخ قاشْرِغ غيرُ المدجِّن، والذي لم يقل شيئاً إلى الآن. – علّمتموني التدخين من تبغ حيماش!

تضاحك الرجال المجتمعون والشباب الواقفون على الباب.

قال أكبرهم حاغور:

– هيا يا جماعة أسمعونا بعض الأخبار! الماهر في هذا هو أنت يا قاشرغ، لننصب سلماً في المضافة![1]

– سأفعل هذا إن شرّفتني بهذه الفضيلة يا كبيرنا الغالي. ولكني لن أصعد إلى السقف. ساهم قاشرغ في موجة الضحك التي أثارتها العبارة الأخيرة " لن أصعد إلى السقف":– أي موضوع تفضلون سماعه؟ ألا تخبرونني: سأُسمِعكم شيئاً مما جرى لخواجه، مما فعل بهم وردوا عليه. وإن وصل الخبر الذي سأرويه إلى الحاج قسي فلن يسكت عليّ، ليست المشكلة فيّ بل سيشملكم معي. ما العمل؟ لستُ من جرت معه الحادثة، ولا أنتم. بل خواجه والتلاميذ الجدد. في أحد الأيام فيما يسوق خواجه بقرته إلى الرعي على جانب الطريق، توقف عنده عدد من التلاميذ الفرسان. تعرفوا شخص خواجه فحيَّوه:

– سلام يا خواجه!

– حياكم الله، تفضلوا!

كان بين التلاميذ شخص خبيث خطر له أن يعابث خواجه. فغمز رفاقه وقال لهم:

– سنتفضل ولكننا سنخبرك بخبر مزعج.

– في العالم كثير من الأمور المزعجة؛ هيا أسمعك!

– سمعنا أن الساعة ستقوم غداً فانطلقنا لنودع أصدقاءنا.

– والله هذا خبر سيئ... ما العمل إذن؟

– لو أطعمتَنا بقرتك العاقر لاكتسبت أنت ثواباً، وقابلْنا نحن ربنا ممتلئي

---

[1] تعبير يُقصد به حكاية قصص أو ألغاز لتزجية الوقت، وبخاصة في الأسفار الطويلة. المترجم.

البطون.
– إن كان الأمر هكذا فماذا سأفعل ببقرتي بعد الآن. سأطعمكم.
جاء خواجه بالبقرة فخلع التلاميذ ملابسهم، وكوموها مع أسلحتهم. وجردوا خيولهم من السروج ولجموها. ثم ذبحوا البقرة وملؤوا القدر باللحم، وعلقوا بعضها بالعصي لشيِّها.
قال خواجه للتلاميذ:
– والآن اذهبوا يا شباب إلى الغابة وهاتوا من الحطب!
أسرع التلاميذ إلى الغابة مسرورين يقولون في أنفسهم: "خدعنا خواجه ولن يأكل غيرُنا من بقرته." وفيما هم يجمعون الحطب بادر خواجه فجمع كل متاعهم من ملابس وسروج وخناجر وساعات فضية وأخفاها في الوهدة القريبة. وجمع ما كسروه من سياط ودعامات سروج خشبية، وأشعل فيها النار، قائلاً: "أنا خسرتُ بقرتي ولكني ربحت أكثر من ثمنها" وبدأ يحرقها.
عاد التلاميذ حاملين أحمالاً ثقيلة من الحطب فرأوا ناراً هائلة تحت القدر، فسألوا صاحب البقرة مستغربين:
– نراك يا خواجه تسلق اللحم على نار هائلة؛ من أين جئت بالحطب؟
– قلت لنفسي: إذا كانت نهايةُ العالم غداً، وكنا سنقضي آخر يوم هنا فماذا سيفعلون بأشيائهم هذه،، فجمعت ما وجدت من سروج وملابس وأشعلت فيها النار. وسرعان ما سينضج اللحم. ما يمضي كثيره فقليله سيمضي، أظنكم جعتم جداً أيها التلاميذ.
– نكبتنا يا خواجه؛ ما أغرب ما فعلت بنا!
قال لهم خواجه:
– لا تقلقوا، لن تحتاجوا شيئاً منها مادامت نهاية العالم غداً.
وصرفهم على خيول عارية...
عندما انتهى قاشرغ من حكاية خواجه والتلاميذ، اختتم مبدياً إبهامه للجمهور الذي كاد ضحكُه يثقب السقف:
– حقاً؛ ألم يفعل خواجه بالتلاميذ ما يستحقون؟

واختتم دمدي الحديث بخاتمة صغيرة:

– لا شك أنه فعل بهم ما يستحقون. ولكن لن أستطيع أن أقول لكم ما كنت سأفعله بهم لو كنت مكانه.

– من حظنا أنك لست خواجه. ماذا كنت ستفعل بهم؟ – ابتسم قُندت، هات إن لم يكن سراً جداً.

– أخمّن ما لم يصارحكم به صديقي. — تظاهر قاشرغ بالخروج عن الموضوع ،وسأل: – أيكون سرُّك كذلك المتعلق ببطانة سرج الحصان؟ مهما توسلتم إلى صديقي فلن يبوح لكم بسره، ولذا سأُسمِعكم حكاية بطانة السرج. أتى فارس من الجمكوي إلى بلاد القبرتاي فسرقوا بطانة سرجه. فصار يردد: "سرقوا بطانة سرج حصاني ولكني أعرف بِم أردّ عليهم" فداخل الخوف قلوب المسنين وطلبوا أن يعيد الشباب العابثون القطعة المسروقة خوفاً من أن ينفذ بهم تهديده. سرعان ما وجدوا البطانة، وسألوا الفارس الجمكوي: – يا ضيفنا، جرى ما جرى وانتهى الأمر؛ ماذا كنت تنوي بحقنا لو لم نُعِد القطعة إليك؟ قال لهم "سأخبركم بكل سرور: كنت أنوي أن أتخذ من كسائي القصير بطانة للسرج وأعود إلى بلادي"؛ أيكون ما كنت تنوي أن تفعله بالتلاميذ مثل ما كان ينوي فارس الجمكوي يا صديقي؟

– أصبت الحقيقة! — ضحك دمدي من أعماقه. صدّقت ندائي إليك بالـ "مغرفة[1]" دون أن أخبرك يا قاشرغ. أيها البليد المسكين[2]. سأقول لك الآن ماذا كنت أفعل بهم لو كنت مكانك: كنتُ طلبت منهم أن يذبحوا خيلهم ويأكلوا من لحومها.

– وهل يأكل القبرتاي — الأديغة لحم الخيل؟ – سأل أحد الحاضرين.

– وهل التلاميذ أديغة؟ – مازحه شخص آخر.

– أظنهم يا حاغور قبرتاي لأنهم من جلخستانيه... كفاكم ضحكاً... لا

[1] لوجود جناس ناقص بين قاشرغ، والمغرفة. المترجم.

[2] بليد بالعربية. المترجم.

تشتهوا لحوم خيول نغوي القرم؛ لن يتقاسموها معكم. والآن سأبوح لكم بما يحزّ في نفسي إن كنتم توافقونني: لم نُعِد منغل — جري مهزوماً إلى القرم. كان علينا، في القبرتاي الكبرى، أن نفعل به ما فعلوه بأحد الثرثارين من أمثاله في الأديغة الدنيا. وسأروي لكم ما سمعت بأمانة عما فعلوا بالأمير البجدوغ جَجقوه.

قال المضيف جانخت:

– ربما تقصد الأمير ججقوه الذي كان يشكو من أن الضفادع تسلبه النوم بنقيقها فيطلب من رعيته إسكاتها.

– ربما هو يا جانخت، لا أعرف الحقيقة تماماً. ولكن سأروي لكم ما فعلوه بالأمير ججقوه: كان الأمير ججقوه يقيم في قرية تحمل اسمه. وكان واحداً من أمراء البجدوغ القساة، مما دفع الفلاحين العامة إلى القول: الأمير ججقوه يكلف رعيته أن يوردوا كلبه الماء. في أحد الأيام ركب الأمير وخرج معتداً جداً بخروجه وحده. وفي الطريق رأى فارساً قادماً باتجاهه. قال الفارس القادم في نفسه لما رأى غرور الأمير: لن أحيد عن الطريق، بل سأجبره على أن يدخل في العشب الكثيف على الجانب. فتجابه الفارسان.

– اِمشِ في دربك وأفسح لي الطريق! لا تُخطئ كائناً من كنت: هذا الطريق يكفينا كلينا فلا تدعْنا نتجابه!

– أُدخل أنت في الحشيش وأفسح لي، الطريق طريقي وحدي. عاند الأمير ججقوه بشماف الفارس الآخر.

تبين أن الفارس الذي عانده ججقوه بشماف هو نواشْخقوه أخمَت أحدُ الفلاحين الشجعان في الأبزاخ.

ترجّاه الأبزاخي:

– تابع على دربك ولا تدعنا نتشاجر!

– بل حِدْ أنت قبل أن أخرج عن طوري.– عنّف الأمير الفلاحَ الذي غضب مستاء من سلوك الفارس. وعرف من لباسه وسلوكه أنه أحد الأمراء. ولكنه لم يكن يعرف أسرته، فقال له دون أن يسأله عنها:

– إن لم يتسع لك الطريق والبرية فسأفعل بك ما تكره أيها الكلب البطران.
احتدّ الفارس الأبزاخي فكتّف الأمير ججقوه إلى سرج الحصان.
ضحك الأمير ججقوه:
– لن تستطيع أسري ولا بيعي ولا إعطائي لأحد.
– ولماذا لا أستطيع؟
– أنا أمير!
– لم أعرف، هذا أفضل. أبيعك بأغلى وأعرّفك قدرك.
حمل نواشخُقوه الأمير إلى الشاطئ، وأنزله مقيداً من السرج، وأجلسه على الأرض. ثم قال له:
– يا ججقوه لم أحملك إلى هنا طمعاً في ثمنك. ولكن لما كنت اشتريت كثيراً من العبيد من هنا مقابل قطعة قماش أردتُ أن تختبر بنفسك.
ترك الفارس الأبزاخي العنيف الأمير، وابتعد بضع خطوات. دنا من ججقوه رجل كان يساعد من يؤتى بهم مُكرَهين إلى الشاطئ فعرف الأمير:
– ما أعجب ما أرى! ماذا جرى لك يا ججقوه بشماف؟
– كنت أريد أن أعبر البحر وأستكشف ما وراءه...– بدأ ججقوه الحديث شامخ الجبين.
– كنت أتوقع أن يحدث لكم مثل هذا لأنكم يا آل ججقوه تجاوزتم الحدود. كائناً من كان الفاعل فقد أحسن الفعل، كان رجلاً، ففعل بك ما تستحق.
ولما التفت رأى الفلاح الأبزاخي وراءه فخاطبه: – يا نواشخقوه لا أسألك عن ذنب الأمير، فقد فعلت خيراً به، ولكن أطلق هذا اللئيم، ولن تحتاج إلى قطعة قماش تخيط منها بنطالاً.
– لم أحمله إلى هنا طمعاً في مال، كنت أنوي أن أعرّفه قيمته وأُطلِقه. ولكنه قال لي "لن تستطيع حملي ولا بيعي" فأردت أن يختبر نفسه بنفسه.
أعاد الفارس الأبزاخيُّ الأمير مقيداً إلى ظاهر قريته، وأطلقه وهو ما يزال مقيداً على الحصان.
– يا نواشخقوه كنت أفضّل أن تقتلني على أن تعيدني إلى قريتي هكذا.

– متى سافرت بعد الآن فستسير في طريقك الصحيح. — قال الفارس الأبزاخي للأمير وتابع طريقه.

نقض بج الأكبر الصمت الذي ران على المضافة:

– إن كان ما سمعناه صحيحاً فهو جزء من عالمنا الأديغي؛ ما العمل؟ لم يبدأ هذا بنا، وربما لن نكون النهاية. لوّث الأمير العنيد سمعته بنفسه. وكما يقول جباغ: متى خرجت عن طورك قابلتَ من يعيدك إلى جادة الصواب. من حظنا أننا لم نلحظ على أميرنا حتخشقوه مثل هذا السلوك الطائش.

– نعم، نعم، هتف السامعون معاً.

– وهؤلاء لا أظنهم كانوا مكْتَفين لا ينقصهم شيء... — غمغم قاشرغ بلا مبالاة، وهو يلفّ لُفافته، يكادُ يسمعونه. وتبادل بعض الحضور نظرات رعب. وأصلح قاشرغ الذي لاحظ هذا موقفه بسرعة: – على قول قسي أفندي: إذا كنت حياً فلابد من ارتكاب بعض الأخطاء. والأعداء يجدون ما يدينونك به.

– وأضف إلى ما قلت: المبغض يضعك في موقف حرج — قال دمدي الفلاح لصديقه قاشرغ الفلاح مغطياً على ما قيل بحق الأمراء: – هيا يا قاشرغ يا عرّاف الأساطير، الأفضل من كل هذا أن تروي ما تعرف من الأخبار المضحكة ما هو أفضل مما سبق.

– يا! — فرح قاشرغ بما سمع الآن. — إن كنتم ترون هذا فسأروي لكم حكاية رجل خبيث شرهٍ. كان يا ما كان: كان أحد الخبثاء الشرهين يعرف أن إحدى الأسر عندها نقانق طيبة فذهب ليأكل منها. وفيما هو ينتظر النقانق جاؤوه بالباستا[1]. نظر الشره حوله فرأى النقانق معلقة بسقف الوجاق. فقال متأملاً أن يأتوه بواحدة:

– الليلة رأيت حلماً مزعجاً أيها المضيف.

---

[1] طعام قومي عند الأديغة يُتَّخذ من الدُّخن أو الذرة الصفراء. ثم صار يُتَّخذ في العالم العربي من الأرز أو البرغل أيضاً. وهو المقابل لكلمة pâte الفرنسية، بمعنى العجين أو المعكرونة أوالمعجنات عموماً. المترجم.

– خيراً، أخبرنا!
– رأيت الأفاعي تطاردني . ولم تكن أرقّ من هذه النقانق المعلقة...
– لا تخف أيها الضيف! ما يعنيه حلمك هو اللسان فحسب. – أجاب المضيف الذكي ضيفه الخبيث.
– أحسن الرجل، غلبه. – ما إن نطق قُندت بعبارة الاستحسان حتى وصلت الفطائر الساخنة ومعها ماء العسل.
قال بج الأسنّ حين قرّبوا إليه الطعام:
– لا أعرف رأيكم، ولكني أفضّل البرك والشلامه على النقانق وحساء الفاصولياء. مُدّوا أيديكم. ندعو لأسرة مضيفنا أن يعوضها ما ينقص من مالها مئة ضعف، وأن يجعل ما يعوِّضه به حلالاً.

الفصل السابع

الصباح ثقيل، لا تعرف إن كان المرعى المستوي في أعلى جبل قنجال ينوي أن يُزهر، مما يدعوك للقلق: والشمس التي تود أن تعرف ما يجري في عالم الأديغة تبزغ فاترةً من بين قِمتَي أوشحه مافه. والأرض الرطبة التي تحمل رائحة الثلج تهب فوقها الريح متعثِّرة. والغابات المتنوعة التي حممتها الشمس فتعود إلى وعيها شيئاً فشيئاً تتجاوزها راكضة. والسواقي التي أرسلتها بدايات الربيع تجري حول سفوح باخسان وبالْق. وبعض الصقور تحوم في السماء كأنها لا تقلق لشيء. وصوت البوم الذي التبس عليه الليل والنهار يصدر ضعيفاً من مسافة لا قريبة ولا بعيدة.
رغم أن نهار الصيد الذي قضاه الأمير حتخشقوه أمس أسفل جبل قنجال كان يوماً ناجحاً فإنه لا يريد أن يعرف غيرُه أنه إنما خرج إلى الصيد لتفريغ قلقه وهمه. ما لستَ متأكداً منه يجلب لك الضيق، فحين نكّدتْ عليه عيشتَه الأخبارُ المتضاربة الآتية كل يوم من تركيا والقرم وروسيا وفارس والقالمق والكرج والداغستان، بل من الأديغة البعيدين، أخرجته من بيته أفكاره التي لا يعرف هو نفسه ترتيباً لها. ولكنه لا يعرف بعدُ على أي خبر سيستقر.

يقول حتخشقوه الأمير الوالي لنفسه وهو جالس إلى النار في دار إمارته: "إذا كان خبر إرسال خان القرم إلينا، وبمعرفة تركيا، جيشاً من ثمانين ألفاً، صحيحاً فلن تتسع أرض القبرتاي كلها لهذا الجيش... — لن نستطيع نحن مهما اجترحنا من بطولات مواجهتَهم بجيشنا الذي لا يتعدى الألفين أو الثلاثة. يبدو أن نصيب كل مقاتل منا ثمانيةٌ من مقاتلي القرم. سيكون الله في عوننا لأن ما سنحميه في الحرب أرضُنا. علينا التفكير في مخرج من الهجوم المرتقب، فكيف سيكون هذا المخرج؟ من أستشيرهم في الموضوع يجيبونني بأنهم سيقاتلون إلى الرمق الأخير ولا أجد عندهم الطريقة أو الحل. — سأل حتخشقوه نفسه وأفكاره تتناثر مثل الجمرات القافزة التي هيّجها الملقط: – هل أنفذ لخان القرم طلباته إذن؟.. كان من سبقوني إلى منصب الأمير الوالي يفعلون مثل هذا. يقول أكثرهم إنهم يحمون حريتهم بقليل من الصبيان والبنات يهبونهم للعدو. هذا مستحيل! عيب أن تحمي نفسك عبْر التخلي عن الأطفال للعدو. إذا كانوا يقبلون سابقاً مئتي طفل إلى ثلاثمئة إتاوة فالآن لا يقبلون بأقل من خمسمئة، لا، بل وقاك الله من سماع عويل طفل واحد، حرام أن تحتمي وراء حريته وذنب تسليمه إليهم. الأمس مضى، فما العمل اليوم؟ علينا من أجل الغد وما بعده، ومن أجل المستقبل كله، أن نتخلى عن جُبننا الذي لا يليق بنا كما يقول على حق كثيرٌ من الفلاحين والنبلاء. لا ينسَ القرم الذين يهددوننا أن السلاح يُقابَل بالسلاح. مهلاً، ألم يشنّ علينا خان القرم حرباً في العام الماضي؟ هل نسُوا أن آلافاً من أولاد أمرائهم، ومن جنودهم قضَوا على أيدينا؟ إن كان لابد من الحرب فلتكنْ! لم يقل أسلافنا عبثاً: من مدّ يده إلى عينك فمُدَّ يدك إلى روحه! ماذا يمكننا في هذا الاتجاه؟ هل نسبقهم فنحاربهم قبل أن يصلوا إلى القبرتاي الكبرى؟ وإن فعلنا هذا فهل يقبل منا أبناء قومنا نقْلَنا الحرب إلى ديارهم؟ ولماذا لا يقبلون؟ ليقيموا على صمْتِهم! وإن كانت الأخبار التي تصلنا صحيحة فبعض هؤلاء يحاربون في جيش القرم. يا للأديغة المناحيس! يا للأديغة المتمردين! يا من يتدخلون في ما لا يعنيهم!.."

هبّت الريح كما هي العادة في مرعى الجبل أن يتغير الجو بضع مرات كل يوم.

ولو لم يمسك حتخشقوه بقبعته لحملتها الريح وبقي بلا شيء يغطي رأسه. ولم يكفِ هذا بل اختفت الريح فجأة في المضيق بعد أن أطفأت هجْمتَها المفاجئة زخةٌ من المطر.

وفي الحال ارتفع من أسفل جبل قنجال صياح دبّ مذعور:

– ما الذي يجري؟ تساءل حتخشقوه بلا مبالاة — لا شك أنه صوت دبّ، هيا يا قرج أسرع إلى الفلاحين وأْتِنا بالخبر اليقين، – وما إن انتهى من توجيه الأمر إلى الحارس حتى سأل الفلاح الذي يحمل الدَّيْسَم، صغير الدب: ما هذا الذي بيدك؟

– هذا أيها الأمير الوالي ديسمُ الدبة الشهباء التي أمسك بها الفلاحون. كلّفوني أن أحمله إليك.

كان الديسم الذي يحمله الأمير ويلاطفه محاولاً تهدئته يركل بقوائمه القصيرة صدْر الأمير كلما سمع نداء أمه.

– كيف أمسكتم بأمّ هذا المسكين الصغير؟

– أمسكوها بالفخّ، وأوقعوها في الحفرة. يريدون أن يفرحوا أميرنا الغالي بفرائها بعد أن يقتلوها طعناً بالرماح في فمها.

– هذا لا يجوز! —نهض الأمير والديسم الذي هدأ ما يزال على صدره، واتجه إلى الغابة القريبة حيث يصدر صوت الدبّة الأمّ: نحن جئنا إلى هنا ترويحاً عن النفس، لا لقتل دبّ.

اقتربوا من الحفرة التي أُسِرت فيها الدبة، فشم الديسم رائحة الأم التي انقطع صوتها، فشرع يحاول الإفلات من الأمير، واستأنفت الأم صراخها.

نادى الأمير المحيطين بالنار لا يطيق صبراً:

– اهدؤوا! — ولما وصل خاطبهم بنبرة ألطف: – لا تُذنبوا بحق هذه الدبة اليائسة وصغيرها.هل آذتكم هذه الدبة التي تنتقمون منها؟

– هذه وقعت في فخنا قبل وقت غير بعيد... — قال الفلاح دمدي مدافعاً عن رفاقه، وأكمل مدارياً الأمير: – كنا ننوي تزيين أرض غرفة الإمارة بفروها يا أميرنا الغالي.

– اسكت يا دمدي! لستُ ممن يلوثون أرض بيتهم بالذنْب. هيا أفلتوا قائمتها من الفخ!

– وهل يسمح لنا أن نمد أيدينا إليها!

ألقى الديسم نظرة استعطاف إلى الأمير كأنه فهم كلامه، وخفض جفنيه المتعبين، ولكنه سرعان ما فتحهما، وتنهد.

– أمسِكوا عنق الدبة الأم بعمود خشبي، وفُكوا عنها الفخ. — ولما رأى التساؤل في نظرات الفلاحين المتبادَلة سألهم: – أليس بينكم من يجرؤ على هذا؟ أين الفلاح سبانج؟

– ولماذا لا يكون بيننا من يجرؤ؟! — خرج الحداد قاشرغ من بين رفاقه، – سأفعل هذا من أجلك يا أميرنا الغالي ولو أكلتني الدبة! يا صديقي دمدي أمسِكْ عمودك جيداً إن كنت لا تريد أن تندبني. وأنتما يا سبانج وقُنْدت أمسكا معه!

– أسرع قاشرغ بالهروب من حفرة الدب وتفرق الفلاحون بمن فيهم الأمير الحامل الديسمَ. أما الدبة التي خرجت من الحفرة منهكة فقد هربت إلى الغابة يتبعها صغيرها دون أن تلقي بالاً إلى الرجال المختبئين وراء الأشجار.

عاد الأمير حتخشقوه يتبعه ويتقدمه الحراس لا يعرف حاله إلى بيته. لم يكن قد قطع أكثر من ثلاثمئة خطوة ولكن جسده كان مرهقاً كأنه تسلق جبل قنجال ونزل منه. وأضيف إلى همومه لهفة الدبة الأم وصياح صغيرها فأُرهق قلباً وجسداً. وما لم يكن يفهمه هو كيف ولدت الدبة التي لم يمض وقت على إفاقتها من سباتها الشتوي. " ربما استسلمت للسبات والجنين في رحمها... مهما كان فقد جلبنا لهما الألم والفزع ثم أنهينا الموقف بالفرج.وفارقناها بنظرة فرح منهما. ربما كان هذا وراء قولهم إن العالم مؤلف من ليل غامضٌ، ونهار سعيد منير. وربما هو السبب في أن السعادة والشقاء متلازمان في الحياة". عاد كرغوقه إلى النار التي انصرف عنها على مرعى جبل قنجال.

وفيما هو يقلّب النار التي أعيدت إليها الروح عادت إلى مخيلته صورة أسرة الدبة وصغيرها. وقال لنفسه: "حسناً فعلنا إذ أنقذنا الدبة البريئة من خطر

الموت. ولكن ما مصير الأطفال الأبرياء الذين سبَوهم من أرض القبرتاي؟!"
نهض الأمير من أمام النار التي ما تزال بعض جمراتها تائهة وهو يطرح على نفسه هذا السؤال الذي لا جواب له عنده، وأكَّد على قرج الذي جاءه بالحصان:
– أطفئوا النار وعودوا!
الوقت تجاوز الصبيحة إلى الضحى، وقتِ تناول الفطور. والحراس الذين لم يفهموا سبب انصراف الأمير المفاجئ يتبعونه.
المنظر في المرعى الجبلي جميل، والعين لا تكاد تتسع لجماله. وعلى يمينه ويساره تصطف القمم البيضاء المغطاة بغابات فسيحة. وعلى مدى النظر تظهر الأعالي المسطحة للجبال المنخفضة. ومرعى جبل قنجال بين نهري باخسان وبالْك موزّع على مضائق جَتْمِشك ومَلْبشر و لَجَّن وتزِل وقازي. ويطل عليها جميعِها مرعى جبل قنجال. وقمتا أوشحه مافه اللتان تحميان كل هذه تنتصبان وراءها.
ترجل الأمير حين وصلوا إلى ساقية قازي، ورشق وجهه بالماء بضع مرات جاثياً على ركبتيه. ثم ركب بعدما شرب قبضة منه. وقال لرفاقه:
– وأنتم لا تحرموا أنفسكم من ماء قازي!
الآن حدّث نفسَه الأميرُ الوالي حتخشقوه الذي طاف طوال البارحة أرجاء مرعى قنجال بأوضح فكرة من بين الأفكار التي راودتْه: " أليست فكرة جيدة أن تستدرج جيش القرم إلى هنا فتقضي عليه؟!"
تجاوز الفرسان مضيق قازي، ووصلوا إلى المرتفع حيث ينتظرهم ثلاثة فرسان رحب من بينهم تيمر جانخت على الطريقة الأديغية بالأمير:
– تفضل أيها الأمير الذي كرّمنا به الله! كيف ترى موطننا وإن لم تكن ترى مرعى قنجال لأول مرة؟
– ليُكرِمكم الله بكل خير، ولْيبارك لكم في ما لقيتم! دعا الأمير الوالي للرعاة، ثم أجاب على سؤاله حول مرعى جبل قنجال: – مرعى الجبل واسع كريم منعش كقلوب الأديغة الذين تفضّل الله به عليهم. سيكون رمزَ شرفنا إلى

الأبد.

ردد الجميع:

– إن شاء الله!

قال جانخُت الراعي الأسنّ:

– نحن نقدم لك هذه النعجة يا زعيم الخير لتكون بذرة مباركة لقطيعكم، والآخر هو جلد الذئب الشرير الذي شغلَنا بضع سنوات نقدمه إليك تضعُه موطئاً لقدميك، تتذكرنا به، ونتشفى بصاحبه.

– أتَقبَّلُهما بكل رضاً. حياكم الله يا إخوتي الأعزاء.

– مع السلامة أيها الأمير الوالي. — دعا جانخت للأمير باسم الرعاة، وأعقب دعاءه: – سنظل دعماً لك في كل مشروعاتك الخيرة كما أوشحه مافه وقنجال أواشحه. — ثم قال الراعي العجوز وهو يتابع ثَلّة الفرسان الذين يقودهم الأمير:

– " يا رب هل يعيد ذكاءُ أميرنا وشجاعته القبرتايَ إلى رشدهم؟! أتوسل إليك يا إلهَتنا الكبيرة،سماءَنا الصافية، أدعو إليك أن تفهمنا وتحقق رجاءنا!".

حين وصل الفرسان مع صلاة العشاء إلى بْشِجَو، قال الأمير ملاطفاً رفاقه وهم يسمعون أذان الحاج قسي:

– تصبحون على خير، أنا مع من يتجه إلى الجامع.

ومضى الفرسان العشرون بأكملهم إليه.

الفصل الثامن

أشَبَه مينشاقه وجِرْجَه ماريم على طريق القرم منذ أسبوع. ومرام كليهما هو جَأرَف نالمس التي خطفوها العام الماضي إلى القرم: هي ابنة أخت أشبه الأسنّ، وحبيبة جرجه الأصغر. يبدو أن السرّ الذي لا تريد البوح به ينكشف شيئاً فشيئاً في وقت الضيق. ومع أن كليهما يعرف هذا في سره فهما لا يجرؤان على البوح به: ماريم على اليسار حذِراً في كلامه.

قال مينشاقه لرفيقه الشاب حين تجاوزا البسلني إلى حدود نهر لابا:

– انصُبْ سلماً على الطريق يا ماريم[1]!
– كنت سأنصب يا كبير لو كنت أعرف السلّم الذي نحن عليه.
وقْعُ حوافر الحصانين يتناثر في النهار الربيعي، وغبارٌ خفيف يرتفع على جانب الطريق الضيق. على يسارهما تبدو القمم البيضاء لجبال الأبزاخ. وإلى يمينهما يخترق نهر بشزه السهول الفسيحة التي تجري إلى الشمال ملتفتة إلى بعض التلال القديمة الخفية التي صنعتها يد الإنسان. وتتهامس الغابات الفسيحة المتنوعة الألوان بنسيم الربيع الدافئ. وتنظر من خلالها السحب الباهتة التائهة. وتتراكض أنهار بشزه ووارْب وفارْز وشَحُراج وشْحَه غواش ولابا وبْشِشي وبسه قُبسي وشاكي وأفابس،كلٌّ وحده إلى البحر الأسود الذي ستملّحه بعد قرنين دموع الأديغة.
قال مينشاقه دون أن ينسى الجواب الذي تلقّاه:
– ما أجمل طبيعة بلاد الأديغة! — وأكمل بعد سكتة قصيرة: – وهناك يعيش الأبخاز وإذا نظرت عبر بحر آزوف فالقرم، هل تظننا يا ماريم على السلم الناعم؟
– ليس إلى هذا الحد يا كبير، ولكن لا أستطيع ادّعاءَ معرفةِ ما لا أعرفه.
– يسرني ما أسمع، يسرني. وكما يقول أحد رجال قريتنا: ما لا تعرفه لا يُرضيك، وما يرضيك لا تعرفه. — ضحك مينشاقه من أعماقه، وأضاف:
– حسنٌ إذ لا تتكلم بحماسة جوفاء. نحن الأديغة يتقدمنا دائماً خنجرنا المُشهَر، وعقلنا في الوراء. وأنا أقع في مثل هذه التصرفات أحياناً. ولكن، كما يقول حتخشقوه وقزنقوه، ما ذنبنا نحن البؤساء، وهل يتركوننا نحقق أمانينا الخيِّرة؟!
– وما هذه الأماني يا كبير؟
– أمانينا؟ – تمهل مينشاقه قبل الإجابة على السؤال غير المنتظَر، ولكنه لم يتأخر في الإجابة: – سأجيبك إذ سألتَ: – أن نعيش في طُمأنينة، ونربي

[1] يعني نصْبُ السلَّم تخفيف ثقل الطريق ومللِه بالحكايات والأحاجي. المترجم.

أولادنا، ونُعزَّ نساءنا، ونكرِّم كبارنا، وماذا أيضاً؟ وأن نتخلى عن مؤامراتنا الداخلية، ونفكر في ما استفدنا من تجاذباتنا السابقة. — وأنهى مينشاقه ساخراً من كلماته الأخيرة: – والآن يا ماريم قل لي ما تعرف.

– وماذا عندي لأقول لك؟! أوافقك على كلامك في الدسائس والخلافات بيننا. وليتنا نسينا ما نتنافسُ عليه فيقفُ في طريق تقدمنا.

– إن كنت تعرف في الأديغة مثل هذه العيوب فلماذا لم تخطب في المؤتمر الأخير يا جرجه ماريم؟

– وهل يسمحون لك بالوصول إلى ساحة المؤتمر والكلام يا أخي الكبير؟ لو لم يكن إلا تاوقان... الحق يا صاحبي أن المؤتمر الأخير جرى بصراحة جارحة أكثر من مؤتمر العام الماضي. ولكن لم نلمس نتائجه إلى الآن.

– أنت على حق يا ماريم، أوافقك إلى الآن على كل ما قلت، إلا على تعبير "الصراحة الجارحة". كنتَ في عداد الفرسان الكثيرين الذين أوفدهم الأمير الوالي إلى جلخستانيه، ووصلَني بعضُ ما جئتم به من أخبار منها. ولكن إن أطلعتني على نحو أكثر تفصيلاً، إذ كنت على اتصال معهم، كنتُ شاكراً لك.

– سمعنا في جلخستانيه أخباراً طيبة. واحترمونا جداً، ولكن، – أنهى كلامه ضاحكاً، – إن أردتَ أن تروي القليل مما أمّلونا به فهو كما يلي: بما أن الهدف الأول للقرم هو القبرتاي الكبرى، فجاءهوهم، ولا تسمحوا لهم بالاختراق، ومصيرنا مصيركم. — وفي الحال تذكر ماريم شيئاً فخرج عن الموضوع: – سمعت أن الأمير الوالي أرسل مجموعة كبيرة من الفرسان إلى صهرنا أيوك في القالمق، ولكن لا أعرف ما سيأتون به من أخبار.

عصر الألم قلب مينشاقه.

– وأنا تصلني مثل هذه الأخبار... — وتابع بعد قليل: – أليس أهل جلخستانيه أديغة؛ فكيف يتخلَّون عنا؟ لو لم يتدخل القالمق في هذه الذرائع لكان خيراً. ولكني لا أثق بأيوك القالمق، ولا بزعيم الكرج كارتلي. هل تعرف رأيي فيهما؟ نعرف ولكن يا للحسرة نُخفي!

فهم ماريم معنى العبارة ظاهراً فحسب ولكنه رأى نفسه أعلى قدْراً من أن يسأله

عن المعنى الخفي.– قال في نفسه: "مينشاقه خلافاً للنبلاء الآخرين الذين أعرفهم رجل عجيب متميز بعقله وإنسانيته وانسجامه مع الكبير ومع الصغير. لم يكشف لي عن هدف رحلته بل قال لي: اركب معي. وحين توجهنا إلى البسلني أرحت نفسي قائلاً: ربما كانت مقصدَنا. والآن ها قد تجاوزنا البسلني ونمشي في برية الأبزاخ والجمكوي؛ فهل أسأله عن وجهتنا؟

– لي سؤال إن لم يكن عندك مانع يا مينشاق[1].

– لا عيب في أن تسأل عما لا تعرف يا ماريم.

– كنت أود معرفة مقصدنا.

– هذا هو؟! — سأله مينشاقه بلا اهتمام ظاهراً. وأجابه إجابة قاطعة: – فيك رجولة وصبرٌ يا أخي الصغير. أخوك الأكبر يعرف مقصدنا. نحن نذهب إلى القرم. وأنت تعرف قرابتي بالفتاة الأسيرة هناك نالمس. وأعرف شيئاً عن علاقتكما أنت وهي. ولكن كنت أود أن أعرف إن كنت ندمت على سفرك معي.

وجم ماريم لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل. وانتصبت أمامه نالمسُ حبُّه الأول. وامتلأ صدره بالخوف والأمل من الخاتمة المتوقعة لطريقه. فأجاب وقد تملّكه الحياء وصعد الدم إلى رأسه:

– لم ينطفئ حبي لنالمس.– ثم غيّر الموضوع:

– حتخشقوه دولت — جري تحالف مع القيصر بطرس، مسمياً نفسه بيكوف — شركاسكه ألكسندر، ناسياً القبرتاي الذين هو منهم، منفذاً أوامرهم.

– ليته أبلغ القيصرَ حليفَه بوضعنا مع القرم...

– لن يُبلِغه! — قال مينشاقه بخشونة، وفصّل له الخبر: – لا نريد إلا أن لا

[1] تُحذف الفتحة الأخيرة من اسم "مينشاقه" في حال النداء. المترجم.

يؤذينا بيكوف – شركاسكه، و"الشركاسكه الآخرون[1]" من جلخستانيه، والأديغة المتحالفون مع تركيا، ومع الفرس ومع الكرج وخان القرم، بمن فيهم خان القالمق. لا نتأمل منهم شيئاً[2].

– على رأي دمدي الفلاح، قال ماريم، – امسحْ رأسك إن كانت يدك مُدهنة؛ انفعْ نفسك قبل غيرك إن كنت قادراً.

– وهل أتاحوا لنا الفرصة حتى تمتلئ أيدينا دهناً؟! ولو أتاحوا لامتلأت، ولكن، سامحني يا أخي الصغير، أمثال هؤلاء يتنكرون لقومهم الذين ينتمون إليهم...

– إن كان هذا رأيَك يا أخي الكبير، وإذا كان توقان يعرف فماذا يمكنني أن

---

[1] يمنح الروس نسب "شركاسك" للشراكسة الذين انضموا إليهم، وتنصّروا غالباً. وتجد هذا في كل أخلاف الأمير الكبير ردد الذين تحولوا إلى روس، كما ستقرأ في حاشية المؤلف القادمة. ولا يزال بعضهم إلى الآن حياً. المترجم.

[2] في عام 1557 حالف تيمرقوه بن إيدار أمير القبرتاي الصغرى "جلاخستانيه" روسيا التي كان إيفان الرهيب قيصرها. واتخذ القيصر الابنة الصغرى لتيمرقوه زوجة ثانية بعد وفاة أنستاسيا الزوجة الأولى. وبفضل هذه القرابة توجه أخلاف تيمرقوه وأبناء الأسرة الأميرية إلى روسيا، واعتنقوا المسيحية. وحمل أكثرهم أسماء روسية إلى جانب نسب "شركاسكه" فعملوا قادة للجيش وسفراء ومندوبين، فأخلصوا لروسيا وحمَوها. ومن هؤلاء الحاملين نسب "شركاسكه": ميخائيل تيمريوكوفيتش، وبوريس كومبيلاتوفيتش، وسعيد بولات، ابن الخان بيكبولات وزوجته ألتنجاج الابنة الكبرى لتيمرقوه، وكثيرون غيرهم. وبيكوف شركاسكه المتحالف الآن مع بطرس الأول قيصر روسيا من هؤلاء. وأبعدَ من هذا التاريخ في زمن ردد أميرِ القسوغ،ومستيسلاف أمير الروس، وَوْشاكوف فيدور غريغوروفيتش الأدميرال البحري الشهير أحد الأحفاد البعيدين لردد. وممن كانوا سلاطين لتركيا سليمان وبيازيد وعبد الحميد وعبد العزيز وآخرون هم أبناء زوجات شركسيات أو أحفاد أو أزواج. وزوجة فاختانت السادس ملك الكرج شركسية. وإذا توجهت إلى بلاد الفرس فزوجة عباس الأول وعباس الثاني وكذلك بعض زوجات خانات القرم... المؤلف.

أقول؟ سلاحك سلاحي ونيّتك نيتي يا أخي!
أعادت الذكريات أشَبَه مينشاقه إلى صيف العام الماضي 1707. خان القرم منغل – جري يحتل من القبرتاي الكبرى عدة قرى من أكبر قرى البلاد: جمعوا من البنات والأولاد الأديغة الإتاوة، النساء يَنُحن، والرجال بلا أمل. وقتلوا من قاومهم، وأهانوا من عنده زوجة جميلة.
وفي هذا الوقت كان في قرية النبيل مينشاقه، كما في الحكاية الأديغية، أقطاي أحدُ قادة جيش القرم، يقدمون له الطعام والشراب. أُعجب أقطاي بمامُخ زوجة مينشاقه، فأرسل حراسه ليأتوه بها. قال مينشاقه لهؤلاء: "من يجرؤ على سلبي امرأتي على جثّتي فليتقدم!" وحين سمع منغل- جري بتخاذل الحراس استدعى مينشاقه وبدأ يوجه إليه كلاماً مهيناً: "لماذا رفضت تقديم زوجتك لقائد جيشي؟ هل استهنت به؟ شرف لك أن يتنازل قائد جيشي فيشتهي زوجتك". "لن أسلمها له!" أجاب مينشاقه الخان بصوت قاسٍ. قال الخان: "وهل ستمنعها عني إن أمرتك؟" قال مينشاقه "رجال الأديغة لا يتخلون عن زوجاتهم" – ردّ مينشاقه مرة أخرى بعنف على منغل – جري الذي قال: "سنرى إذن إن كنت ستمنعها عني" وأفرغ صفوة الغليون على رأس مينشاقه المحلوق حديثاً. توقع الخان أن يفزع مينشاقه، ولكنه لم يتحرك إلا أن وجنتيه توردتا فقال له: "لو كان عندي قادة جيش من أمثالك لوضعت القبرتاي، بل القفقاس كلها تحت إبطي في عام واحد. أمثالك لا يثنيهم الموت نفسُه. الأفضل من العداء أن يسود بيننا السلام"، وصرفه متظاهراً بامتداحه.
وفي الليلة نفسها قُتل أمراء جيش القرم في قرى باخسان باستثناء منغل – جري الذي هرب مختطفاً نالمس معه.
سأل مينشاقه الذي خرج من أفكاره:
– ماذا قلت يا ماريم؟
وسأل ماريم الذي كان غارقاً في أفكار أخرى:
– ألا تزال القرم بعيدة؟
– هل تعبت على الطريق؟ أم هل أنت مشتاق إلى رؤية القرم؟ ضحك مينشاقه

الذي كان يخمّن ما يُقلق ماريم في سره، وأجاب: – تركنا وراءنا أرض الجمكوي، وبعدها أرض الأبزاخ. وإذا عبرنا الأبزاخ دخلنا أرض البجدوغ. وإذا عبرنا الشابسغ دخلنا أرض الجانيه. ومنها إذا نظرنا عبر بحر آزوف رأينا القرم كما قلت لك.

– ما كنت أصدق، غير أن أرض الأديغة كبيرة...

– نعم يا ماريم، كبيرة. بلاد تضم أعراقاً كثيرة متنافرة... ولم أذكر بين الأعراق التي عددتها اسم المخوش والحاتيقواي واليجرقواي، والأدميه لأننا لن نعبرها. وكما يقول الأفندي قسي فليحْمِنا الله! فما يُدرينا ما أمامنا، وما يمكن أن يحدث لنا. ورغم ذلك لا داعي لليأس يا أخي الصغير. هيا أسمِعْنا شيئاً من الأغاني القديمة التي يطلبونها منك في المضافات. وأنا سأردد معك. وإلا فلْنلعبْ لعبة الأحاجي!

– سنغني في إحدى مضافات الجمكوي أغنية من القبرتاي تعجبهم. ولكن يبدو لي أن الأحاجي أشد تشويقاً الآن.

– كنا في طفولتنا نحب لعبة الأحاجي في أماسي القرية. وقد نبّهتْنا إلى مسائل كثيرة، فلْتبدأ!

– سأبدأ إن رأيتني أستحق: على سطحنا نصف صحن.

– قمر.

– يتكوَّر، ويعلق بالأسوار.

– ثلج.

– يفتح الباب وليس له يد.

– ريح.

– عجوز صغير شرِهٌ للملح.

– بيضة.

– أنت ماهر في الأحاجي يا كبير.

– أنا ماهر لأنها سهلة.

– اعرفْ هذا إذن: يتفتت، ويتغير شكله، ولا يعطونه لأخت الزوج، ولا يؤدّى

هدية لعروس.
– أظنك أفحمتني... أعطيك عشر قرى بما فيها قريتي[1].
– لن آخذ منك قريتك، ولكني سأجيبك لأني أخذت القرى الأخرى منك.
– مهلاً، مهلاً... بين هذه القرى قرية الأمير حتخشقوه.
– لا أعرف هذا.إذن سأقول لك جواب الأحجية فيما أعيد إليك ما أعطيتني: الخرز. والآن دورُك يا مينشاق.
– احزر إذن: عنده أسنان كثيرة ولا يتألم أي منها.
– منشار.
– يصنعونه من الشجر ويلتقط القش.
– شاعوب.
– يمنع الحصان من السير، ويحثه على السير، مقعد على الحصان، ومرقى إلى الحصان..
– لجام، سوط، سرج، رِكاب.
– لا تضحك، سيظهر لك الأصعب، يعبث على سطح الأرض، وفي السماء شوك، ويجفف سبع رؤوس من الشوك، ويرجع إلى الثقب.
– هذه هي الريح الشرقية التي لدغتنا مساء أول أمس حين عبرنا نهر بشزه.
– إذا كان هذا رأيَك؛ فما هذا: إن نظرت إليه فهو ذو عين قبيحة،وإن قرأته فهو أصم.
– أظنها المرآة.
– عرفتَ. وهذه: أختان تنام إحداهما ورأسها عند قدمي الأخرى.
– هل قلت: أختان؟ أسمعها لأول مرة.
– الحاجبان. وهذه: فرن صغير مليء باللحم.
– كشتبان.

[1] يحمل المعنى الحرفي للأحجية: الحصول على القرى، وأكْلها، تبادل القرى رمزياً طبعاً كمراهنة، كما يتوازع لاعبو القمار البطاقات. المترجم.

– في أحضان البنات، وتحت أقدام الكسالى.
– مقصّ.
– وهذه: يسلب العرائس الجديدات أبناءً كثيرين، ويطير.
نصّ ماريم برأسه فجأة وقال لنفسه وهو ينظر في وجه مينشاقه واجماً متألم القلب: " ومن سيكون؟ ربما هو صقر القرم الذي أهاننا في نالمس بجمرة غليونه " وفي لحظة تبديل مينشاقه الذي لاحظ حال قلبِ ماريم،تبديل السؤال رأى الفرسان الأربعة القادمين فغمغم:
– أي فرسان لا نهاية لهم اليوم والبارحة والأيام الخمسة السابقة لها؟! تبعاً لطريقة امتطائهم فالثلاثة ليسوا أديغة... مهلاً، ربما كان الرابع هو الحجرت مامسر نقار[1]، لا، خُيِّل إليّ فحسبُ.
– أيكون هؤلاء عائدين من حيث نسافر نحن يا مينشاقه؟
– ربما... ولكني أظن رابعَهم شركسياً.

الفصل التاسع

هجمت الريح الصفراء التي هبّت من الشرق فجأة على الفرسان الأديغة: تخطف ذرات الرمل التي سخّنتها شمس الربيع، والحشائش اليابسة، وترفعها إلى السماء وما تستطيع الريح حمله يبقى فيها، وما لا تستطيع يسقط منها. وتصوّتُ الريح فوق الأرض كما تصهل الخيل المتألمة التي تجد نفسها في ضيق.
– تجمَّعوا وأزمّة خيلكم بأيديكم! نادى بج نَغُر رفاقه، وقال لهم: – ما هاجمتنا ريح هوجاء. وكما هبت ستتوقف.
حين توقفت الريح التي لم يطلْ بقاؤها على الأرض الرملية نصف ساعة قال

[1] حجرت وأبرج مترادفان يُطلقان على فئة من المجتمع تخرج عن طوعه، وتعيش على السرقة وقطع الطريق، وأحياناً تهاجم العدو. وربما جاء الاسم من "هجرة" العربية بمعنى المهاجر. وأقربُ فئة في تاريخ العرب الجاهلي والإسلامي إليهم هي فئة الصعاليك. ولم نجد جمعاً ملائماً إلا الجمع المؤنث السالم. المترجم.

دمدي وهو ينفض الغبار عن لباسه:
– يا زعيم الخير، لجمتَ الريح.
– كنا حكمنا بهذا لو لم تتجاوزنا... – غمغم الحداد قاشرغ. ثم سأل كأنه غبرُ مبالٍ: – أليست دار إمارة أستراخان في تلك الناحية إن لم أُخطئ؟
– كانت في زمان ما، حين كان أجدادنا في عز شبابهم، ولكن لا أعرف إن كانت ما تزال... – مازح دمدي صديقه.
– ما أكثر ما طلبت منك ألا تعلِّق على كل شيء أقوله! – ردّ قاشرغ على صديقه. ثم لامه: – لا تدعْنا نتشاجر على الزمان الماضي لألتنجاج الابنة الكبرى لإيدارقوه تيمرقوه!. وهل تظننا سُذَّجاً مثلك فنشربَ الماء من أنوفنا؟!
– مهلاً، مهلاً! – قال بج للسائسَين المتناحرين.– ما الذي جرى لكما؟.. خيولنا لم تشرب منذ البارحة؛ فلنبحثْ عن بئر!.. وقال لأحد الحارسين الممسكين بالأزمّة: هيا يا إلَن ابحث بعينيك الحادتين! يُخيل إليّ أن هناك ماء في أسفل ذاك الجبل حيث تتحرك الإبل.
– لم تُخطئ يا كبيرنا، – شهد السائس الآخر قبارد على صحة ما سمع. – والجمال ترد من الحوض.
– من صاحب تلك البئر يا تُرى؟ – سأل قاشرغ الذي يلحّ على معرفة كل شيء.
– من سيكون صاحبَها؟ هي لأحد أصحابها... – قال دمدي، ولما رأى صاحبه ينظر إليه كأنه يقول: ألن تتركني؟ برّأ نفسه: – نعم، ربما يكون من القالمق أو من النغوي، أو القوزاق... وأنا كنت أود معرفة الرجل.
– أي قوزاقي هذا؟ ما الذي يأتي بهم إلى هنا؟ – ناكد قاشرغ صديقه: – حقاً وصل قوزاق الدون الذين يسمون أنفسهم قوزاق تَرْج إلى بلادنا... هؤلاء مثلُ التتار الذين صرنا قريبين منهم. لم يبق مكان لم يصلوا إليه. يعملون في أعمالهم وفي غير أعمالهم.
– حرام أن تذوق من ماء هؤلاء إن لم تكن على شفا الموت... – تمتم إلَن لقبارد كمن يحدّث نفسه.

– الماء لا يميز بين الناس. — قال بج لمن وراءه، وحثّ حصانه.
الرمل الذي سخنته الشمس الرابضة فوق البرية الصفراء يهدأ قبل أن يثور تحت حوافر الخيل. وبعض القش الناعم يستقر، وأزهار كسّار الزبادي[1] المتناثرة تبدو هنا وهناك. والعظايات الصغيرة التي صحت من سباتها تتراكض فوق الرمل. والخيل التي حدست أن الماء لم يعد بعيداً تُغِذّ السير. والصقور التي تشير إلى أن أرض القالمق الغنية بالمواشي تدوّم في السماء.
"تبدو أستراخان قريبة، ولكننا قد لا نصل إليها قبل المساء" — قال بج لنفسه وهو يرى الصقور. والأرض الخصبة المحيطة بأستراخان الصالحة لحياة البشر وهذه الصحراء كانتا من إمارة صهر تيمرقوه خان النغوي بيكبولات. والآن ما الوضع؟ بقي نهر إيدل على حاله، وكذا أستراخان وجلخستانيه وترج، واندثر أصحابها كأن لم يكونوا... وهل ننسى إيدار إينال المنير الذي طالما تمنى دولة شركسية واحدة؟ ولا ننكر أن ابنه تيمرقوه كان فطيناً ولكنه واحد ممن هدموا الدولة الشركسية الوليدة. زوَّج ابنته الصغرى غُشَوْناي من قيصر روسيا، واتجه الأمير أبشَقوه، أمير القبرتاي الكبرى نحو القرم، فلم يجلبا لنا الخير بتزويج بناتهم للخانات. والآن وضعوا على عاتق الأمير الوالي حتخشقوه إصلاح تلك الأوضاع، ولكن لا أعرف إن كان سينجح. كان الأفضل أن يرسل وفداً إلى القيصر بطرس الأول الذي يعمل عنده بيكوف — شركاسك ضابطاً من أن يوفِدنا إلى القالمق[2].

---

[1] نبتة لها أوبار كروية ناعمة جداً تتناثر في الهواء. يعرفها الشراكسة باسم "تَتَرْكُن"، ولها حكاية معروفة إلى جيلنا، وسيرويها المؤلف لاحقاً. المترجم.

[2] ينتمي بيكوف — شركاسك ألكسندر (دولت — جري) إلى أسرة الأمير أبشقوه قازي الأمير الوالي القبرتاي. حين توفي الأمير أبشقوه بَجْمرْزه ترك وراءه ستة أولاد: تترخان، وشَوْلَخ، ودولت — جري، وبانَق، وقايْسِن، وإلْمِرْز. وإذا كان والدهم يسميهم: بَجْمرزه الصغير، فقد بقوا في التاريخ الروسي باسم بيكوفيتش — شركاسك. ورَبِي ألكسندر مع ولدَي الأمير غوليسن بوريس ألكسيفيتش.

وظل الأمير الوالي البائس كرغوقه ينتظر الإيفاد إلى ابن عشيرته بلا موعد محدد، وأيوك خانُ القالمق عنده جيش فرسان ممتاز. ولكن من الصعب المقارنة بين روسيا والقالمق. فالقالمق تبقى قالمق، وروسيا هي روسيا. وهل عجيب إن تحاربت روسيا والسويد؟ وإيفان القيصر الروسي عاش حروباً لا نهاية لها. وحين يشتكي الجلاخستانيه إلى صهرهم معتمدين عليه لا يمنعه هذا من إرسال جيشه إلى القبرتاي الكبرى. أظن أن أمراً لا نعرفه يجري في قضيتنا. وكما قال لي جباغ قبل أن ننطلق فلا يجوز أن أُسمِع رفاقي هذه الأسئلة الصريحة. وثِقْ بي في هذا الشأن يا جباغ. ولن ننسى نداء أسلافنا "إما أن نكون رجالاً وإما أن نموت" ماثلاً في أذهاننا حتى لو وقفنا أمام عدونا الخان عُزْلاً"

خرج بج من أفكاره وقد حُبِّل إليه أن الصوت ليس صوته، بل هو صوت قادم

في عامَي1708 – 1709 أوفِد ألكسندر بيكوفيتش إلى إيطاليا وهولندا لاكتساب الخبرة في شؤون البحرية. ولما عاد إلى روسيا خدم في جيش بريوبراجينسك. وفي الثاني من حزيران من عام 1714 يوفَد، وقد حمل رتبة " كابتن" إلى آسيا الوسطى، بمهمة مكتوبة بيد القيصر بطرس: ينبغي أن يصل إلى خان خيفا عند منجم الذهب القديم على نهر أمودراي ويعمل على مصالحته بالقيصر، وأن يبني قلاعاً على امتداد الطريق المؤدي إلى خيفا. وأن يختبر الضابطُ التاجر كوجين طريقَ هندستان. وأن يتعرف الضابطُ أركيت على مناجم الذهب.

يتوجه ألكسندر مع أربعة آلاف جندي وألفي قوزاقي وضابطين إلى جهة خيفا. وفي الطريق يلتقون بجيش خيفا المؤلف من أربعة وعشرين ألفاً، فيسحقونه ويتقدمون. ولكن خان خيفا يهاجم ألكسندر المتوجه مع خمسمئة فقط لإقرار صلح مع الخان فيوقعون في حاميته خسائر كبيرة. ويتصرفون هكذا مع الضابط الروسي فرانينبك الذي ليس معه إلا ثلاثة آلاف. ويُرسَل رأسُ بيكوفيتش شركاسك إلى خان بخارى. وهكذا تنتهي حياة الضابط الروسي – الشركسي الذي لا يُعرف تاريخ ميلاده عام 1717.

وترك بيكوفيتش ولدين: وحمل كلاهما اسم والدهما ألكسندر. وكانا ضابطين في الجيش الروسي. والقرية التي ينتمي إليها هؤلاء بيكوفو، تقع الآن في مقاطعة بيكوفو الواقعة في بلاد بيتزه. ويحمل أحد مضائق بحر قزوين اسم بيكوفيتش شركاسك ألكسندر. المؤلف.

من بعيد:
– هل ترى يا إلَن عدة جمال عند البئر؟.. سيتوجب علينا انتظارها.
– حسناً، تكلمَ دمدي الصامتُ إلى الآن: الجمال تشرب كثيراً من الماء. ولكنها تستطيع الصبر عليه بضعة أيام. إن سمحت لي يا نغُر فأنا أتكفل بأصحابها التجار الجشعين. هيا يا قابارد ضعْ في كيسي بضع قطع من اللحم المقدد وشيئاً من الخبز.
– لا تجادلْهم!..– لم يصبر الحداد قاشرغ، ثم أضاف: – أظن أن بضعة المسلحين هؤلاء حراسُهم.
– ألم أقل لكم إني لا أنوي مثل هذا؟! — امتدح دمدي الزاد الذي رآه في الكيس. — حسناً فعلتَ يا مبارك النسل؛ لا أحد يقاوم سِحر الزاد.
سمع الغلام الذي يمتح الماء من البئر الحوار باللغة الشركسية، فنصّ برأسه وسأل دمدي:
– هل أنتم أديغة؟
– نعم أيها الشابّ! نحن أديغة قادمون من القبرتاي. وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وإلى من تنتمي؟
– أنا، – قال الصبي وقد غلبه الحزن، – اختطفني واحد من أمثال حراس التجار الأشقياء هؤلاء من الجمكوي، وباعني إلى أسرة من القالمق... إن كنت سمعت باسم الأمير بولت فأنا من قريته.
– وكيف لا نسمع اسم الأمير بولتقوه أيها المسكين؟– لماذا لم تشتكِ يا ولدي حين حدثت لك هذه المصيبة إلى زوجة الخان أيوك؟ أليست شركسية؟ أما كانت تتفهمك؟
– زوجته لم تعد تعيش في هذه الأنحاء... يقال إن الخان أرسلها إلى أستراخان لتعيش هناك.
– لم نسمع مثل هذه الأخبار... هل تسمع يا نغر، أيها الزعيم المبارك؟ هذا شركسي. تعال يا ولدي أعرِّفك على النبيل بج؛ها هو الآخر قادم.
والنبيل بج الذي أثاره الحديث بالشركسية عند البئر تقدم باتجاههما، دون أن

يتوقف عند التجار، نحو الصبي الشركسي الذي أجهش بالبكاء، وسأله:
– أنت أديغي إذن يا ولدي! ثم أعاد السؤال كما يلفظ القبرتاي اسم "الجمكوي" الذي سمعه: – أنت من "الجمركوي" الذين نسمع باسمهم ولا نعرفهم إذن؟
– نعم يا كبير. — قال الغلام حريصاً على دموعه، وأضاف: – أنا ابن أخت بولتقوه بولت.
– عصر الألم قلب بج نغر مما سمعه، فضم الغلام إلى صدره وقال منفعلاً:
– عالمنا عالم يمزق القلوب. لا نسمع إلا المآسي. ولكننا سنتحمل كما يقول كبارنا، ونتحرر من قيوده. وإذا كان حل مشكلتك عندنا فأخبرنا باسمك!
– يناديني والدي ووالدتي والجميع باسم "داوِر".
– اسم جميل!– قال داور، وأضاف فجأة بلا وعي منه: – ولكني منذ اليوم، وهذه الصحراء، وهذه البئر شاهداي، سأناديك باسم جمركوي!
– إن كان هذا رأيك يا كبير، وساندتني ضد الإهانة التي ألحقوها بي فلن أرفض. وكما يقول خالُنا بولتقوه: سلاحك سلاحي وهدفك هدفي.
قال دمدي لنفسه مُشيراً إلى قاشرغ برضاه: "هذا الولد ينضح رجولةً وإن كنت لا أعرف لماذا بقي في الأسر إلى الآن".
وقال قاشرغ الذي فهِم إشارة دمدي لبج:
– يا زعيم الخير، نحن أيضاً شهود على اسم "جمركوي" الذي سميت به الفتى. ولكن لا تنس أن عليك أن تفي بنذرك متى عدنا إلى القبرتاي، وأنك ستكرمنا بوليمة.
– كما تأمرون، جاهز في أي وقت.
ضاج التجار محتجين على قطع الأديغة متح الماء من البئر. وفي الحال رأى بج نغر زريندورجَ القالمق رفيقَ الفتى الجمركوي يبعد الجمال التي لم تكمل شربها فقال:
– ماذا يفعل رفيقك القالمق يا داور؟
– يا! — صاح دمدي لا تعرف ماذا يريد أن يقول. — قل يا جمركوي لرفيقك

القالمق، حماه الله، ألا يكسب ذنباً بهذا. جمال هؤلاء وخيلنا ذات أرواح.
– هذا لا يجوز! – تمتم قاشرغ أيضاً.
– نعم، نعم، – شرح بج عدم رضاه عما يفعل الغلام.
– ولكن يا زعيم الخير... – لم يسمحوا لإلن بمتابعة كلامه.
– اسكت يا إلن! – اعترض الزعيم مدركاً ما يريد أن يقوله إلن. – نعم، ما مضى أكثره سيمضي أقلُّه. أَفهمُ يا جمركوي ويا إلن ما يعتمل في قلبيكما، ولكننا سنتحلى بالصبر، ويصل إلينا دور السقاية. وسنرى همَّنا الأديغي انجلى على خير. وإذا كنت قلت "الزاد يرقق جميع القلوب فلا ندخلْ في التنافس، بل لنساهم جميعاً ليُعدّ شبابنا مائدة الغداء. وادعوا التجار الذين قالوا إنهم من الهندوس إليها.
– نعم يا نغر، أخبرونا أنهم من "الإيدوس". ولكن هذا الرجل الضيق العينين، الواقف إلى جانب الجمل يتنصت علينا، ليس منهم... نعم، حقاً، يا دمدي لا تحاول تصحيح كلامي. "هندوس"، ومع ذلك يتكلم بلغتهم.
– ومع ذلك فمنذ رآنا يتجسس علينا... – غمغم قبارد الذي كان يحمل المائدة دون أن يُفصِح عن مراده تماماً، بل ما يتوجس منه: – ربما يعرف أنه ارتكب جريمة ما بحق الأديغة؟
– اصبِروا! – قال بج لرفاقه الأحدث سناً.. ثم أتبع كلامه بعتاب رقيق: – لا تفعلوا شيئاً غير مستعدّين له. – ثم نادى الهندوس مشيراً لهم بيده: – تفضَّلوا إلى مائدتنا.وأنت تعال انضمّ إلينا دون أن تختفي، – قال لِمن كانوا في سيرته، – أنت تعرف لغتنا ولغتهم فكن ترجماناً لنا، وأخبِرنا باسمك.
– اسمي أتا– إلياس.
جمعت المائدة العاجلة التي أعدّها الأديغة على طريق الحرير الذي يربط أوربا بآسيا الأديغة والقالمق والهندوس وأتا– إلياس من نغوي القرم. وعلى خدمة المائدة يقف الشبان الأديغة الثلاثة: ألن، وقبارد وداور الجمركوي: أحدهم يقسم الخبزَ، والآخر اللحمَ، ويضعه والجبن أمام المدعوين. والثالث يدور بالماء عليهم. وبفضل المائدة الأديغية المستعجلة تعارف أناس لا يعرف أحدهم الآخر، ومن

بينهم زريندورج، ولم يألُ أتا – إلياس جهداً في هذا. يترجم ما يقولون بقدر الإمكان، مضيفاً أموراً صغيرة من عنده. وحين انقطع الحديث لحظة، أخبرهم كبير التجار بأن موعد انطلاقهم حان، مشيراً إلى الشمس التي تفارق الآن كبد السماء. وقال بج نغُر الذي فهم مقصد الهندوسي:

– نعم، يمكننا أن نجد موضوعات للحديث وإن تجالسْنا طوال النهار. نقول لكم إذن: رافقتْكم السلامة، ويسَّرَ اللهُ طريقكم. وريثما تستعدّون، لي مع رفيقكم أتا – إلياس بعض الكلام... — ولما رأى التجارَ الهندوسَ وضعوا ثمن الغداء لامهم بصوت عالٍ: – ما هذا يا مبارَكي النسل؟! هل تشترون الطعام الذي دعوناكم إليه؟ ثم أكّد بصوت ألطف: – حلال عليكم، لا تهينوا كرَمَنا!

رأى بج نغر التجار يلمّون نقودهم مسرورين، فابتسم، وقال أتا – إلياس وقد رآها فرصة جيدة:

– هؤلاء تجار يعرفون قيمة القرش!

– حلال عليهم... الليرة إن نقص منها قرش لم تعد ليرة... قال بج، وسأله بصراحة عما يشغل باله:هل تذكّرتني؟

– وهل كنت أعرفك حتى أتذكرك؟ – جزم أتا – إلياس باختصار.

– تذكَّرْ مقتل شهباز — جري على يد الإخوة قانَقوه في البسلني!

– وهل شهباز — جري ذو الرأس الفارغ هو موضوع حديثك؟.. سأل بنبرة سخرية، وخرج من فمه ما ليس في قلبه: – نال ما يستحقه.

– ومع ذلك فإخوته لا يهدؤون. وبحجة الثأر له هاجمونا العام الماضي. والآن يهددونا بجيش كبير.

– أنا، كما ترى يا نغُر، أقلعتُ عن مثل هذه الأفعال. — قال أتا – إلياس مُبرِزاً اسم بج، – إن لم يكن لك سؤال آخر فلن أتأخر عن رفاقي، وها هم...

– إن كنت ترى أن رأس رمحك قد فُلّ فاركب طريقك. ولكن لا تدع عيني تقع عليك مرة أخرى. ولما انصرف التجار عن البئر قال بج: – ونحن آن لنا أن نركب ولكن أسألكم قبل أن ننطلق: ماذا سنفعل بشأن جمركوي يا رفاقي الطيبين؟

– وهل نترك جمركوي في صحراء أستراخان؟! — سأل قابارد كأنهم يسلبونه أخاه الذي عثر عليه بعد ضياع.

– لن نستطيع أن نفعل هذا يا قبارد؟ – قال دمدي، والتفت إلى قاشرغ، يريد رأيه.

– دون جدال، سنصحبه متى عدنا غداً أو بعد غد.

– صحيح يا قاشرغ، إن كان هذا رأيكم فسنعيده معنا. ولكن دعُونا نسأل جمركوي عما ننوي أن نفعله.– جمع بج نغر أقوال رفاقه، وسأل الغلام الواقف أمامهم بكتفين عريضتين قويتين وقامة مشدودة: – وما رأيك أنت في الموضوع يا جمركوي؟

– العودة إلى قومك نوع من الحظ يا كبير. وأنا عشت إلى الآن على هذا الأمل. ولكني أرى أن اتهامكم بسرقتي لا يليق بكم إن كان هناك مخرج آخر.

– عفارم[1] يا جمركوي، – قال نغر مرتاحاً إلى الشاب، واختتم: – إن كان هذا رأيك أطعناك. ولكن الأفضل أن تعطينا اسم والدك ونسبه.

– والدي من أسرة " أبرج[2]"... — وأضاف خجلاً من مهنة والده: – وهو في القرم... — قيل إنه معاون أحد قادة الجيش.

– وكيف يكون رجل أديغي معوناً لمرزا تتري؟

– يا دمدي، أرِح مطرقتك[3]! — قال قاشرغ الحداد، وأضاف مغمغماً: – إذا كانت بناتنا يصبحن زوجات ملوك وسلاطين وخانات النغوي والقرم فلماذا لا يصبح الأبرج معاون أمير جيش؟ ثم أعاد سؤال داور جمركوي كمن لا يعرف شيئاً: – ماذا قلت لي اسم والدك؟

---

[1] أحسنت بالتركية. المترجم.

[2] سبقت الإشارة إلى معنى أبرج وحجرت. وسنعرف لاحقاً أن أسرة داور لها هذا النسب دون علاقة بتشرد الأب. المترجم.

[3] في الكلام مجاز، وهو أن دمدي يعمل في طرق الحديد معوناً لقاشرغ. واحتجاج قاشرغ على إلحاف معاونه في طرح الأسئلة. المترجم.

– مِرْزَبَج، ولكن لا أعرف ما يناديه به حلفاؤه.
– سأقول لك يا ولدي إن لم يحزّ في نفسك، – قال قاشرغ: ربما كان من قالوا لأجله "البيلسان يزهر وكلٌّ يعود إلى أصله" واحداً من أمثال والدك.
– نعم، صحيح، – وافقه إلن.
– ولماذا يسوؤني؟ وأنا سمعت هذا القول المأثور يقوله خالي بولت في شأن والدي.
– يبدو يا ولدي أنك تتكلم بالسوء على والدك الذي تحمل من دمه. – أرخى قبارد حزام الحصان، ثم شدّه.
– نعم، صحيح، – وافقه إلن.
– سألني زعيم الخير نغر فأطلعتكم على اسم والدي، –لم يتردد أبرج داور في ما سيقول. ولو كنت الآن في حضرة والدي لقلت له ما يستحقه. ولكن هذا لا يعني أني أتبرأ منه.
قرر بج نغر كأنه لم يسمع شيئاً:
– يا إلن، ستبقى هنا مكان جمركوي إلى أن نعود.
– وكيف أبقى وأنا لا أعرف لغة القالمق؟!
– لا حاجة لمن يمتح ماء البئر إلى لغة القالمق.
– كما تريد يا نغر، كما تريد. سيجري عليّ هنا ما جرى على جمركوي. وأنهى كلامه بالمزاح: – ولكن لا يتخيل أحدٌ أنكم جئتم بي من القالمق. مع السلامة، ليحققِ الله نيتنا!
داور — جمركوي يصاحب الفرسان كأنه منهم وليس منهم: وهو فارسٌ دليلٌ لهم. لا يسبقهم بل على يسار قبارد تقريباً. دمدي وقاشرغ في المقدمة. ونغر لا يتكلم. وداور يشعر بالقلق الذي يشعر به حصان إلن الذي يعرف تبدُّل راكبه. سيعتاد كل منهما على الآخر، وسيتفاهمان. ليست هذه مشكلة، ولا لباسه القالمق، بل كلماته التي قالها في شأن والده، والتي ما تزال ترنّ في مسمعيه. برّأ نفسه بنفسه: "لا يُستحسَن أن تقول بحق والدك ما لا يستحق، ولكني لم أتجنّ عليه" وقلتَ يا قبارد "أنت تتكلم بالسوء على والدك" ولكني

أكرر: لم أقل في حقه ما لا يجوز. أنا قد أغفر لوالدي ما فعل بي بطريقة ما، ولكن لا أعرف إن كان من تسمونه "الله" الذي يراه رأي العين سيغفر له..."

– يا جمركوي! — نادى نغر، قفْ إلى جانبي!– وقف أبرج داور متأخراً مسافة رأس حصان عن نغر، أصلح كلامه: تقدَّمْ، وقف على مستوى كتفي. هل بينك وبين التاجر القرم أتا – إلياس معرفة؟ – سأله كمن لا يعرف شيئاً بعد ما مشيا مسافة.

– هذا ليس تاجراً. — أسرع داور بالقول.

– وأنا هذا ما فهمته.– قال بج لمن وراءه: –لم تسمعوا شيئاً.

بدأ جوُّ الصحراء التي تنحدر عنها شمس الظهيرة يتغير شيئاً فشيئاً: يتغير لون الشمس ببطء. والريح الحارة تخالطها بعض البرودة. ومن بين أكوام الحشيش اليابس تبدو حشائش خضراء تسر العين. والخيل التي شعرت بالقالمق التي تأتي منها رائحة المطر ورائحة الحشيش تسرع بَشوشة إذ اقتربت نهاية رحلتها.

اختتم بج نغر موضوع ابن أخت بولتقوه أبرج داور — جمركوي بعد أكثر من ساعة:

– لم تسمح يا جمركوي مهما فعلوا بك أن تغلبك قسوتهم.

– حتى لو كان والدك هو من مدّ يده إلى عينك؟ – لم يُطق قبارد صبراً.

– ليس من مهمتنا تربية جمركوي يا قبارد: افعلْ هذا ولا تفعل ذاك يا جمركوي. ولكن عدم تزْكِه في أرض القالمق أمر محسوم.– أنْطقَ منظر الأرض الملونة بج:

– انظروا؛ أي عالم عجيب نراه؟!

– ستظهر جبال القالمق حالاً يا نغر. والخيام البيضاء المستديرة هي بيوت القالمق. وما تراه في الجبل من خيام متنوعة الألوان، وما تناثر حلها هي بيوت أيوك — خان. ولا يُسمَح لمن لا عمل له بدخول المكان.

– هل نحن من لا مهمة لنا؟! — شعر دمدي بإهانة غير متوقَّعة.

– أما نصحوك ألّا تتسرع في طرق سندانك؟! — لامه قاشرغ ونصحه.

– أنتما يا قبارد وجمركوي اِسبقانا، وأخبرا الخان أيوك أننا قادمون من القبرتاي موفدين من قبل الأمير حتخشقوه لمقابلة صهرنا الخان.

أبلغ أبرج داور الفرسان القالمق بمهمة الفرسان القادمين من القبرتاي فسمحوا لهم بالمرور دون اعتراض. قادهم الفارسان المضيفان إلى خيمة ضيافة كبيرةٍ جدرانُها مزينة بالبسط المزخرفة. وتدلُّك اللُّحُف والفُرُش الملفوفة على مكان نومك. وعلى الطاولات المنخفضة دلوان فضيان غير كبيرين للماء. وعُلِّقت مغرفة يتناسب لونها مع الدلوين. وعليهما مناديل للتنشيف.

وبعد الاغتسال بالإبريق والطست النحاسيين، جيء بالعشاء. ولما كان المسافرون الذين قطعوا هذه المسافة كلها متعبين فقد أوَوا إلى الفراش دون أن يتناولوا الكثير.

– أتساءل: أليس لهؤلاء مراحيض؟.. – قال قاشرغ متأففاً.

– أليسوا بشراً؟.. ما وراء الباب القريب منك هو مرحاضهم.

– هذا حسنٌ. لا أعرف. ربما لأني أكثرتُ من لبنهم المحمَّض.

سُمعت الضحكات الخفيفة لقبارد وجمركوي النائمين على المدخل. فقال قبارد يموّه على الصوت:

– إن سمحتم لي يا نغر فلي دعوى على مضيفينا.

– وما هي؟

– أليس لأصهارنا مضافة غيرُ هذا ينام فيه كبارنا وصغارنا معاً؟

– اسكتْ! وافرحوا إن نجوتم من المطر والثلج. وادعُوا إلى الله أن تتحقق لنا المهمة التي أناطها بنا كبارنا. ولْتصبحوا على خير! – قال نغر لنفسه: "ما يحدث لنا أعجبُ من العجيب..." – أيعرف أميرنا حتخشقوه يا ترى كيف تعيش ابنتنا في القالمق إلى شرقنا؟ أما كان أخبرنا لو كان يعرف؟.. سنتحدث عن ابنتنا متى اجتمعنا بالخان أيوك. ولكننا لن نسأل عن المكان الذي تعيش فيه. من البديهي أن يحدث لك مثل هذا إن تزوجت من رجل له عدة زوجات. ابتسم نغر حين دخل قسي أفندي في خواطره: – القرآن الذي يتأبطه دائماً يبيح للرجل أربع زوجات... لا أفهم كيف تعيش مع أربع زوجات ونحن نتعايش مع واحدة بمشقة... يا ربِّ كيف سيكون غدنا؟.."

بعد الفطور دخل رجلان مسلحان ممتلئا الجسم، وترجم داور جمركوي ما قاله

كبيرهما الأشد ضخامةً وحمرةَ وجهٍ:
– الخان الكبير أيوك يدعوكم إليه عندما تتوسط الشمس السماء.
قال بج حين خرج موفدا الخان:
– لا يزال أمامنا وقتٌ كافٍ. تفقَّدوا ملابسكم وهندامكم!
ولم يملك قاشرغ إلا أن يُفصح عما يشغل باله، فقال وهو يمسِّد قبعته الصوفية:
– يا ربي أتكون خيلنا سُقيت؟
– وكيف لا يسقونها! — مضيفونا قدموا كل خدمة لها ونحن ما نزال نياماً. — وأكَّد بعد سكتة قصيرة: – ونعالها وظهور حوافرها جاهزة تماماً.
اختتم الحداد قاشرغ:
– إذا كانت خيولنا جاهزة، وأنتم جاهزين، فأنا أيضاً جاهز.
قال جمركوي:
– ليس مقرّ الخان بعيداً.
فعلّق دمدي:
– إذا كان قريباً أمكننا السير على أقدامنا.
– لا! — حسم بج نغر، – سنصل إلى باب مقر الخان في كوكبة من الفرسان.
وصل الموفدون الخمسة في الوقت المحدد إلى باب الخيمة الجلدية البيضاء الكبيرة للخان فاستقبلهم رجال مسلحون. وأمسكوا بأعنّة خيلهم وساعدوهم على الترجُّل. وعبروا بهم بين صفين من الجنود يحملون الخناجر والسيوف والرماح والقِسِيّ، إلى غرفة العرش. دخل الحراس الأربعة حانين الظهورَ إلى الخان، وخرجوا كذلك، ثم أشاروا للضيوف أن يتبعوهم.
وقف الضيوف حسب ترتيب أعمارهم غير قريب ولا بعيد من الخان، وحيَّوه بإيماءة خفيفة. ثم قال نغر:
– وطئنا أرضكم يا خان الخانات بالخير. حقق الله أمنياتكم،ومدَّ الله في عمركم أضعاف ما عشتم في صحة جيدة وأعداؤك جبناء وحلفاؤك أكثرُ منهم! ولتكن شيخوختك خيراً على قومك القالمق! نحن، موفدي أمير القبرتاي الوالي الكبير حتخشقوه.، نبلغكم تحيته الودية، ونحمل منه إليكم هذا الحزام الجلدي الكبير

تعبيراً عن رغبته في تقوية روابط قرابتنا، وهذا الخنجر وهذا السيف.
– حياكم الله، ولْتُخصب النوايا السلمية لبوذا إلهنا! تفضلوا، بيتنا بيتكم. ولْتتطورْ علاقاتنا السلمية. وليعش قومانا والشمس تدفئنا، والريح خفيفة علينا! وبلغوا تحياتي أيضاً إلى أميركم الكبير حتخشقوه الذي شرّفني بهذه الهدايا القيّمة. أعرف أنكم تلاقون صعوبات مع القرم، كان أخبرني بها بيكوف – شاركاس. لا شيء بيدي أساعد به أقربائي الشراكسة. ولستُ وحدي بل روسيا كلها. ولما كنت إلى جانب روسيا في الاتفاق الذي جرى قبل أعوام بين القيصر بطرس الأول والسلطان أحمد الثالث فقد غدوت كصقر بلا جناحين.
قال بج نغر بعدما تفقد رفاقه بنظرة سريعة:
– يبدو أيها الخان أنك استبقت بالجواب موضوع سفارتنا.
– هل هذا رأيك؟ – نظر إليه الخان وهو يزُمّ عينيه الضيقتين نظرة مرائية. ثم أضاف باسماً: – نعم يا أقربائي الأعزاء لأني أعرف موقفكم... وهل يخفى شيء في أيامنا؟!.
– أما وقد قلت لنا هذا أيها الخان، وأصبح العالم بلا أسرار؛ فليبحث كلٌّ عن طريقة يحافظ بها على نفسه.
أجاب الخان بكل لطف كاظماً غيظه مما قال بج:
– لا، لا يا أقربائي! لا يمكن أن تعيش في عالم اليوم وحيداً، حتى لو قررت هذا فلن يسمحوا لك. – ولما تعثّر الخان لا يستطيع إكمال الكلام، غيّر موضوع الكلام رغم أنه يعرف السؤال: – لماذا لا يجلس هذان من أعضاء وفدكم؟
أجاب أبرج داور جمركوي باسمه وباسم داور:
– نحن لا نجلس في حضرة الأكابر منا سناً يا خان.
– وما موقعك أنت بينهم؟..– ابتسم أيوك خان، واستدرك: – نعم، شرحوا لي قبل أن يصحبوكم إليّ. إن التقيت بأبناء قومك فاعتبر نفسك عدتَ حراً. وقد أُبلِغ آسروك بالموضوع.
– حياك الله أيها الخان! – هتف دمدي وقاشرغ معاً.
– وهل يستحق إعادة الولد الأسير إلى ذويه شكراً؟ – أنت ولد طيب،

تعلمت لغتنا. ثم عبّر بشكل خفيّ عما في قلبه: – لو عرفت أبايُ أختكم بمجيئكم لجاءت إليكم ولو على الأقدام من الطرف الآخر للقالمق... إن أردتم، ولم يصعب عليكم سفر ثلاثة أيام، أرسلتكم إليها.

– كنا نود مقابلة ابنتنا... — قال بج وقد تفهّم رياء الخان، واختتم: – لا يزال أمامنا طريق طويل، فالأفضل أن نودع بعضنا وننطلق.

– ماذا يقول أنسبائي الأديغة؟ – سأل الخان نغر برياء ظاهر، وشرح له: – مجيء الضيف على رغبته، وانصرافه على رغبة المضيف.

– ولكن أمامنا مهمات كثيرة أيها الخان الكبير لأن الأديغة في وضع حرج.

– أنتم ضيوف أعزاء عليّ وإن كنتم موفدين... — هيا إلى الغداء قبل أن يبرد، ونكمل حديثنا معه. — وفيما هم خارجون من مقرّ الخان باتجاه مطعمه لفت الخان أيوك نظر[1] ضيوفه إلى المرتفع الجنوبي: أُرسل هذه الجمال الخمسة

---

[1] قضى الخان أيوك طفولته في هنغاريا. وقد سُمّي حين ولد بـ" أيوش" ولكن اسمه بقي في التاريخ " أيوك".

في عام 1654 جاء أيوك بصحبة جده دايجن إلى ضفة نهر إيدل (الفولغا). ولما توفي والده مونجاك عام 1672 استلم الحكم بمعاونة أعمامه. جمع أيوك القالمق حوله وأنشأ عدداً كبيراً من القرى لهم. ولما وطّد حكمه غزا النغوي المستقرين عند نهر بشزه بجيش عظيم، ودمّر ملكهم. وحارب الكازاخ وتركيا والكاراكالباك عاقداً في الوقت نفسه صلحاً مع القيصر. وفرض عليهم الإتاوة.

ووطد القيصر حكمه في أسفل الفولغا مستفيداً من الخان أيوك. وبمساعدة جيش القالمق دمّر أستراخان (1705) والبولافين (1707 — 1709) وشارك في حرب الشمال (1700 — 1721) متحالفاً مع القيصر بطرس الأول. ودمر خلال الحرب الروسية التركية،ضمن الجيش الذي يقوده الشركسي شركاسك قازبولات، جيش إبراهيم باشا التركي عند مدينة جيرغان.

وإلى جانب تحالفه مع روسيا حقق بعض أهدافه الشخصية: كان يصالح من يريد، ويحارب من يريد. ولكنه أخلص في سنواته الأخيرة للقيصر بطرس الأول. وقد أهدى القيصرُ الخانَ أيوك ذا الثمانين عاماً سيفاً ذهبياً تقديراً لإخلاصه.

المخصصة للأحمال إلى أميركم حتخشقوه. وإذا كنت عاجزاً عن مساعدتكم بالجيش فأنا أرسل إليكم أسلحة متنوعة: سيوف وخناجر وقسيّ ورماح، دون مبالاة بأي اعتراض.

الفصل العاشر

ترجّل فارسان على باب بولتقوه بولت وقت انحدار الشمس الربيعية، ودخلا إلى المضافة الواسعة غير البعيدة.

وبعدما انتهى الضيفان من الاغتسال والاستراحة من عناء الطريق دخل إليهما بولت بقامته المديدة ووجهه البشوش، ورحب بالضيفين اللذين نهضا له كأنه يعرفهما طوال عمره:

– أهلاً بكما، تفضلا اِجلسا!

– نتفضل بالخير إن شاء الله. — قال مينشاقه، – لم نستطع حين دخلنا أرض الجمكوي أن نتجاوز قرية الأمير الذي يذكره الجميع بالخير. رفيقي هذا الأصغر مني سناً هو من أسرة النبلاء جرجه، واسمه ماريم، وأنا إن كنت سمعتَ من أسرة النبلاء أشبه، واسمي مينشاقه.

– واي، واي، وكيف لا أسمع باسم أسرة أشبه يا مينشاق العزيز! — قال بولتقوه على طريقة القبرتاي[1] — اسم أسرتك متداول حتى حدود القرم. — ثم نظر إلى رفيق النبيل الذي يمتدحه، وقال: – الإخوة جرجه مشهورون.

– تسرني طريقة حديثك بالقبرتاي، لم تنسها.

– لا يزال أصلي الذي جئنا منه في دمي.

وسجل مؤرخو حياته أكثر من مرة إجباره النساء الجميلات على مضاجعته، واستنكارهم هذا السلوك منه: حين ضبطه ابنه الأكبر جاكدورجاب يضاجع امرأته حاول الابن قتل أبيه. فلم تقبل زوجته الشركسية أباي... ومواقف أخرى مماثلة... وتوفي أيوك — خان عام 1722. المؤلف.

[1] يشير إلى تعبير واي واي التي تعني في لهجة القبرتاي الإكرام والتقدير. المترجم.

استأذن جرجه ماريم المتعجب من حديث الكبيرين مينشاقه بعينه،، وأجاب المضيف:

– أنا لا مآثر مهمة عندي أيها الأمير بالقياس إلى أخي الأكبر تاوقان، يا من جعل الله يومه مئة. إلا أن أقول إني معتدٌّ بتشريف مينشاقه لي باصطحابي.

قال المضيف لماريم الذي يأبى الجلوس في حضرة مَن هم أكبر منه سناً:

– اجلس، لا داعي أن تقف.

– الجلوس في حضرة الأسنَّين مني...

قاطع بولت كلام ماريم:

– الضيف يا أخي الصغير متى سمح له المضيف بالجلوس لن يغتابه فيما بعد. اجلس كما تقول شِرعة الأديغة. — ما الأخبار يا مينشاقه في نواحيكم بإذن الله؟

– أكذب عليك يا محترم إن قلتُ إن السلام يسود القبرتاي.

– ومن أين تأتي الآن بالسلام! كل عالم الأديغة هكذا. عِرقنا لا يقبل أن يقوده أحد. نعراتنا تمزق القلب.

– أوافقك يا محترم على هذا، لولا تدخل خانية القرم في شؤوننا...

قال بولتقوه باسماً، مؤكداً أنه لا ينسى هروب منغل — جري الخان من القبرتاي، ورفْض مينشاقه أن يلوث أحد من التتر شرف زوجته:

– وهل خانية القرم فحسبُ مَن تحاربنا؟.. بل روسيا وتركيا والنغوي هائجون في إقليم بشزه... ولا أظن أنهم يُقلقونكم بمقدار ما نعاني نحن؛إلا ما قد يصدر من البالقر — الأتراك سكان الجبال... — أتى بولتقوه فجأة على اسم البالقر في الحديث، ثم أنهى كمن يحدِّث نفسه: – ربما لقّنتموهم درساً وأدبتموهم.

– صحيح يا أمير، أعرف أن الدول التي ذكرتها، ومن خلّفهم جنكيز خان من النغوي – لا أشملُهم جميعهم – لا يُكنّون لنا الخير. ولكن لا أستطيع أن أقول هذا عن البالقر التاولو ذوي الأصل التركي، سكان جبالنا. هؤلاء وإن كانوا يعيشون في الجبال مخلصين لإلههم تيغري فليسوا أناساً سيئين. كادحون وصيادون ورعاة لسكان الجبال. ونقاسمهم مراعي الربيع.

– سامحني يا مينشاقه الكبير، – لم يُطق ماريم الذي ظل إلى الآن ساكتاً يصغي إلى الكبيرين، – إن كنت تقصد المراعي الكثيرة التي أعطاها قبل سنوات الأمير حتخشقوه إلى ورسبي زعيم البالقر — المالقر، فما كنت أسمح له أن يفعل هذا — هؤلاء لا يكتفون مهما قدّمت لهم.

– إذا كان تعداد قومك قليلاً يا ماريم، لا تعتب على البالقر، فسيظل كثيرون يطالبونك.

– إذا كانت قبعتك صغيرة فلن تكبر إن ادّعيتَ أنها كبيرة.

– أليس البالقر مسلمين؟ – سأل بولتقوه محاولاً إنهاء الجدال الذي نشب بين الضيفين.

– وهؤلاء يا محترم، – قال مينشاقه الذي عاد إليه وعيُه، – مثلُنا لا ينسون مع إسلامهم آلهتهم الكثيرين.

– ولكن الوضع عندنا كالتالي أيها الضيف،– قال بولتقوه، وأنهى بعد وقفة قصيرة، – إذا كان آل شبق أمراء الجانيه وأمراء القبرتاي آل شرجس اعتنقوا المسيحية فنحن سنُخلص للإسلام. — ثم أضاف بولتقوه في سرّه: "كنا سنخلص للديانتين لو عرفنا ما ستجلبان لنا من الخير".

وفيما المضيف وضيفاه يتحدثون، وجاء عدد من أفراد الأسرة كما تقضي العادات للترحيب بالضيوف، جيء بالموائد المستعجلة من الباستا واللحم المقدد المسخن واللبن والجبن وعصير الإجاص. غير أن الضيفين الأديغة اللذين يعرفان أن مائدة أخرى ستأتي بعد قليل، لم يهجما على الطعام. ومدّ بولتقوه يده إلى الطعام على سبيل المجاملة، مُظهِراً أنه تغدى قبل قليل:

قال بولتقوه الذي يريد أن يأكل الضيفان بلا استحياء، دون موضوع معين، وهو يأكل متمهلاً:

– هذه هي أحوال الأديغة ومشكلاتهم. تختلف عاداتنا وآراؤنا في العلاقات بيننا.

– ما الذي يدعوك إلى هذا الكلام يا أمير؟ – رفع مينشاقه رأسه الضخم.

– لأن عندنا نحن أمثالَ البالقر الجبليين الذين عندكم، وهم الأبزاخ.

– أليس الأبزاخ أديغة؟ – استغرب ماريم ما سمع.
– وكيف لا يكون الأبزاخ العنيدون أديغة؟!. أقول: كل الجبليين، أينما كانوا، وأيَّ قوم كانوا، متشابهون. وليسوا متحمسين للإسلام مثل البجدوغ أيضاً. نعوِّدهم عليه بكل مشقة. يقال: هؤلاء يكفي أن يلبّوا الأذان يوم الجمعة إن أذّنت لهم يوم الاثنين.
– الأديغي يبقى أديغياً أينما كان... — قال مينشاقه، وشهد عليه: – وفي "قبرتاينا الكبرى" يقال الكلام نفسه.
– وهل يقبل منكم الأمير الوالي حتخشقوه هذا الكلام؟
ألقى مينشاقه نظرة مرائية إلى ماريم، وأجاب:
– وعندنا أفنديٌّ حاجٌّ يدعى قَسَي يعارض هذا الكلام أكثر من أميرنا.
وفي الحال سُمع صوت الأذان، فتبادل الثلاثة الذين كان لكل منهم رأيٌ في الإسلام غيرُ رأي الآخرَين النظرات.
– هذا هو السبب في قول الأديغة: من تأتِ على ذكره تجدْه على العتبة. وما كاد يقول:سترون أفندينا يعرّج علينا في طريقه إلى الجامع قبل أن نجد الوقت للوضوء حتى ظهر الأفندي الضخم لا يتسع له الباب. ووراءه تابعٌ أصغر منه مرتين، لا يبين من ورائه.
– سلام عليكم يا أمَّة الله الذي خلق الكون، أيها الأديغة المسلمون. أما تزالون قاعدين وقد حانت صلاة العصر؟! — قال الشيخ للضيوف الذين دعتهم عادات الأديغة إلى النهوض للشيخ الذي نسي الترحيب بهم. تعالوا إلى الجامع الذي بناه لنا الأمير بولتقوه بعلم الله العلي ورضاه من ماله الخاص. وعند الباب أكمل: – أنا اسمي باتر، ينادونني في كل أرجاء الجمكوي: باتر أفندي. حقاً كدت أخطئ: ما أخبار أفندي باخسان الحاج قسي النحيف الضئيل؟ كنا معاً قبل أعوام في الحج. ثم خرج باتر أفندي من الغرفة دون انتظار جواب سؤاله.
– هذا الرجل يُنسيك الله ولو كان في قلبك! — قال ماريم في إثر الرجل الضخم الذي خرج تواً من المضافة.
– يا ماريم!.. — نفِد صبْرُ مينشاقه.

– لم تخطئ يا ضيف، – أيد بولت كلام ضيفه، ثم أضاف: – وفيما نحن نقول مثلك يتحكم الرجل فينا. — تعالوا نتوضأ، وننضم إلى المصلين.
– أفندينا قسي، بالقياس إلى أفنديكم، تحمله على رأسك لولا أنه كثير الكلام.
– وهل يقبل أميرنا حتخشقوه أن يكون غير هذا؟! — قال مينشاقه مؤيداً صاحبه، ولكن متوجهاً إلى المضيف.
– نعم، وصلتْنا أخبار أفنديكم. ولكن أفندينا لا يكاد يفهم من الدين إلا لقب الأفندي. يُسكت من ينظر إليه بفضل جرمه الهائل وطلاوة لسانه، ويجبره أن يقول: "أنا مسلم".
– ومثل هذا ممكن يا أمير، – قال مينشاقه كمن وافق. واختتم: – المتكلمون المفوّهون يُنسونك أذنيك فتستمع إليهم بفمك. وعلى كل حال سننفذ للأفندي رغبته لأن الضيف سهل الانقياد ولو لم نكن مخلصين تماماً لإسلامنا... — اختتم مينشاقه بينه وبين نفسه استنتاجَه غير الأكيد: " العلاقة بين الأمير الشهير والأفندي الوقح ليست صافية".
ليس الجامعُ غيرُ الكبير الذي بناه الأمير بسقفٍ من القصب بعيداً عن داره. يقع في الأرض الخالية من الحي الآخر، متباهياً بمنارته العالية. وهو مسوَّر بعيدان مضفورة على نحوٍ حَسَن. ومقابل الجامع مربط خيل فارغ. والميضأتان مقابل الباب فارغتان.
– أظننا تأخرنا، – قال مينشاقه الذي كان يخلع طماقه، واستدرك كمن يسأل نفسه: – وهل يشرعون في الصلاة دون انتظار الأمير؟!
– لا تمييز في الصلاة بين أمير ونبيل وفلاح، ها هم قد اجتمعوا للتوّ — ما إن قال بولتقوه حتى نادى باتر أفندي الذي سمع كلامه:
– تعال يا أمير، وقِفْ مع ضيفيك في الصف الأول ورائي ولو اجتمع المصلون. اليوم لن ألقي موعظة لأن الحضور قليلون. سأدعو إلى الله أن يقبل صلاتكم؛ قولوا: آمين!
لم يكن أشبه مينشاقه يعرف سبب ما رأى في الجامع وما سمع: لم يكن نصف المصلين الثلاثين من الأديغة، بل من النغوي. كانوا جميعهم رجالاً متيني القوام،

متميزين من المصلين الجمكوي. وبينهم بضعة رجال يتكلمون بالأديغية بحيث يُنسونك لباسهم ووجوههم الممتلئة. والأعجب من كل هذا أن باتر أفندي يحدثهم بلغة النغوي.

رُفعت موائد العشاء من الغرفة، وتفرق الضيوف من الجوار وغيرهم.، وبقي الأمير مع ضيفيه، فسأل مينشاقه الأميرَ عما يشغل باله:

– هل في قريتك يا أمير كثير من النغوي؟

– ليس أكثر من أسرتين أو ثلاثة من بين ثلاثمئة. ما الأمر يا ضيفنا؟ نعم، صحيح، لاحظتَ في الجامع أناساً غرباء. هؤلاء، كما سمعت في مضافة باتر أفندي، من النغوي الذين يتجهون إلى أبناء عرقهم النازلين في أرض البسلني.

– ربما يأتون من القرم أو من البجدوغ... — دفع القلق ماريم إلى القول.

– وما علاقة البجدوغ بهم؟– سأل مينشاقه.

– حسب معلوماتي القليلة، فهم من أسرة سلطان خان[1] الذين طُرِدوا من القرم فاستقروا بين البجدوغ. والأخبرُ بهم هو باتر أفندي الذي سيزورنا غداً فاسألْه دون أن أتدخل أنا.

– هل بينكما مشكلة؟

– لن أستطيع القول إن الأفندي من النوع الذي يقال فيه: سواء لم يكن صاحبك أم عاديته. ولكن باتر أفندي، ضحك الأمير، لماذا أخفي ما في أرض الجمكوي من أسرار والتي هي معروفة لدى الجميع، بمن فيهم أنتما، صادقَ صهرَنا السابق أبرج الذي سكن في القرم، يحرض عليَّ الغرباء. ولا أقبل منه أنه جعل أرض الجمكوي مزاراً للنغوي — القنزال، بالإضافة إلى أن هؤلاء سيتجهون غزاة إلى القبرتاي يوماً ما. وأشد ما يحز في نفسي أنه يتشفى بالأديغة بمساندة أحد قادة جيش خان القرم.

سأل ماريم مستغرباً ما سمع:

– أليس أفنديكم من قرية بولت — حابله يا أمير؟

[1] هو جدُّ خان جري الشهير الذي كتب مؤلف هذا الكتاب رواية مطولة باسمه. المترجم.

– أرسلوه إلينا من القرم في العام قبل الماضي الذي بنيت فيه الجامع.
– وهل أنتم تابعون للقرم فيرسلَ إليكم؟
– هذا أمرٌ يصعب شرحه: نحن مرتبطون بهم على ما يقال في تركيا. ونحن نحتج على هذا ولكن العرق الكبير الذي يقوم عليه السلطان يغلب كافة مطالب الأعراق الصغيرة المتنافرة... ثم ألا تعرفون حالنا، نحن الأديغة: الأرض التي لم ندخل إليها جنة، – وبعد سكتة قصيرة ابتسم بولتقوه واختتم: كما يقولون: "في رأس القرمي حرير"، فمتى سمع الأديغة باسم القرم أمكنك أن تطلب منهم أي شيء فيحققونه.
ساد الغرفة صمت لا يطيقه القلب. وتبادل الضيفان والمضيف النظرات. والأسلحة المعلقة على البساط الجداري صماء. والربابة والجالايكا صامتتان.
صاح أشبه مينشاقه الذي عاد إليه وعيه من قلبه:
– أيها الأمير، يا أحدَ رجالات الجمكوي، لا داعي لليأس. نحن الأديغة عشنا منذ أقدم الأزمان. وسنعيش! هيا يا ماريم، هات أغنيتنا!
– حالاً يا كبير، حالاً، – بدأ ماريم بكل سرور:
إي جي، رددوا يا زعماء الخير، أرضُ الأديغة أملُنا المنير.
إي جي، رددوا يا أصدقائنا الشجعان، أرضُنا إلينا مثلُ أوشحه مافه.
أرض الأديغة وجه الأديغة أوشحه مافه ينيرنا.
سنحافظ عليها رمزاً للرجولة وما ينيره هو قلبنا الأديغي.
ما فيه روحنا أرضٌ أديغية أرض الآخرين مقدار إصبع.
ومن أرضِنا أرضِ الأديغة لن نعطي للعدو قدْرَ إصبع.
بلادنا قريبتنا أغلى من القلب. ليحيَ عرق الأديغة إلى الأبد.
سنحيي عرق الأديغة، عرق الأديغة سيحيا إلى الأبد.
حملت أغنيةُ الأملِ الخدمَ على النظر من خلل الباب. وتجمعت النساء أمام أبواب الغرف الأخرى. ولما دخلت قُتاسُ مطلَّقةُ أبرج مَرْزَبَج، الأختُ الكبرى للأمير بولتقوه، وبيدها ابنتها الصغيرة، ردد الأمير الأغنية مع الخدم بحرية وراحة. فارق الأمير الذي يرتدي خُفّاً جلدياً ناعماً النافذة، واقترب من الجدار. عصر

الألم قلبه وشحب لونه حين سمع أخته تردد باكية مع المرددين. ولم يحدث أن فكر قبل لقائه بالضيفين القبرتاي بأن علينا أن نعيش. بل كانت أفكاره تتغير تبعاً لما يجري في الحياة. وكانت هذه موجّهَ سلوكِه وتصرفاته. كان الأمير يتفاهم مع أصدقائه النغوي، ويشفق عليهم على مبدأ: " من لا يبحث عن الأفضل؟ ومن لا يشتهي لقومه حياة الحرية والأمان؟! " وكانت هذه الأسئلة تحرمه الراحة. كان الأمير يريد طرح هذه الأسئلة جانباً لأنها تؤلم قلبه، وتبعث الرعب فيه. فيواسي نفسه بأن "طريق كل واحد في الحياة بيّن، كل عرق في الوجود لابد أن له نصيباً مستقلاً في الحياة".

انقطع نفَسُ الأمير بولتقوه من أغنية الأمل التي غناها الضيفان، وردد معهما الخدم وأخته. وتشتَّتِ الأفكار التي لم يستطع الإمساك بطرفها، ونبّهت وعيه إلى أنه حيٌّ وأنه إنسان. كيف عاش إلى الآن لا يشعر بآلام إخوته ومأساتهم، راضياً بما يجري عليهم فلا يملك أي شعور نحوهم؟ ما الذي كان أرضاه إلى هذا الحد؟ حقاً إن التتار والنغوي أصحابه، وأنه كمن غفا وهو يسمع الغناء غيرَ مهموم بآلام الغرباء، وقال نفسه مراراً غير راض عن سلوك الأديغة: "هم المسؤولون عما يجري لهم، وهم يستحقون كل ما يجري لهم." مهلاً يا بولت، مهلاً، – قال لنفسه وقد تملكته الوساوس: "وأنت؟ هل تتصرف على نحو صحيح؟ وهل أنت صادق في سلوكك؟ وكيف تفهم الصدق والاستقامة؟ أيكون واقعاً في فخِّ أحدهم؟ هل أنت واثق من أنهم لم ينصبوا لك فخاً؟"

تراجع بولتقوه بضع خطوات، فوضع رجله في الغرفة، ونهض الضيفان، وقد امتلآ فخراً وثقة لأن الأغنية الحماسية أعجبت الجميع وإن لم يعرفا حقيقة ما اعتمل في قلب الأمير.

قال مينشاقه للخدم والنساء الواقفين عند الباب:

– حياكم الله يا إخوتي وأخواتي الأعزاء. احفظوا هذه الأغنية في قلوبكم، هذه تحمي أُسَركم في أوقات الخوف والجزع. –ثم توجه إلى بولتقوه: – نحن سنسافر صباحاً باكراً، وتعرف أن أمامنا طريقاً طويلاً.

قال بولتقوه وهو يمسح دموعه:

– يا أختي قُتاس، جهّزي لضيوفنا زاد السفر!

الفصل الحادي عشر

احتفظ الأمير حتخشقوه في ذاكرته بموعد عرس أسرة ورسبي البالقر يوم الجمعة: أرسل للأسرة حوالي خمسين خروفاً تصل قبل ظهيرة يوم العرس ببضع ساعات. وهدية الأمير الذي يرافقه الأفندي قسي وقزنقوه جباغ وبج نغر على صهوة حصان يجره وراءه الفلاح دمدي، وإلى جانبه الفلاح قاشرغ. ووراءهم العربة التي تحمل السيدة زوجة الأمير مع مرافقتين، تحمل هدية العروس من حزام وسوار فضيين. ووراء الوفد الأديغي وأمامهم عدد من الحراس. وقبل وصولهم إلى القرية استقبلهم عدد من الفرسان، واصطحبوهم مع مظاهر الاحترام إلى الدار. ثم طلبوا إلى الأمير، بعد نخب من الباخسمه، أن يرقص مع فتاة جميلة من البالقر على أنغام الموسيقى لتكون رقصة الترحيب. ثم إلى مكان الصدارة في غرفة الأمير.

وأجلسوا زوجة الأمير مع كل الاحترام إلى يمين سيدة البالقر. ولما جاؤوها بالعروس التي ترتدي ثوباً من الحرير الرقيق وضعت يدها برفق على كتفها ودعت لها بكلمات رقيقة، وألبستها بيدها حزام الفضة، والخاتم الفضي في يدها اليسرى. ورفعت النقاب قليلاً وابتسمت لها.

الجو الربيعي جميل، والسماء عالية، والبساط الأرضي الأخضر يُريح العيون، ويبعث الدفء في القلوب. وأشجار الفواكه التي برعمت تُلوِّن المنظر بالأبيض المشرَب بالحمرة. والريح البيضاء الكسول تذرو ما يتساقط من تلك الأشجار. والطيور تتنافس على جودة الأصوات الألحان.

اليوم الربيعي الجميل هو يوم أسرة ورسبي. ساحة العرس مقسومة أربعة أقسام. الرجال الأكابر سناً يجلسون في الجناح المسقوف خارج الدار. وفي غرفة العروس النساء الضيفات، وفي السقيفة المقابلة لهن تجلس النساء المتقدمات في السن من القرية بحيث لا يراهن الرجال، ومعهن بناتهن وكنائنهن اللواتي يَخْصُصْنهن بأفضل الطعام. ومقابل هذه التجمعات الثلاثة ساحةُ الرقص يتبادل فيها

الشباب والبنات النظرات، يتدفؤون على عبارات الغزل.
يتصدر أزرتُ صاحب العرس والأميرُ حتخشقوه مائدةَ الرجال المسنين. وإلى جانبيهما الأفنديان سويونج وقسي. وأدنى منهما الأمير الأوسيتي شاكيمانت القادم من ديغور، وأبناء بيلارقوه القادمون من شَجَم. وأحفادُ أحفادِ أنرقوه القادمون من الأبزاخ. وفي وسط المائدة خليط من نبلاء الأديغة والبالقر. وعلى طرفها عدد من أصحاب العرس والفلاحين.
اللحم المسلوق الذي لا يزال يتصاعد منه البخار، واللحم المشوي على الجمر. وأرغفة الخير الرقيق المستدير، والفاصولياء المهروسة. والباخسمه البلقارية وفيرة.
العرس في ذروته: الربابة بأعلى صوتها، والعازفون متورّدو الوجوه. وضارب الطبل لا يسمع صوته ولا يحس بوجع أصابعه.
– أيتها الجماعة التي أدعو الله لها أن يجعل عرس آل ورسبي عرس خير، ويمنحنا كلينا كل خير! أبرج مرزبك صهر الأمير حتخشقوه، زعيم وفد الجمكوي، جاءنا محملاً بالهدايا فالعرس بكامله يتوسل أن يرقص بكل عزيمة. هيا يا ضيف؛ أرِ أخمصي قدميك للمحتفلين. وسترقص معك أجمل فتياتنا كعصفور أبيض رشيق. هيا يا شباب إلى التصفيق!
سمع بج نغر اسم الضيف فتساءل عن سرِّ قدوم هذا الرجل إلى هنا، ونظر حيث يجلس رفيقاه دمدي وقاشرغ وقد ارتسمت في خياله صورة الشاب جمركوي الذي جاؤوا به من القبرتاي إلى الجمكوي. ولما رأى قبارد وإلن اللذين تركا المائدة خلسة، وتوجها بأنظارهما نحو الراقصين يستطلعان القادم، ورأى زبنه حسن استقبلهما، هدأ قلبه عن ذي قبل:
– من هذا الذي بالغوا في الترحيب به بوجود أميرنا الكبير؟ نظر قسي أفندي إلى قزنقوه جباغ، مُسمعاً الأمير الوالي.
– لا بأس بالترحيب بأي ضيف، – ابتسم جباغ، يحيّون ضيفهم على مبدأ كلام الشراكسة: "لا تذهب ضيفاً إلى حيث يعرفونك".
– وهذا يا جباغ أحد عباد الله، صادق ومستقيم، – مسح قسي أفندي طرفي فمه بالمنديل الأبيض، ونظر إلى المضيف مغيراً حديثه الذي قاله بالأديغية: –

والله يا أزرت، يا زعيم الخير، وأنت يا من ينفذ أوامر الله الأفندي سويونج إن وافقتماني فأنا لا أرى من اللائق وجود هذا الشراب على مائدة المسلمين يُفسد عقول الشباب النظيفة. وبالقياس إليه فإن سواقيَ جبلنا التي بعثها الله إلينا ماءُ زمزم.

– ما تقوله صحيح يا قسي أفندي. وهل في الدنيا مثل ماء الله زمزم؟ – قال الأفندي سويونج، وأكمل التهام قطعة اللحم.

– وماء العسل يا أفندي؟ – قال دمدي كمن يسلبونه الكأس.

– إذا لم يبلغ بك العطش النهاية يا دمدي، يا من رعاه الله بعطفه،– أنهي قسي الذي لا يقبل أي شراب، بدلاً من أفندي البالقر.– فلا تذق شراب العسل أيضاً. وهذا نوع من المسكرات التي تُفسد الرأس. أليس صحيحاً يا أميرنا الوالي المبارك؟

ما كان يفكر فيه الأمير هو الضيف الذي جاء إلى العرس ورحبوا به كل هذا الترحيب، وراقَصَتْه فتاتُهم ولم يختلط بالكبار، وليس مسألةَ تحريم الباخسمه التي طرحها الأفندي قسي. ومع ذلك لم ينس ما سيجيب به، مُفهماً مضيفه بنظرة عينٍ جوابَه:

– إن كان هذا رأيكما فليس لنا نحن، أزرت وأنا، إلا أن نوافقكما.

– هل سمعتم يا شباب ما يقول لكم أمراؤنا المسنون؟ حرام أن تتعلقوا بالمشروبات التي يغلي لها الدماغ. لن يقبل منكم الله الذي خلقكم، وسيغلق أمامكم باب جنته. المدمنون على هذا الشراب سيُسقطهم الله من سراطه الذي بثُخن الشعرة إلى نار جهنم.

– وإن قلنا هكذا يا أفندي، – تظاهر الأمير بإصلاح كلامه، – فأسلافنا النارتيون كانوا مغرمين بشراب الدخن وماء العسل، وكانت موائدهم مثل مائدة يومنا المباركة. فما العمل؟ وما الحلّ؟

– كل ما يجري بأمر الله له حلٌّ. — شرع الأفندي، ولكنه رأى العيون تنظر إليه شزراً فغيّر على عادته: –وهذا صحيح يا أميرنا الكبير.كانت شرابات خير. ولكني أقول: لا يجوز أن نقيس أنفسنا إليهم؛ أليس كذلك يا جباغ؟

– إذا كنا قادرين على مقاومة ما وجدنا آباءنا عليه فكل ما هو صحيحٌ صحيحٌ يا أفندي.

– إذا عشنا وكلامنا ينطبق على أفعالنا على نحو مستقيم كما قدرها الله فسنتغلب على كل صعوبة في حياتنا يا جباغ.

ما إن اختُتِم حديثُ الشراب الذي افتتحه قسي أفندي، وهَمَّ الهجمةِ المحتملة من القرم، حتى وقف أبرج مرزبج الرجل الضخم العابس بالزي الشركسي الكامل، في ساحة العرس. — قال أزرت، وهو يدعو الواقفين للضيف إلى الجلوس، يسرني أنك تنازلت فظهرت أمامنا.

– رحِّبوا بالضيف الذي أحّر تحيته عنا!

شرب أبرج كأس نخبٍ، وطلب، كالعادة، أن يملؤوا له كأساً ثانية، وبدأ خطابه:

– أدعو من أرض الأديغة الدنيا التي جئتُ منها للعروس أن تضع قدم خير حيث جاءت، وتترك عقب خير حيث تركت، وأن يبارك الله في نسلها ونسل من تزوجها. وأن يُسعدها، ويمنحها الحظ السعيد. وأن يعيشا شيخوخة سعيدة مباركة. لا تؤاخذوني يا كبارنا الأعزاء، وأنتم يا شبابنا البواسل، تنتظرني الجماعة التي خرجتُ منها وأبلغتُكم تحياتها. سنلتقي مرة أخرى — وبعد عدة خطوات توقف وقال اعتباطاً: – عفواً نسيتُ يا أمّة الله أن أفندي الجمكوي باتر أرسل سلامه الحار إلى قسي أفندي الذي شمله الله بعطفه إن شاء الله. وهو بخير ومعافى، ويبني بإذن الله الجوامع. وسأطلعك على أخبار باتر أفندي الطيبة...

– هذا إنسان لا تتطابق أفعاله وأقواله... — قال جباغ الرجل المتين في إثر الرجل المنصرف الذي يبدو من قوامه الضخم المتين أنه ليس على ودٍّ مع أبناء قومه.

– هذا من أتيتُ لك على سيرته حين رجعنا من القالمق، – قال بج نغر الذي كان يكظم غضبه بصعوبة. — من حسن حظي أني لم آت إلى هنا بداور جمركوي كأني كنت توقّعت قدوم والده.

اختار بج وقت انقطاع الحديث بين الأميرين حتخشقوه وأزرت، فسأل إلن الذي عاد:

– ما الأخبار؟
– لا خير يا نغر! رآنا أتا – إلياس التتري. رفيق أبرج، فاختفى في الجبل... وهو وهذا الذي يجعل من نفسه ضيفاً مهماً يؤديان مهمة قذرة.
– ليتها كانت مهمة واحدة... – قال جباغ، وحالاً أتى على ذِكر أشبه مينشاقه وجرجه ماريم دون مناسبة: نحن مهمومون بتأخرهما. وأخبرَنا جرجه تاوقان أنه يستعد للبحث عن صديقه وأخيه الأصغر.
قفز نغر بقلبه إلى قريته بج.

الفصل الثاني عشر

حين دخل الفارسان القبرتاي إلى أرض الجانيه ظهرت من بعيد جبال القرم تكاد تبين في الأفق البعيد ولا تبين.
– هذا ما يسمونه القرم إن كنت ترى، – قال مينشاقه كاللامبالي.
– لا تزال بعيدة... – نظر ماريم إلى الجهة المحددة دون حماسة. – لا أظننا نصل إلا غداً.
لم يكن مينشاقه صريحاً تماماً مع ماريم. لا لأنه غير واثق به، بل لأنه عاهد من كلفه بمهمة استطلاع القرم ألا يبوح بالسر لأحد. كان يخشى أن يوصلَ أحدٌ الخبر إلى الخان. وأطلع ماريم على الجزء الذي لا بأس أن يعرفه من الموضوع. وبتعبير أوضح كانت مهمته أن يعثروا على نالمس ويعيدوها. ووجه ماريم يشعّ حيناً بالأمل والفرح، وحيناً يغلبه الشك فيسود الوجوم وجهه. كيف يبحثان عن نالمس؟ ومن يقابلون من أجل السؤال عنها؟ ثم إنه يفهم أن الأفضل أن يحافظوا على السرية فلا يشك أحد بالموضوع. ولكن مهما فكر ماريم لم يجد طريقة يفضلها على غيرها. وعلى مبدأ من لا يعرف ما سيحدث غامر قائلاً: ليحدثْ ما يحدثُ، فأودع أمله وهدفه عند هذه المغامرة.
– ما مضى كثيره فسيمضي قليله، ولكن لا أعرف كيف سنعبر بحر آزوف متى وصلنا... سنفكر في طريقة تنفيذ مهمتنا ريثما نقضي الليل في مضافة في الجانيه عند قَنْشاوقوه أو شَرَلأَقوه. لا داعي لليأس. "إيه جي، أرض الأديغة

أملنا، سنحافظ عليها رمزاً لرجولتنا...".

ردد ماريم أغنية مينشاقه المفاجئة. كانت أرض الجانيه الجبلية، والنسيم اللطيف الذي يهب فجأة، والتلال المتراصفة، والغابات الواسعة، كأنها تستمع إلى أغنية الفارسين.

وفجأة صدر من عمق الغابة أصوات صياح وصخب: كان عدد من الفرسان يلاحق ثلاثة فرسان، على حارك حصان الأول منهم فتاة تعبث الريح بشعرها، والفارسان الآخران يرميان مَن وراءهم بالسهام وبالمسدسات.

أسرع مينشاقه فاستل سيفه.

– هؤلاء الثلاثة أشرار. اِرمِ حبل الصيد على أولهم يا ماريم، وأنا أتكفل بالاثنين الآخرَين. رأى الآخرون الرجلين اللذين تصديا لهم بالسلاح فوقفوا مقتنعين بأن لا مجال للاستمرار وترجلوا. –أُجثوا على ركبكم يا أولاد الزانية!– صرخ عليهم مينشاقه الممسك بالصبية التي ما تزال تتنفس. قال بحمية عفوية، ونصح الجانيه الآخرين: – اصبروا وتحلَّوا بالإنسانية!

تصايح المجتمعون:

– هؤلاء ليسوا بشراً!

– ووسيطهم الحكوف ليس أحسن منهم!

– اِهدؤوا! — التفت من تعرّفوا صوت شَرَلِقوه يَلْمِشقوه، وأفسحوا له الطريق احتراماً.

– سنهدأ يا يلمشقوه إن استطعنا تهدئة هؤلاء... — غمغم حطاط الرجل الأسمر الملتحي، حامل الفأس الكبيرة على كتفه، ثم غيّر الموضوع: – هذان الضيفان يأتيان من القبرتاي يا زعيم الخير، وقد ساعدانا ضد المجرمين، ندعوهم أن يتفضلوا عندنا.

ترجل شَرَلِقوه يَلْمِشقوه من الحصان وقال:

– نرحب بكما من قلوبنا يا إخوتنا الضيوف، تفضلا إلى قرية جَنَه.– ثم غضب من جديد وهو يهز طرف سوطه للمجرمين: – أبعِدوا هؤلاء من أمامنا!

– حياك الله يا يلمشقوه، نتفضل بالخير إلى قريتكم! – قال مينشاقه كأنه يعرف الرجل منذ زمن بعيد، وأضاف: ولكن بما أن معبرَ البحر، طريقَنا، قد ظهر فلن نتكاسل.

– بالله عليك أن تعرِّفنا بنفسك أيها الضيف! – سمع شَرَلِڤقوه يَلْمِشقوه اسميهما، فعلا عتابُه: – هل تنقضان يا أخي مينشاقه، وأنت يا أخي الصغير ماريم، عاداتنا الأديغية وقد قطعتما كل هذه المسافة آتيين من الجانيه بلاد الأمير قَنْشاوقوه شبق، لن يسمع بالخبر كبير أو صغير ويقبل به. سيحكمون عليكما بأنكما نقضتما أديغيتكما. فيعيبون عليكما، وعليّ.

– إذا كان الأمر هكذا فلن نجلب لكم، ولا لنا، العار يا ماريم، سنطيع من يدعوننا.

سأل ماريم بنبرة تدل على عدم حماسته للأمر:

– وإن قالوا لنا: قدوم الضيف بيده، وانصرافه بيد المضيف؟

– ليلة واحدة يا ماريم. لن نسيء إلى أهل الجانيه من أجل ليلة واحدة.

منذ الأزل هناك مكان خاص للضيف حيث يسكن الأديغة. والضيف عند الأديغة ممن يُعزُّونه أكثر من غيره. ولا يدخل في استقباله وطريقة التعامل معه مركز الضيف وطبقته سواء كان غنياً أم فقيراً، أميراً أم نبيلاً، أم من عامة الناس. ويرحبون بالقادم من بعيد أكثر من غيره.

لكل بيت من بيوت الأديغة مضافة بعيدة عن البيت قليلاً، وهي مفتوحة ليلاً ونهاراً. وفيها جميعها مائدة بثلاث قوائم، وصوفا مغطاة بغطاء مزخرف، وإبريق وطست نحاسيان. وعلى الجدار زينة من بساط يحمل أنواعاً من الأسلحة وبعض أدوات الموسيقى. وفيما يستقبل المضيفُ الضيفَ ويدعوه إلى الدخول، يساعده على الترجل ممسكاً له بعنان حصانه. ويقدم للحصان ما يحتاج من راحة وماء وعلف. ومتى دخل الضيف الغرفة أجلسوه في الصدر عند الموقد. وسألوه عن صحته، وبعد قليل يطلبون منه رواية الأخبار التي يعرفها. ولا يسألونه طوال ثلاثة أيام عن اسمه والمكان الذي قدم منه، وعن وجهته. وبعد هذه المهلة يسأله المضيف إن كان بإمكانه مساعدتُه في مهمته. ولا يتركونه

وحيداً في الغرفة. ويدخل إليه أولاد المضيف وبناته لتحيته. ويخرجون دون أن يجلسوا في حضرته. ويزوره الجيران ترويحاً عنه.

يأتون للضيف القادم من سفر بمائدة "حواضر البيت" حالاً. وغالباً ما يكون عليها الباستا المصنوعة من الدُّخن، والجبن، وبعض الفواكه. وفيما هو يتناول شيئاً منها، يأتون بالتتابع بموائد ثلاثية القوائم عليها اللحم المقلي، وعصيدة الدجاج، وأنواع من اللحم. ويحتسون بعد الطعام حساء الدجاج من زبادي خشبية دون استعمال الملاعق. وعلى الموائد مشروبات من طحين الذرة ومن العسل. ومن العيب أن ينتهي المضيف من طعامه قبل الضيف، ولا يجوز أن يلاحظ الضيف مضيفه متعباً. والمضيف يحمي راحة ضيفه وشرفه. وحين يقرر الانصراف يودِّعونه وزمام الحصان وركابه باليد من الجانب الأيسر. ويشيّعونه بالنظر إلى أن يختفي من المدى المنظور.

وباختصار هذه واجباتُ المضيف نحو ضيفه. وعلى الضيف أن يتصرف وفق قواعد تحددها شِرعة الأديغة. يحيّي الضيف أولاً مضيفه، ويضع نفسه تحت تصرفه. ويدين الناس الضيف الذي يغيّر مضيفه. ويحرص على طعامه وشرابه حتى لا يوصَف بالشره. ولا يجوز للضيف التدخلُ في شؤون الأسرة أو التجولُ في أرض الدار، أو تفحُّصُ المطبخ، أو ممازحةُ النساء بما يعيب. والضيف يُعلِم المضيف بمدة إقامته. ولا يتفق طولُ الإقامة عند المضيف مع قوانين شرعة الأديغة. يدعو الضيف بعد الطعام على مسمع من المضيف ألا يُحيج الله الأسرة إلى الزاد. ولا يجوز له أن يطلب خدمته، أو يشكو منها. ولا يهجم على ما يقدَّم إليه من هدايا. ولا يُبدي على حاله اشتهاءه شيئاً مما في البيت لأن المضيف سيقدمه إليه باسم الأديغية. ومتى قرر الانصراف شكر كبار الأسرة، وعبّر عن رضاه عن المضيف ساعة ركوبه بتوجيه وجه الحصان نحو البيت.

ولا تنتهي تقاليد الضيافة عند هذا الحد، بل يمكن إضافة الكثير إليها.

كان ما يهمُّ شرلأقوه يلمشقوه الآن شيئاً آخر غير المجرمين الثلاثة: كيف يتجاوز بالضيفين القبرتاي مضافة أميرِ الجانيه قانشاوقوه قَلوبات، صهرِ أسرة شرلأقوه، إلى مضافته هو. ماذا سيكون ردُّ فعلِ أميرهم الحازم؟ وإن شكّ في أني

تجاوزته؟ وهو الذي في طبعه من النوع المرتاب. يحكم دون جدال على أنك سلبته شيئاً بتجاوُزك إياه دون استشارته. وأعجب ما في الأمر أن كلام ابنتِنا، كنَّتِهم، نافذٌ أكثر من كلامهم. وهي تلح علينا أن نصمم رمزاً للأسرة على نمط رمز أسرة قانشاوقوه. وليس هذا أيضاً مهماً إذ لا فرق كبيراً بين رمز أسرة الأمراء قانشاوقوه ورمز الأسرة المتنفذة، أسرة شرلأقوه. وهل عجيب إن كانت أسرة قانشاوقوه أسرة أمراء؟ نحن، أسرة النبلاء شرلأقوه، لسنا أصغر منهم إن لم نكن أكبر. أعود فأقول: أليس الأمير قلوبات أديغياً؟ لن أستطيع أن أكسر تقاليد الضيافة حذَراً مما قد يقول. وإن أراد، ابتسم شرلأقوه في أعماقه، يمكنه أن يدعو الضيوف غداً بعد أن أودِّعهم".

حين تعرف الجانيه على الأمير قلوبات الذي يتقدم الفرسان الأربعة الخارجين من قرية الجانيه، تركوا يلمشقوه والضيفين على خيولهم، وترجلوا هم احتراماً له.

– حياكم الله يا رجال الجانيه الذين حمَوا شرف الصبية! – قال أميرهم الكبير،

– رضي اللهُ عنكم، وأنتم الضيوف الذين تصدَّوا للمجرمين أيضاً، أبديتم شجاعة وشهامة. نحن راضون عنكم. تعالوا تفضلوا إلى قريتنا الجانيه. لا أستطيع أن أنقض تقاليدنا فأقول لكم بعدما استضافكم شرلأقوه تعالوا إلى دار الإمارة، ولكن سأزوركم بعد صلاة العصر إن شاء الله. سنتقابل بإذن الله. ونتعرف أكثر فأكثر.

في مضافة شرلأقوه، بعد صلاة العصر، عدد من الرجال بالإضافة إلى بضعة الجيران. وفيما هم يتكلمون على ما يحدث في أنحاء إقليم الأديغة من بجدوغ وجانيه وأبزاخ وجمكوي... تطرقوا إلى القرم وروسيا وتركيا، والحرب الدائرة اليوم بين روسيا والسويد. ودخلوا يتفقدون العالم العربي وأرض الكعبة حيث ينتشر الإسلام، وخرجوا. ولما ورد اسمُ أفنديهم الفجّ تجادلوا. فقال أحدهم:

– ما الذي تتحدثون فيه؟ وهل يصلح من لم يتجاوز عاصمة القرم بخجسراي إماماً؟

– ولمَ لا يصلح؟ – عارضه رجل آخر، – حتى من وطئوا أرض إستانبول يعودون إلينا حجاجاً أفندية!

– تبقى لهم أقوالهم وأفعالهم. قال المولى زرامُك الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن، وسأل: – كيف تجري أموركم الدينية بإذن الله يا ضيوفنا القبرتاي؟

– وكيف لنا،نحن القبرتاي، أن نتجاوز ما يحدث في الجانيه؟! — أجاب مينشاقه،– الناس في نواحينا يتقبلون الإسلام، ويبنون الجوامع، ويفتتحون المدارس.

– وهل وصل إليكم أنتم أيضاً خان القرم؟

– ما تقوله عيب يا حطاط، – لم يقبل زرامك ما سمع، وشرح: – خان القرم لا يتعدى على أحد. هذا موفد الله، ولذا يسمعون كلامه فيصل إليهم. هل سمعتم أيها الجانيه؟ حتى في القبرتاي البعيدة يبنون الجوامع. ويفتتحون مدارس الدين، ويتقبلون الإسلام. هذا أمرٌ حسنٌ. قولوا: آمين! سأتلو عليكم دعاء إلى الله تعالى بلغته هو، فرددوا معي بقلوبكم: "بسم الله الرحمن الرحيم. قل فو الله أحد[1]. الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد".

– هذه كلمات جميلة متقاربة يا زرامك. ولكن لا أفهم معناها... — تمتم حطاط.

– من لا يتقبل الدين الذي فصّله الله تعالى لنا لن يفهم يا حطاط ولو نقلته إلى لغة الأديغة. ولكن إن تحليت بالصبر فسأشرح لك المعنى بشكل أوضح إذ أني سأسافر إلى الحجّ في الخريف القادم.

– أين قلت لي؟ ألأنك إن نظرت من قريتنا رأيت القرم؟

– يا حطاط!

– ماذا يا زرامك؟

قال يلمشقوه الذي كان يهدّئ مضيفه للرجلين المتجادلين:

– ماذا جرى لكما؟.. — هيا يا حطاط اِحْكِ لنا واحدة من حكاياتك!

– لا بأس يا يلمشقوه. سأروي لكم حكايتين موضوعهما الحيوانات: " اجتمعت المخلوقات وقررت ما على كل واحد أن يعمل، وكيف سيعيش:

[1] فو: بدلاً من "هو" لأنه ليس في الشركسية حرف الهاء. المترجم.

السمكة ستعيش في الماء، وأسندوا الخبث إلى الثعلب، وطلبوا إلى الذئب أن ينشر الرعب ويأكل ما يجد. وأعطوا القوة والسطوة للأسد، وكلفوه بزعامة كل الوحوش" — تظاهر زرامك أنه ارتعب قليلاً من الصوت الذي صدر من جهة المسطبة: – اسكتوا قد يكون الأمير قلوبات!

– متى أصبحت يا حطاط ترتعب من الأمراء؟ – سأله شرلأقوه يلمشقوه؟ وأضاف: – هيا تابع حكايتك.

إن كان ما ترويه مناسباً حاز على رضانا، وإن لم يكن تحملناك. لا تخجل من ضيوفنا، هؤلاء أديغة أيضاً.

ومازح حطاط مَن في المضافة:

– بما أني لستُ ممن يُخفون رؤوسهم تحت آباطهم خوفاً فسأكمل حكايتي إن كانت مفيدة: "نعم، نصّبوا الأسد ملكاً. ولما بقي العقل والوسيلة فكروا في من سيوكلانهما إليه، فقرر الأسد إعطاءهما للإنسان بصفته ضعيف الجسد. قالت السمكة: "لا تعطه إياهما!". "ولماذا لا نعطيه؟" أجابت السمكة: "إذا أعطيناهما للإنسان فلن يدعنا نعيش في الماء. وأنت أيها الأسد، والذئب، والثعلب، لن يدعكم تعيشون في هناء". أجاب الأسد: "سنمنح العقل والحيلة للإنسان، أنا أقبل بهذا. إذا احتفظت بالقوة والسطوة فما نفعُ العقل والحيلة في وجهي؟ يكفيني أن أطأه وأسحقه، أنا وحدي صاحب القرار في هذا!". قابل الأسد النجار العجوز في الغابة وقد أعطي الإنسان العقل والحيلة فقال: "سيكون هذا أول من أجرب عليه قوتي" فاقترب من العجوز. جلس العجوز يضحك على الخشبة التي كان ينشرها. قال الأسد: "ممّ تضحك أيها الإنسان الصغير في الوقت الذي جئتك فيه لأفترسك؟ "أجاب الرجل: "ما أضحك عليه هو غباؤك"، قال الأسد "لا تتصوربني قليلَ عقلٍ أيها الإنسان الصغير!" أجاب النجار: " ألا ترى أني أصنع لك بيتاً تختبئ فيه متى اجتمعت الوحوش كلها وقررت مهاجمتك؟" فرح الأسد: "هكذا إذن؟ لم يخطر لي هذا البتة. حسناً، اصنعه واعتن به" قال النجار بعدما أنهى البيت: "ادخل أيها السلطان إلى بيتك وتمتّعْ بالمناظر حولك!" دخل الأسد البيت وامتدح النجار على ما

صنعه. قال النجار "أدخِلْ ذنبك في البيت حتى ينغلق الباب" ثم أغلق النجار الباب عليه. وقال للأسد: "ما فائدة القوة والسطوة إن لم يكن عندك العقل والوسيلة؟" هرب رفاق الأسد الذين سمعوه يصرخ قائلين: "لا حيلة لنا أمام من استطاع أن يفعل هذا..." — ثم اختتم حطاط بعد وقفة قصيرة: – ما رويته لكم مما سمعت، لا من تأليفي.

– ما كان يجدر بك أن تضيف هذا إلى ما رويت... — قال زرامك الذي نظر بطرف عينه بضع مرات إلى شرلأقوه خلال رواية حكاية الأسد.

– على سبيل الاحتياط يا زرامك. وهذه هي الحكاية الثانية إن أردت.

– ماذا أنا يا إلهي... — قال زرامك متظاهراً بتبرئة نفسه، واختتم متفقداً الحضور: – اِروِ ما تريد شريطة الا تتعرض لمن يظنون أن الله في قلوبهم.

التفت النبيل أشبه مينشاقه إلى ماريم، وقال لنفسه: " مهما قيل في الجانيه فهم أناس عجيبون كأنهم لا يهتمون لشيء، لا يأتون على ذِكر خانية القرم كأنهم لم ينهبوا بقية بلاد الأديغة من الجانيه إلى القبرتاي مئة مرة منذ ثلاثمئةِ عام تاريخِ توقفهم هنا.حين بدأت خانية القرم تتحرش بالجانيه كان شبق، الجدُّ الأكبر للأمير قلوبات أولَ أديغي طلب المساعدة من إيفان قيصر روسيا، برفقة أمير البسلني قانَقوه، وأمير الأباظة داورقوه..."

قال حطاط كأنه سمع الأفكار المقلقة التي تصطرع في قلب الضيف القبرتاي:

– أرانا جالسين لا نهتم بأمور عالمنا المعاصر وقد نسينا مأساة صبية اليوم فلْأُسمعْكم الحكاية الأخرى: "مرض الأسد الملك يوماً. فتعاقب عليه كثير من العوّاد لم يكن بينهم الثعلب. كان يسترد دَينه من الدجاجات. وفي أحد الأيام جاء الذئب لزيارة الأسد، قال الذئب: "أيها الأمير أنت محبوب ومحترم من جميع الوحوش إلا واحداً، لم يسأل عنك. هو مشغول بأموره ولم يهتمّ لأمرك" قال الأسد: "ومن هو؟" قال الذئب: "الثعلب" فغضب الأسد وتوعّده.

سمع الغُرير كلام الأسد، فأبلغ الثعلب. فتوجه إلى الأسد المريض. نهره الأسد: "ما الذي شغلك عني؟ لماذا تأخرت في زيارتي ؟" قال الثعلب: "أنت ملكنا الكبير فما الذي يشغلني عنك! أليس من أجلك تأخرت كل هذه الأيام؟ كنت

أعرف أن عيادتي لك لا تنفعك فقابلت الأطباء". "وهل وجدوا لي دواء؟". "الدواء هو عقِب الذئب".

انتزعوا عقب الذئب بأمر من الأسد وأطعموها له. قطع الثعلب طريق الذئب الذي كان يمشي على ثلاث قوائم وسأله كالمستغرب: "ماذا جرى لك أيها الذئب؟" أجاب الذئبُ النمّامُ الثعلبَ: "لا تفعل الشر وتنتظر الخير!".

صدرت ضجة من الشارع وحطاط ينهي الحكاية. وفي الحال هُرع إلى المضافة أحد المجرمين الثلاثة الذين انتُزِعت منهم الصبية، وهو المنتمي إلى قبيلة الحكوف، واختبأ وراء الأمير شرلأقوه:

– مضافتك حِصني يا أمير، اِحمني!

نهض الجالسون كلهم، فوقف الأمير أمام الرجال المسلحين الملاحقين للرجل:

– اصبروا! هذه مضافة أديغة. إذا كان عديم الشرف الأديغي الذي تلاحقونه قد التجأ إلي فعليّ حماية حياته. ماذا جرى لكم؟ وأين رفيقاه؟

– انتهينا من أحدهما، وهرب الثاني. وهذا... في القرية جثمان، يا جماعة.

بقي في المضافة الضيفان وأربعة رجال بالإضافة إلى المضيف، فذهبوا إلى تعزية الأسرة المنكوبة.

– سامحوني، – قال الأمير شرلأقوه لضيوفه بعد العشاء. من كان يدري أن ما حدث سيحدث... لم يدعوا فرصة لصهرنا قلوبات كي يزوركم. ولا أظنكم تتابعون السفر دون أن تقوموا بواجب العزاء للأسرة التي ستشيع فقيدها ظهر الغد.

– عيب أن نغادر القرية وقت تشييعه يا يلمشقوه، هذا يتنافى مع تقاليد الأديغة.

– طبعاً. — وافق ماريم رفيقه.

من عادة الأديغة أن يشيعوا المتوفى في اليوم التالي ولذا عزّى مينشاقه وماريم الأسرة بعد عودة الرجال من الدفن. واستأنفا الرحلة دون وداع كما تقضي التقاليد أيضاً. وفي أثناء انحدارهما من التل لفت نظرهما الفارسُ الجاري وراءهما.

كان هذا حطاط.

الفصل الثالث عشر

كان الخبر الذي رواه تيمر إلن من أن أتا – إلياس النغوي اختبأ في الجبل صحيحاً. ولكنه لم يكن وحده: كان معه بَغُنه جعفر بلقار الأعرج، ومامسر نقار قاطعُ الطريق.

كان بغنه جعفر يكره القبرتاي إلى أبعد الحدود. ولم يكن يحب الأباظة والقالمق والأوسيتين والأنغوش أيضاً. ولما كانوا يعرفون فيه هذا كانوا يقولون: وكيف تداوي من سببتْ له عاهتُه الحقدَ. ولكن لم يكن العرج وحده سبب أحقاده. بل تزيد زيادةُ عدد القبرتاي عن عدد أبناء قومه البالقر الجبليين بأكثر من مئة ألف، وسيادتُهم على السهل وعلى الجبل غيظه. حقاً لم يكن ينقصه التحريض من خانية القرم، وكان يعتدّ بأبناء قوم أتا – إلياس النغوي المستوطنين سهل بشزه، ولو كانوا متفرقين بين أديغة المنطقة. ولكن العجيب أنه، دون أن يعرف من نفسه هذا الهوى، لم تكن قبعته تسعه فخراً حين يسمع أخبار الكرج الذين يعيشون وراء المعبر الجبلي بيجو، وكأن فيه عرقاً منهم من جهة جدته.

كيف أصبح أتا – إلياس النغوي وبغُنه جعفر البالقر صاحبين لمامسر نقار وأبرج مرزبج الأديغيين؟ ليسوا من قرية واحدة، ولا بينهم قرابة دم، فما سرّ علاقتهم وطوافهم قرى البالقر؟ النغوي والبالقر يشتركان في الأصل التركي. ولغتاهما متوافقتان تقريباً. إذن ماذا يبغي الأديغيان اللذان معهما في الوقت الذي يعيش فيه الأديغة أيام ضيق وحرج؟ يقال: لا يتراقص مختلفان، ولا يلعب شخصان معاً من لونين " ولكن متى عرفت حقيقة أمرهما رأيت نفسك تنظر إلى الأبعد.

حين تناقصت سرعة حصان أتا – إلياس على طريق المنحدر، ناداه أبرج الذي يتبعه:

– أرِح حصانك! لا أحد يتبعنا.

لجم أتا – إلياس حصانه فسمَّره في مكانه. والتفت:

– وأين الآخران؟

– من هما الآخران؟

– جعفر ونقار.
– وما حاجتنا إليهما؟
– كل شخص ضروري في الجبل. كلاهما مضيف بالنسبة إلينا.
– لا أعرف ما أقول بحق جعفر، ولكن من العيب أن يكون نقار صاحبَك.– قال أبرج يغلبه مزاجه السيء، ثم استدرك مرائياً: – مامسر ينزل ضيفاً عند أي شخص. ليس هذا مهماً، أخبرني لماذا غادرت عُرس البالقر كعصفور جافل؟
– لأن بج الذي ذكرته لك، وينزل ضيفاً عند ابنك، تعرف عليّ.
– ما كان ليتعرف عليك لو حلقت شاربيك ولحيتك.
– أنت تهينني يا أبرج.
– لو كان عندك شعور بالعار لما هربت كأن النار اشتعلت بذيل حصانك.
– وأنت؟ لجم أتا – إلياس حصانه فقفز.
– أنا تبعتُك لأني لم أنته من قضية ولدي... مهلاً، أسمع وقع حوافر خيل. دعنا نمشي على الطريق الحجري. – لم يسمح جعفر ونقار لصاحبيهما أن يختبئا وراء الصخور. عرّض أتا – إلياس لأبرج:
– هذان، – تمتم أتا – إلياس، – تحتاج إليهما أنت أكثر مما أحتاج أنا.
وصل الفارسان فسأل أبرج بصوت حاد:
– هل مسحتما آثار حوافر الخيل؟
– وهل أذيال خيلنا مكانس؟ ردّ نقار بحدة.
– يا نقار!
– ما الأمر يا أبرج؟
– لا تتشاجرا أيها الضيوف القبارت – توجه جعفر إليهما، لاعباً دور المضيف، كما يسمي البالقرُ القبرتايَ بالقبارت، فوقف بين الفارسين الأديغيين. لا يجري شجارٌ على جبل البالقر؛ هنا ينصت إليك الحجر والشجر... نصحَنا مرزبج الأكبر أن نحرص على أنفسنا ولم يسخر منا. تعال يا نقار لماذا نقف هنا. على المنحدر الآخر للجبل تنتظرنا قريتي.
– لا عمل لي هناك. – حثّ مامسر حصانه وفارقهم.

– عُدْ! — صاح أبرج في إثر الفارس المنصرف. ثم نادى مرة أخرى، بصفته الأكبر، وبنبرة أقسى: – ألستَ من طلبوا منه العودة يا نقار؟!
– وقف نقار مديراً ظهره لرفاقه، وبعد قليل أدار رأس حصانه وقال لابن قومه:
– ما يلجمني عنك هو قبعتك الأديغية، لا إنسانيتك يا أبرج.
– لسنا في موقف نناقش فيه موضوع العادات الأديغية، – ردّ عليه الآخر.
"جعلك هؤلاء المجرمون الذين ترافقهم تتخلى عن مرتبة النبيل وتطيعهم لأنك لست أديغياً. ولسنا نجهل كيف عاملتَ ابنك الوحيد الذي توجّه إلى أخواله، وأنك تبحث عنه. وهل يعرف مضيف الشاب الذي في أيام عزّهِ هذا؟.." دان نقار في سره أبرج وسأل نفسه: – "ومن أنا إذن؟ أنا فارس وحيد، مستقيم. مهمتي التمييز بين البراءة والذنْب" — أجاب نفسه مُقنِعاً إياها بحياة قاطع الطريق هذه، وأجابها: – هذه البراءة — الذنب كما يقول قسي أفندي لن تكون جزءاً من الدنيا العاجلة. هذا حر وحيد، والآخر متوسل إلى امرأته، يربي الأولاد. والثالث على نمط جعفر مغرور لا يحفل به أحد. والناس الذين لا يستطيعون فهم الأمراء– النبلاء أصحاب النفوذ يمسكون بأزمة خيلهم ولا يُفلِتون ركائبهم. لا آتي على ذِكر العبيد والخدم؛ فما بال العامة الممنوعين من ركوب ذكور الخيل؟ أنا بالقياس إليهم طائرٌ وليل وريح ومطر. والشرّ يُعثِّرُني أحياناً... حسناً فعلتُ إذ رجعت دون أن أنساق وراء غضبي. الغضب على هؤلاء الثلاثة والتفتيش في روث حصانك سيان. قبل أيام التقى بي بغنه ولمح لي إلى القضية التي يتابعها – وهي ليست قضية سهلة يا بغنه الأعرج — ولكني لا أعرف ماذا يخفي الآخران من أسرار... ولكنّ من الصعب، على قول قزنقوه جباغ،إخفاء ما في البطن، وما في صدر البيت. سنرى ماذا يريد هؤلاء، سنرى.
– ماذا يتنازع هذان؟.. — سأل أتا– إلياس جعفراً.
– القبارت، – همس جعفر في أذنه، – يتفاخرون بحجم قبعاتهم.
التفت أبرج في سره إلى نقار المتأخر عنهم، وغمغم: "لماذا أعدتُ هذا الهائم الذي يدعي الفطنة؟" — وبعدما مشى قليلاً سأل نفسه: "وهل يحتاج الرأس إلى أذن ثالثة؟ ليس مستبعداً، كما قال النغوي، أن أحتاج إليه. ألم يقولوا:

رأسان خيرٌ من رأس واحد؟ كلانا أديغي. والآخران يمكن أن يتفاهما بالنظرات لأنهما من معدن واحد... ونحن؟.. نحن نتنافس، نطأ عقب من سبقَنا لنوقفه. ونطمح في الحمل الذي نعجز عنه. وننتظر من يرفعه ..."

الفرسان الذين وصلهم صوتُ المؤذن الرفيع الذي ارتفع من فوق الغابة المتنوعة التي تصدر منها زقزقة العصافير ووقع حوافر الخيل، عرفوا الوقت الذي هم فيه من خلال الأذان. واهتزت له آذان خيلِهم.

قال جعفر:

– كان الأفضل أن نصل إلى الجامع قبل أن تبدأ الصلاة الجماعية في "الجامي".

– وماذا سنفعل في الجامع؟ – ذكّرهم أن معهم نقار، فنطق اسم الجامع بالتركية "جامي" مترجماً إياها إلى الشركسية "مَشِت"

تنحنح أتا ــ إلياس كمن لم يسمع شيئاً.

وابتسم أبرج مرزبج.

ولم يكن صوت الأذان يعرف الانقطاع.

– وهل هذا كلام؟! سنتظاهر بأننا لم نسمع شيئاً، وأنت لم تقل شيئاً. ليرحمنا الله يا نقار، عسى أن يعطف علينا الله.

– نعم، نعم، – وافق أبرج صاحبه بغُنه كأنه مسرور لما سمع.

– أنتما على حق، – قال الآن أتا — إلياس شاملاً الاثنين. — نحن أيضاً من الذين تقبّلوا الإسلامَ دينَ الله سبحانه وتعالى.

– ما أسرع ما نسيتم مجوسيتكم... — قال نقار لمن وراءه، ولما رأى الشمس تنحدر نحو الغروب نادى رفاقه: – انظروا إلى هذه الشمس العظيمة؛ هذه هي إلهتنا نحن الأديغة. دعونا نشكرها على أنها أظلّتْنا اليوم! وندعو إليها أن تشرق علينا غداً.

لم يعرف نقار أن الفرسان رفاقه لم يوافقوه إلا بعد أن انتهى من دعائه. وقال في إثرهم وهو يتأمل ظهورَهم المتعبةَ التي تشبه منظر الصقر: "ما أشدّ بؤس هؤلاء!" ثم سأل حصانه ماسحاً على عنقه:

– هل فهمت يا "ثْخُجي" ماذا يشبه هؤلاء؟ إن كان هذا جوابك فسأستمع

إليك. ولن نتبعهم. ولكن لا يتخيَّلوا أننا عاطلون عن العمل. تعال ننجزْ معاً مهمة ليس فيها وشاية.

قال بغنه جعفر لبضعة المسنين الذين أنجزوا صلاتهم في الجامع المسور بجدار حجري، وها هم يلبسون أحذيتهم المصنوعة من جلد البقر:

– أتمنى يا مسنينا الأعزاء أن أعرّفكم بضيوفي الذين جئت بهم إلى مضيقنا.

– هل وصل جيش القرم إلى قبارت؟ – اختطف العجوز الصغير الذي كادت قبعته اللبادية الصغيرة تسقط عن رأسه، الكلام من العجوز:

– ما هذا الذي تقوله؟!. — لم يقبل المولى جمال ذو الحاجبين العريضين.

– لا أعرف، ولكن بلغني أنهم قادمون.

– لا، لا، – تظاهر بغنه الذي سُرّ بما سمع أنه متلهف للرد، – هؤلاء جاؤونا ضيوفاً. تعالوا مساء إلى مضافتنا تتعرفوهم على نحو أفضل!

يبدأ الظلام يلف الجبل حين تبدأ الشمس بالانحدار: تسكت العصافير عن الغناء شيئاً فشيئاً. وترتفع أصوات المواشي التي تُجمع في حظائرها. وتشعر بمزيد من برودة النسيم الذي يهرب منه دفء شمس الربيع.

ولا تختلف قرية بغنه جعفر الجبلية عن سائر قرى البلقار. ولا يزيد عدد سكانها عن أربعين إلى خمسين أسرة متقاربةَ البيوت متقابلةً.

بعد العشاء، وقد رُفعت الموائد من الغرفة، قال أبرج وهو ينظر عبر النافذة الحجرية الضيقة:

– اختبأتم جيداً في الجبل يا جعفر.

– نعم، نعم يا مرزبج. — وافقه أتا — إلياس الذي شبع من لحم الخروف المسلوق وأتبعه بالشراب المخمر. — الهواء محمل برائحة الزبل التي تذكّرك بأيام الطفولة. — نظر في وجه المضيف جعفر الذي لم تعجبه عبارتا "اختبأتم" و"رائحة الزبل"، فاختتم بكلام أحسن: نعم، من البديهي أن المواشي مصدر سعادة وبركة، كما يقول جيراننا البسلني؛ أليس صحيحاً يا مرزبج؟

– لا تؤاخذني؛ لست مهتماً بالصحيح وغير الصحيح. يا مرزبج، القبرتاي جيراننا الذين طردونا فألجؤونا إلى الجبال، لا أحب أن أرى وجوههم ، ولا أن

أسمع لغتهم، كما سبق وقلت لك.
احتدّ جعفر المتحمس بعدما شرب، واختتم: – يسخرون منا قائلين: من أنتم؟ ويهينوننا ويسلبوننا مراعي مواشينا، ويُمِنّوننا على أنهم يسمحون لنا بالبقاء في جبالهم. يجبروننا على أن نشكرهم. ليت جيش قبلان — جري الذي أنتم موفدوه وصل إلينا؛ كنا نقلنا النير الذي وضعوه على رقابنا إلى رقابهم. أظن أن لهفة أبناء قومي المضطهدين أوصله إليكم العجوز الذي قابلتموه في الجامع. ومتى خالطْنا قرى البالقر غداً ستفهمون هذا على نحو أفضل. كيف ننسى أقرباءنا القلقين علينا والذين سيزيحون عن كاهلنا ظلم القبرتاي؟..
– انتهت صلاة العشاء قبل وقت غير قصير.– غيّر أبرج ثرثرة المضيف، ونظر نحو الباب موهماً نفسه أن أحداً قادم لتحية الضيوف.
ولم يبحث بغنه الذي فهم حركة أبرج عن حجة:
– كل الجبليين، وربما كان الوضع عندكم هكذا، ينامون مع الشمس التي كان يدعو إليها نقار، ويفيقون معها... ونحن عِرق البالقر كان عندنا حقاً آلهة متعددة. ولكننا نتابع أبناء قومنا تتار القرم على إسلامهم. لا تؤاخذني يا مرزبح؛ حين نقول "القبارت" فنحن لا نشمل معهم قبرتاي شركيسيا الدنيا.
– طبعاً، طبعاً، – أسرع أتا — إلياس كمن يحرمونه نصيبه من المديح. — حتى لو كان مرزبح من عرق الشركس الذين تسمونهم "قبارت" فقد صار واحداً منا، وهو أحد رجالات خانية القرم المعتبرين. يسمع كلامَه أهل شركيسيا الدنيا، والنغوي أخلاف جنكيز خان الذين أنا منهم. وإذا طلب منهم أن يركبوا وقف إلى جانبه آلاف الفرسان...
– على رِسلك أيها النغوي، أنت تبالغ في مديحي... — قال أبرج والفرح مما يسمع بادٍ على وجهه، وسأل المضيف: – إن قلت "قبارت" يا جعفر فأنت لا تهينني.
– لا، أنا لا أقول هذا.
– ماذا إذن؟
– لا أقول إلا أن أبناء قومك القبارت الذين لا يعترفون بكم مستمرون في

إزعاجنا... — سأل جعفر فرحاً بالصوت الصادر من جهة الباب: – هل تسمع؟ أظنه جاري جمال مولى ذا الحاجبين العريضين.
لام مولى جمال صاحبُ الحاجبين العريضين الثلاثة معاً كأنه يريدهم أن يقولوا: ها أنا ذا:
– أراكم وحدكم!
– وكيف نكون وحدنا يا مولى، – لم يبحث أبرج عن جواب، – نحن مع الله سبحانه وتعالى.
– قولوا: آمين! دعونا ندعو من أعماقنا إلى الله سبحانه وتعالى. —ردد الثلاثة بقلوبهم الكلمات العربية التي نطق بها جمال مولى الرجل الضخم ذو الحاجبين الكثّين، فخاطبهم الأخير بنبرة ألطف: – تقبّلِ الله دعاءكم! ثم أخرج من قفطانه منديلاً أبيض مطوياً، ومسح فمه على مهل. وطوى المنديل بكل عناية. ثم قال كأنه متحرج جداً من كلامه: – واللهِ وباللهِ[1] لا أعرف كيف أبدأ. المصلون في الجامعِ، بيتِ الله الذي تتروح فيه القلوب، انتظروكم. هم قلقون لأنهم لا يعرفون مصيرهم مع الأخبار المتناقضة التي تأتي من جهتكم، القرم.
– قام مضيفنا جعفر بكل ما يجب بشأن صلاة العشاء. نظر أبرج إلى رفيقيه لا يرفّ له جفن، وأضاف: – نحن استسلمنا لتعبنا فصلينا العشاء في البيت؛ احمِنا يا الله وامنحنا الراحة!
– نعم يا مرزبج، لم نتناس إسلامنا، قمنا بما علينا. ناب أتا — إلياس عن أبرج والتفت إلى المضيف جعفر، ثِقوا بخان القرم يا مولى، قبلان — جري رجل حكيم. قائد جيش شجاع. يحمي أبناء قومه في كل مكان.
– والسلطان التركي الكبير أحمد معنا، – ساهم جعفر مسروراً في كلام الضيف. — لا يدعُنا ننسى أننا من عرقِ الترك، عرقِ جنكيز — خان وباتو — خان قادة جيوش العالم. ويُفهِم القبرتاي العنيدين هذه الفكرة.
– تتكلم يا جعفر من أعماق قلبي، تملؤني فخراً. — أسرع أتا — إلياس المتورد

[1] بالعربية في الأصل. المترجم.

الخدين من خمر التفاح والزعبوب.– ما قلتَه صحيح جداً. العالم الذي خصنا الله به يتوسع في كل اتجاه وإن كان الشركش[1] يهينوننا؛ فنحن من عرق الترك ذي الجذور القوية الكبيرة. لِيكنْ عندنا حامٍ من عرقنا يضع حداً لِمن يهينوننا.
— سأل المتكلمُ الذي لا يتسع فمه لكلماته أبرجَ: – أليس صحيحاً يا مرزبج؟ وإن كنتم لا تصدقون كلامي — استل خنجره، – فسأطعن يدي بهذا وأُشهِد دمي عليه.
قال أبرج غير عابئ بما يرى:
– لن أدعك تقول هذا إن سمعت كلامي.
– اسمعْ ما يقال لك أيها الضيف. — لم يصبر المولى الذي يصدِّق ما يسمع.
– ما الأمر؟
– يقول لكم الشركش الذين تعيشون بينهم: "النغوي متى رأى الدم داخ"، – تابع أبرج كلامه، – لذا أقول: من يدري؟ ولكن إن أردت الحقيقة، فلا تُرقْ دمك لتُشهِده على صحة ما تقول. أمامنا موقف يمكن أن تريقه فيه.
– سأسمع كلامكم إذن، – خفَتَ صوت أتا — إلياس رغماً عنه. ولكنه صحا فأكمل: – ولكني لا أقبل قولكم: النغوي متى رأى الدم ". هذه الفكرة يشيعُها أعداؤنا أيّاً كانوا.
– "أيوه، أيوه، ما العمل يا ضيفنا؟– قال مولى جمال الذي لا يعرف معنى كلمة "أيوه" العربية. ليس كل الناس في دنيانا التي يختبرنا فيها الله متشابهين. ونحن أمتَه المسلمين، يخبرنا بعدم رضاه عن هذا. ولا يدعُنا ننسى أننا إن نعمل صالحاً في الدار العاجلة ينقذنا من السراط المودي إلى جهنم التي سيختبرنا به يوم القيامة قبل عالم الآخرة. يتأمل منا الله أن نقتلع جذور الكفار الذين يساندهم الشيطان والجنّ الأسود. سأدعو لكم بالدعاء الذي يحميكم من هؤلاء، أعني سورتي الفلق والناس، فقولوا "آمين". ومن يعرفهما فليردد معي بقلبه، ومن لا يعرفهما فسأدعو له أن يسهِّل الله حفظهما عليه.

[1] حسب نطق البالقر. المترجم.

كان الثلاثة الذين طلب منهم المولى الدعاء جالسين رافعي الأيدي، ولا يعرفون كيف يدعون. ولكن شفتي بغنه جعفر كانتا ترتعشان موهمتين الحضور بأنه يعرفهما.

قال أتا – إلياس بعدما انتهى المولى من دعائه:

– طيبت خواطرنا أيها المولى بدعائك، جعل الله يومك مئة!

– ليس هذا بفضلي أيها الضيف، – قال جمال مولى متواضعاً، وإن كان مسروراً لِما سمع، – بل من فضل الله خالق الكون.

– نعم يا مولى، نعم. – الفضل له، ولكن ألستَ رجل دينه، ومن موفديه!

نقض جمال مولى صاحب الحاجبين العريضين متصنعاً المزاح، الصمت الذي ران على الغرفة:

– كما يقول جيراننا القبارت فأنا حقاً رجل دين. النبي محمد هو الرسول موفد الله خالق الكون العظيم الذي قدّر لنا الدنيا الواسعة مسكناً لنا، ولذا فسيونج، الذي تعرفتم عليه في عرس آزرت، أنطقه الله بالخير دائماً، هو موفد محمد. – وأكمل جمال مولى بعد سكتة قصيرة: – لا أعرف إذا كنت سأحمل هذا اللقب إذ أنوي الحج هذا الخريف.

– وهل يعود الحجاج بلقب الأفندي؟..– تظاهر أبرج بسؤال نفسه.

– وأنا أسأل هذا السؤال... – وافقه أتا – إلياس حذِراً.

نظر بغنه شزراً إلى المولى.

استدرك جمال ذو الحاجبين العريضين بسرعة:

– أيوه أيها الضيف، أيوه، أنت على حق يا مرزبج.– الحجاج حجاجٌ. لن يكونوا مثل سيونج المعلم اللبيب. ولكن سأخبركم بما سمعته يقوله: التاولو التاوبي أيضاً البدو، والقبارت الأمراء، كلهم من سلالة القمر. والسّفان الذين منهم جدتك هل يقولون هذا يا جعفر؟

– كل الأمراء متشابهون. – قال أبرج دون أن يسمح للمضيف بالإجابة. – يُخيَّل للأمير بولتقوه عندنا في الجمكوي أنه والد كل النبلاء...

– سبحان الله، سبحان الله[1].... — تراقصت عينا المولى ذي الحاجبين العريضين.

– لا تستغربوا إذ صرنا في سيرة الأمراء. سأسألكم قبل أن أقول رأيي فيهم، – أكمل أبرج كلامه، – من أين أتى هؤلاء الأمراء بالقياس إلى ملوك الدول والخانات. متى خرجوا من أرضهم، يتبجحون في الجبال ويمتدحون أنفسهم؟

– صحيح يا مرزبج، – قال بغنه الذي ليس السؤال موجهاً إليه، وهو يمص الغليون الفارغ، – الكلام الذي قلته على الأمراء ينطبق بحذافيره على أمرائنا نحن التاوبي. وينطبق أيضاً على أمراء قوم جدتي الكرج. وإن ابتعدت إلى القالمق والشيشان والقوموق الداغستان والنغوي، فأمراؤهم كلهم لا يساوون خان القرم. وإذا كنت تتذكر فقد هزم كفار موسكو، ودمرهم وأحرقهم.

– هل تقصد موسكو التي فيها صهر القبرتاي؟.. — سأل مولى مرتعباً ومسروراً معاً. واختتم: – سبحان الله، سبحان الله... ما يجري في دنيانا العارية دون عِلمِنا كثير... ارحمنا يا ربّ واحمِنا!

– جرى هذا قبل وقت طويل يا مولى.– قال أبرج، وأضاف مازحاً: – في زمان عزِّ جدودنا، لا في زماننا... — وأنهى بسرعة: – كان هناك مثلُ هذا الزمان. وإن لم أخطئ فمن اجترح بطولة إحراق موسكو هو جدُّ قبلان — جري. وإذا هاجم قبلان — جري الخان أرض القبرتاي ببضعة آلاف فلن يكتفي بإحراقها، بل لن يسمح لريح تحمل الصفوة بالهبوب.

– أيوه، أيوه. سبحان الله، سبحان الله. — بادر جمال مولى مرة أخرى بالحديث: – الله حامينا، ليعرّف اللهُ القبرتايَ الجلفين قيمتَهم! — ثم سأل بوجه مرتعب وقد نفّس عن ضيقه: – إذا حدث هذا يا ضيف فماذا سيحل بنا نحن التاولو؟

أجاب بغنه جعفر الذي لم يوجَّه إليه السؤال إجابة جازمة:

– اطمئنَّ يا مولى! سنحمل مع الخان قبلان — جري شُعلته.

---

[1] بالعربية في الأصل. المترجم

– هذا رأيك؟
– نعم!
– أيوه، أيوه، ليشملنا الله برعايته، وليحمنا!.. والله سهرنا سهرة طيبة. وقطعنا شوطاً من الليل. ولْيرتحْ ضيوفنا. أمامهم مهامّ كثيرة. وسنلتقي مرة أخرى، وسأرافقكم إن شاء الله. – ولما وصل جمال إلى الباب التفت باسماً وسأل: – لا أرى رفيقكم مامسر حجرت؟ ربما يؤدي مهمة ما.
لم يترك أبرجُ السائل الذي يريد أن يعرف كل شيء دون جواب:
– هذا يسافر حيث يتوجه حصانه. ثم أنهى باسماً: – ولكني أشهد أنه لحق بمن لم تسمع أخباره، الجاسوسين النبيلين مينشاقه وجرجه المتوجهين إلى القرم.
– إن استطاعوا الوصول... – قال أتا – إلياس كمن يسخر.

الفصل الرابع عشر

– رافقتكما السلامة! – قال حطاط للفارسين اللذين تعرف عليهما في القرية.
– حياك الله، تفضل يا كبير. أجابه مينشاقه الذي ارتفع برجليه عن الركاب. وفعل مثلَه رفيقُه ماريم.
– سأتفضل، إن شرفتماني برفقتكما.
– سيتسع لنا الطريق يا حطاط وإن كان ضيقاً. – قفْ في مكان الكبير بيننا. وسيقف أصغرنا ماريم على يمينك.
– إن كان هذا رأيكما فعلى مبدأ من يسمح لك بالجلوس فلن يغتابك، فسأقف في المكان الذي شرّفتماني به بغضّ النظر عن كوني من العامّة. ويسعدني أنكما تحافظان على ما ترك لنا الأسلاف دون اعتداد بكونكما من النبلاء. وإن عشنا هكذا فأنا أظن أننا سنحافظ على عِرقنا مهما جرى لنا في الدنيا.
– حقق الله أمانيك الطيبة يا كبير. – أنطق الموقف ماريم.
– الأمل يُحيي الإنسان. سأروي لكما إذن، وأنا أنصب سلماً على الطريق، ما فكرت فيه قبل أيام.

– نسمعك ياكبير، – ألقى مينشاقه نظرة ود نحو حطاط.
– لا أتفق مع أقوال أفنديتنا التي لا معنى لها زاعمين أنها من القرآن الذي جاؤونا به من تركيا والقرم.
– وما هو؟ – لم يصبر ماريم.
– سأقول رأيي إذ سألت يا ولدي. الإسلام دخل بين الشابسغ منذ عهد جدي. وإلى الآن يفرضونه علينا بالترغيب وبالترهيب. متى نزل القرآن على المسلمين؟
– أسمع قزنقوه جباغ يقول إنه أكثر من ألف سنة. — قال مينشاقه.
– إن صح هذا، والأديغة يُعتبرون من أقدم الأعراق على الأرض منذ مئات الألوف من القرون، فكيف نقارن بين الأديغية والقرآن الذي لا يتجاوز عمره ألف عام؟ لا أعرف، لا أعرف... أفنديتنا ومواليا، ومعهم حجاجنا،الذين يقولون إن الله قد خلق الكون، لسِنون، يستطيبون ما لم يأكلوا.
"هذا العجوز الجانيه — الشابسغ رجل حكيم" — قال مينشاقه لنفسه، وشهِد على الفكرة التي طُرِحت:
– والأفندية في نواحينا ماهرون في المواعظ التي لا يفهمونها.
حين رأى مينشاقه الفلاح العجوز ذا الثورين والمحراث، غيّر موضوع الحديث:
– هذا العجوز البائس تأخر في الفلاحة.
– لو كان كل شيء يجري في الدنيا كما تريد!.. — قال حطاط دون أن يستمر في الكلام الذي قطعه: – سأروي لكم، إن لم يكن مملاً، ما حدث مرة لمثل هذا الفلاح. في مثل هذا الوقت المتأخر للحراثة، سافر رجلٌ على سبيل تزجية الوقت. فلما دخل إلى البرية رأى فلاحاً عجوزاً. قابل الرجلُ العجوزَ وهو يقول: "ما أشد ما تأخر هذا العجوز!" وخاطبه: "بارك اللهُ في حرْثك أيها الكبير الخيِّر" رد الفلاح على الرجل الأحدث سناً: "حياك الله يا ولدي"، "لماذا

تأخرت في الحراثة أيها الكبير؟". "كنت بقيت يا ولدي لا أجد موجهاً للثيران[1] لأن الناس نهبوني. والآن استعرتُ هذا الصبي يقوم بهذا العمل". "ما أمَلُك أيها الزعيم في هذا الحرث الذي تأخرت فيه إلى هذا الوقت؟". "يا ولدي إن نبت فهو حسن جداً. وإن لم يجلب لي شيئاً بقي لي الثلاثون التي عندي. فكَّر الفارس في كلمات العجوز مرة أخرى. ولكنه لم يفهم معناها. فسأله متصنعاً المزاح" ماذا كنت تفعل بصدر خروف سمين لو وجدته؟". "لو وجدت مثل هذا يا ولدي لانتزعت منه كثيراً من العظام". دعا له الفارس بالخير وانصرف. ولكنه رجع ليعرف معنى كلام العجوز الذي يحثّ الغلام: "أسرِع يا ولد، أسرعْ، تأخرنا في الفلاحة لن نتوقف لكل عابر سبيل". قال الفارس: "لا تقل هذا يا زعيم، دعني أسألك". توقف الفلاح العجوز: "يا زعيم الخير حين سألتك عن سبب تأخرك أجبتني بأن الناس نهبوك فبقيت دون سواق للثيران؛ فماذا تعني؟" أجاب الفلاح "كل من أنجبتهم كانوا بناتٍ فتزوجتْ بناتي الثلاث وبقينا وحدنا أنا والعجوز" . ولما انتهى الناس من الفلاحة استعرت غلاماً يوجِّه الثيران. هذا هو المعنى. هيا يا غلام، أسرِع. "سؤال آخر يا زعيم الخير" رجا الفارس العجوز وهو يرافقه:سألتُ عن جدوى فلاحتك الآن فأجبتني: "إن لم يجلب لي شيئاً بقي لي الثلاثون تبعي فما معنى قولك؟" "المعنى إن لم يكف ما سأجنيه إلا لسداد ديوني بقيت لي أسناني الثلاثون. فإن بقيتْ لي وجدت القليل مما آكله. هيا يا غلام، هيا! " سؤال آخر أيضاً يا زعيم". قال العجوز: "أنت تؤخر عملي؟" وأوقف المحراث. "ما معنى قولك عن صدر الخروف إنك ستُخرج منه عظاماً كثيرة؟". قال العجوز للفارس الأنيق:"ربما لِعاطل عن العمل مثلك"، وتابع عمله. "أستحق يا زعيم الخير لم تترك مثلبة لم تُلصقها بي" فعاد الفارس ساخطاً على نفسه بسبب هذه النزهة التي لا معنى لها.

---

[1] يُفهَم من رواية خان جري على نحو خاص، للكاتب نفسه، ومن غيرها، أن الفلاح كان يحرث بأربعة ثيران، والحراث يحتاج في هذه الحالة إلى مَن يتقدم الثيران ويحافظ على اتجاهها الصحيح. المترجم.

سألهم حطاط بعدما انتهى من سرد الحكاية:
– ما رأيكما أيها الضيفان في ما سمعتما؟
– العاطل عن العمل يركب الحصان الكسول الذي يستحقه.– قال ماريم، واعتذر بنظرته إلى مينشاقه عن إجابته قبله.
اكتفى مينشاقه السائر على اليسار بالابتسام، فلم يُطق حطاط صبراً:
– وأنت يا مينشاق؟
– أنا أشفقت على الفلاح العجوز، الوحدة مأساة.
– وهل من له ثلاث بنات وحيد؟.. — بدأ ماريم كمن يسأل نفسه، غير أنه سكت لما سمع كلام مينشاقه:
– الابنة تبقى ابنة، والابن ابناً. يا ماريم، – وأضاف بعد سكتة: – البنات أغنَوا أعراقاً أخرى، ولذلك قال الأديغة: "الابن قائمة الباب، والابنة حافظة للغريب".
تنهد حطاط.
– أنت مهموم بأمر ما يا كبيرنا، هات، نخففْ عنك الحمل!
– أنا مهموم بأمور كثيرة، ولكني، ولو أجبتني على واحد منها، أشدُّ بؤساً من ذلك العجوز. في جميع الأحوال يملك محراثاً وثورين. وعجوزه على قيد الحياة، في حين أني وحيد تماماً. المجرمون القرم الذين تتوجهون إليهم سلبوني ابنتي الوحيدة. وأخوها الوحيد قتلوه أمامي. وأمهما لم تتحمل ما جرى لنا. وأملي الشاب الممتاز مامسر نقار هرب نتيجة المأساة. وهذا البائس يقال إنه يعيش في نواحيكم ناسياً الجانيه.
لجم أشبه مينشاقه حصانه فسمّره:
– والله هذا غير ممكن يا حطاط!
– هذا هو وإن لم يكن ممكناً.
– فيمَ يمكن أن ننفعك يا كبير؟
– ليس شخصي مشكلة، المشكلة في المجرم النغوي الذي هرب أمس. خِفتُ أن يقطع عليكما الطريق فرافقتكما. ولا أتجاوز شِرعة الأديغة فأسألكم عن

وجهتكم. ولكني واثق أني سأفيدكما إن كانت نيتكما خيراً.
– وكيف تفيدنا؟
– هل تعتقدان أنكما قادران على عبور البحر على الخيل، والدخول إلى القرم.
– ألا يبيعون الخيل أخيراً في سوق المعبر؟
– ما هذا الكلام يا مينشاق؟ ما هذا العيب الذي أسمعه، ألا يقول الأديغة: "من يبع حصانه يضع السرج على ظهره هو"؟ اتركا لي حصانيكما، تركباهما متى عدتما. أكرر كلامي: إن كانت نيتكما خيراً!
– وكيف لا تكون نيتنا خيراً؟.. نحن نبحث عن صبية جرى لها ما جرى لابنتك.
– هكذا! صرخ حطاط مما سمع، – أنتما إذن لا تعرفان راحة بالٍ مثلي.
ألقى مينشاقه نظرةَ ألم صادرةً من القلب على ماريم، وقال:
– ما العمل هذه أحوال عالمنا؟!
– نعم، يا ضيف، نعم، – نظل نقول هذا ونسكت فتنتهي أعمارنا... — وفي الحال توهج وجه حطاط، وأشار بقبضة تهديد نحو القرم: – انتكبت على أيدي هؤلاء الخانات. حرموني من أسرتي. أفهم أن لا فائدة من التلويح بالقبضة في الهواء... ولكن مع ذلك... وسمعت أنهم يتجهزون للإغارة على نواحيكم القبرتاي ولذا سأبث الرعب في قلب قائد جيشهم ولو لم يبق غيري. هيا يا مينشاقه صارحني بهدفكم كما صارحتكم فتريحوني.
كرر مينشاقه حرفياً ما كان يسعى إليه دون أن يؤلم العجوز الذي تجددت أحزانه:
– نبحث عن صبية جرى لها ما جرى لابنتك.
– وما عمرها؟
– تجاوزت الثامنة عشرة.
–هذه أصغر من ابنتنا بثلاث عشرة سنة. — ابنتنا اسمها سورت... ماذا قلت لي قرابة الفتاة لك؟
– ابنة أختي. — أضاف مينشاقه واثقاً أنه سيسأل:– ولكن لا أعرف كيف

أشرح لك قرابتها إلى جرجه ماريم.
– لا تشرح لي وضع الشاب جرجه ماريم يا مينشاقه!.. ونحن كنا شباباً في زمان ما؛ ولكن من أين للشباب أن يعود! هرِمنا دون أن نستطيعَ أن نفهم السرّ... دعوني إن كان الأمر هكذا أروي لكم ما حدث لي مع صبية فأنفِّس عن مصيبتي بابنتي، ويسهل عليكم طريق القرم... – بدأ حطاط حكاية الصبية دون انتظار رأيهما: – في إحدى قرى الجانيه – الشابسغ عاشت فتاة لبيبة. في أحد الأيام دخل ثلاثة فرسان شباب دار الفتاةِ دون التوقف عند مربط الخيل. دعتهم الفتاة على عادة الأديغة، فأجاب أحدهم دون أن يترجل: لا، لن ندخل. وإن أخبرتِنا من أفضلُ ثلاثتِنا خرجنا من دارك. وهذه مهمتنا. أجابت الفتاة: "وكيف لي أن أعرف أفضلكم؟ ترجلوا وادخلوا البيت لأعرف". "إذن تأمَّلينا وستعرفين الأفضل من لعِبنا مع خيلنا". دار الفرسان بخيلهم أرض الدار: قفزوا بها، وارتموا تحت بطونها ثم استووا على صهواتها، ووقفوا على السروج، وقفزوا عنها... ثم قالوا: "أخبرينا الآن!". "كيف أعرف أحسنكم إن لعبتم بالخيل في أرض الدار المستوية؟ اذهبوا والعبوا حيث يقيم بْزَشه دولم وأسَقوه لامِفك، وأظهِروا شجاعتكم للناس". وفي ذلك الزمان كان دولم وأسقوه في أرض المعركة ضد القرم يُبينان عن شجاعة عظيمة. قالوا: "الفتاة حكيمة ولكن من أرسلَنا إليه مجنون" وخرجوا من أرض الدار.
السماء كأرض الظهيرة العاصفة: السحب تتجمع فيها، وتتدافع، وتتسابق، مغطية جهة القرم.
– "هذا ما يحدث... – أضاف حطاط للفرسان الذين قطعوا مسافة: – الرجال يتبجحون، والنساء يقلن لهم: لا تتناسَوا رجولتكم... يا دنيا، آه يا دنيانا المنحوسة ما العمل؟ وكم أمامنا من مخاطر؟.. – بدا معبر البحر قريباً فأشار لهم: ها نحن وصلنا؛ أعطياني حصانيكما، وتابِعا على الأقدام. لا تقلقا على الحصانين، لن أسمح لذبابة أن تحطّ عليهما. رافقتكما السلامة، وحققتْ شمسُنا العظيمة إلهتُنا مرادَكما. اسمع يا مينشاق: عندي لك رجاء فلا تؤاخذني؛ من يعرف، قد تلتقيان بجَتَشْأه سورت ابنتي، بلّغاها أني ما أزال حياً. وإن

أمكن اصطحِباها معكما...
كانت الريح تعربد، ولا تنوي الهدوء.

الفصل الخامس عشر

الجو جميل في مضيق باخسان: الشمس مشرقة، والأزهار البيضاء المحمرة التي تخلّت عنها أمهاتها تدوِّم في النسيم الدافئ. ومرتفع حارقور المدبب خلع عن نفسه لباس الحزن فهو طلق الوجه خلافاً للبارحة وما قبلها.
مامسر حجرت الذي لم تعد عيناه تريان جمال الطبيعة، توقف على باب دار قزنقوه جباغ معتدّاً بنفسه، ناثراً وقع الحوافر وراءه، ونادى:
– أنت يا جباغ!
– هذا أنا يا نقار، تفضَّلْ! – أجاب جباغ كأنه كان في انتظار مامسر حجرت نقار.
– هل تعرفني؟
– متى دعتْك أديغيتك إلى الترجل عن الحصان تعارفنا على نحو أفضل.
– ألست من يقول إن ذيل حصان الأديغي مشتعل دائماً؟
– لا، ربما واحد من أمثالك من دعاهم إلى هذا القول.
– أنت على حق يا أخي الصغير، أنا على عجل.
– من يستعجل يتأخرْ.
– وهذا صحيح. هل ترافقني إن طلبت منك؟
– ألستُ أديغياً؟
– أود أن أقابل الأمير الوالي حتخشقوه. ولكن علينا قبل هذا أن نقابل حالاً بج نغر.
خرج الفارسان خبباً من القرية دون أن يراهما الكثير أو يتابعوهما، وتوجها إلى قرية بج نغر. كان جباغ يسمع أخباراً متناقضة عن بج نغر، وتقييمات سلبية وأخرى إيجابية، ولا يتذكر أنه التقى به؛ دعْك من أن يسافر معه.
لم يكن من يحملون لقب حجرت في أرض الأديغة قليلين: يحومون هنا وهناك

دون أن تعرف ماذا يريدون. وإن صادفتهم أرعبك منظرهم، وإن سردوا لك ما جرى لهم استدروا شفقتك، وملؤوك طمأنينة. وحجرت نقار لا يعد نفسه واحداً منهم من حيث مواصفات الـ" حجرت": يُخيَّل إليه أنه فارس وحيد من أجل الحرية والحب. وهناك من يوافقه مثل أبرج مرزبج، ومن لا يوافقه.

التفت قزنقوه جباغ نحو حجرت نقار: رجل في حدود الخمسين، مجهز باللباس والسلاح كأنه خارج من دار أمير أو نبيل. ولولا أن اللحية والشاربين يُضفيان عليه العبوس فكساؤه الذي يمنح الجسم رشاقة، وقبعته تليقان به. ويركب حصاناً رفيع الرأس أصيلاً.

والتفت مامسر نقار سراً إلى جباغ، وابتسم في سره: "هذا الذي تعرفت إليه الآن، وكنا نسمع أخباره دون أن نراه، عمره نصف عمري. رجل لبيب متحدث خلافاً لعمره القصير. أنا أشهد له اليوم معاتباً نفسي".

– يا جباغ، يا زعيم الخير، يقال إن اللحية متى شابت لا يعود إليها سوادها، فأنا كذلك؛ لم أتصرف معك وفق شِرعتنا على مربط الخيل أمام دارك؛ سامحني!

– حسنٌ قولُك هذا يا نقار. ولكن لا تنس متى شاب شارباك ولحيتك، أن تبلغها بالنيابة عني هذا الكلام!

– كما فهمت "الشابُّ تُعرف سُمعتُه في شبابه، والمسن في شيخوخته".

– لم تخطئ. عجلتا العربة تعودان كما كانتا وإن خالفت بينهما.

– وإن تحطم محور العربة؟

– لا تخلو الغابة من الشجر!

قال نقار في نفسه:

– مهما قيل فيه فهذا الدقيق الأنف الذي اتخذته رفيقاً ذرِب اللسان.

– على ما يبدو: "أن ترى أحداً بعينيك خيرٌ من أن تسمع أخباره".

أجاب جباغ دون أن يخفف من سرعة الحصان، وقد فهم أن الحكمة موجهة إليه:

– صحيح، لا يُصاد الغزال الذي لم يُر، ولا يُروى الخبر الذي لم يُسمَع.

صاح مامسر الذي يسمي نفسه "الفارس الوحيد" غاضباً وراء الفارس الذي

سبقه، ولجم الحصان حتى ارتفع:
– يا قزنقوه! – على أنه عاد إلى وعيه فناداه بلطف: – أيُّ إنسان أنت أيها البائس؟! – ثم ترجل وقال له: – أمثالك نوادر، ولْيفقدْ من لا يُضمر لك الخير عينَه[1]!
– لا تقل هذا يا نقار، لا تدعُ على أحد بالويل. – ترجل جباغ بحكم كونه الأصغر – لا أعرف في نفسي ما تُعجَب به. أعيش مثل كل الناس متحملاً أفراح الحياة وأحزانها. ولأن من لا طموح لديه لا شيء يُسعِده فأنا أفرح متى أشرقت الشمس، وأنتظر شروقها متى خيم الليل.
– هل سمعتَ يا حصاني أقوال جباغ؟ – سال نقار حصانه الذي كان يُصغي بعينين سوداوين حادتين، وأضاف له: أنت وأنا نعيش لا معنى لحياتنا، ننام ونفيق بلا موعد ولا هدف، ونعد أنفسنا فارساً حراً عاطلاً عن العمل. نعم، لا تنظر إليّ بعين السخط، ولا تنظر إلى جباغ شزراً. نحن حران كالريح. سريعان كموج نهر باخسان، وتبحث عيوننا حيث قلوبنا... وماذا أيضاً؟ لا أعرف!
– حتى البعيد عن العين قريب من القلب. – أضاف جباغ إلى كلام نقار حذراً.
– نعم، نعم!.. – صرخ نقار، ثم غيّر الموضوع خجلاً من الضيق الذي دفعه إلى الصراخ: – ما الفائدة مما نتحدث فيه... تعال يا جباغ، لماذا نحن واقفان؟
لا يزال نقار يعيش حاملاً حزن الحب الخائب الذي مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً، يروي لنفسه، ويروي لحصانه. وهذه الإهانة التي لحقت به هي السبب، هي التي دفعته إلى أن يهجر الجانيه، ويهيم في أرجاء الجمكوي والبجدوغ والأبزاخ والبسلني حتى التجأ إلى القبرتاي، آنفاً من العودة إلى الأرض التي لقي فيها الإهانة. عاش في جبال الديغور والأوسيتين والشيشان والأنغوش. ولم يستطع الاستمرار فيها، فعاد إلى الأرض التي يأتي منها نداء الأديغة.
سأل مامسر نقار وذكرياته تتقاذفه: "يا ربي، أما يزال جَتَشأه حطاط، والد

[1] السجع بين نوادر ويفقد. المترجم.

سورت،حياً؟ وما أخباره؟ – ثم تنهد من أعماقه ودان نفسه: وأنا أخذوني إلى القرم، وإلى أن هربت منهم...".

أفاق نقار من أفكاره البعيدة حين سمع جباغ يقول:

– أن تكون حراً يا نقار، أن تكون ريحاً، وموج بحر، أن تكون مثل هذا الصقر، بل أن تكون ليلاً كالنهار،حسنٌ. ولكن ليس من أجل الحرية وحدها يحيا الإنسان.

وفي الحال انقض الصقر مريعاً وحمل بمخالبه الفأرة إلى السماء.

– ما هذا يا إلهي؟! — صاح نقار كأنه يرى هذا الموقف لأول مرة.

وكان جواب جباغ مختصراً:

– حرموا الفأرة من حريتها!

– وهل كل الأحرار أحرارٌ؟

– أنت أدرى بهذا يا نقار.

– أسألك لأني لا أعرف.

– وهذه السحابة المفردة حرة، وربما تتمنى أن تنضم إلى مثيلتها.

– ماذا تقول؟!

– أجبتك على سؤالك حسب اعتقادي.

– سأخبرك إذن بأحد تصرفاتي الماضية غير الحميدة قبل أن يشي بي أحد: يتعلق الأمر باستدراجي من قبل بعض " الحجرات " المنتمين إلى الجنوب. على أمل أن أرافقهم. ولكني تخليت عنهم إذ لم تعجبني أعمالهم القذرة التي يخدمون بها خانية القرم.

ابتسم قزنقوه جباغ في سِرّه، وسأله كمن لا يبالي:

– أظنك تقصد جماعة أبرج وبغنه، ولكن لا أعرف كيف ينسجم بج معهم.

– وكيف لا يكون معهم؟! والشاب جمركوي...

– لا خوف على الشاب جمركوي. – قطع جباغ حديث نقار، – أرسلته مجموعة الفرسان التي يقودها زبنه حسن إلى خاله بولتقوه.

انقبض قلب نقار مما سمع، وخفتَ صوته:

– نحن متأخرون دائماً عن غيرنا، – صحا نقار، واختتم كلامه: – عفارم يا بج انتصرت على الأبرج العنيد. لو عرفت لرافقت جماعة زبنه... كنت سافرت إلى نواحي الجانيه ولو لم يكن عندي شاغلٌ هناك.

– وماذا تفعل حيث لا عمل لك؟

– أما قلت لك يا قزنقوه ألا تتعلق بكل ما أقول؟.. ونحن مهمومون بأمر ما.

بعدما سارا خبباً بطيئاً بعض الوقت بلا مبالاة، خرج من عمق الغابة أربعة فرسان. وحمحم فرس الحجرت كما اعتاد، وأسبل أذنيه لمن رآهم. وأمسك نقار الزمام بسرعة وغمغم:

– ماذا يريد هؤلاء؟

– كلٌ يسعى وراء عمله. — قال جباغ، وأنهى بما يشبه ابتسامة: – لا خوف.

حين افترق الفرسان بالتحية، تابعهم نقار بعينيه، ثم سأل:

– ماذا تقصد بقولك "لا خوف"؟! لا أظن أن بينهم من خدمناه في أمر ما.

– مغزاه واضح: يحدث أن من تنفعه يعاديك.

– هكذا؟ تفكيرك عجيب... — قال مامسر خارجاً عن الموضوع الذي لا يبلغه تفكيره: – حسناً، ليس هذا مهماً. أمامنا عمل أهمّ. يُقلقنا جيش القرم الذي نسمع أخبار هجومه المرتقب. لن نبقى طويلاً عند بج، سنصحبه إلى الأمير الوالي حتخشقوه. ونسأله عن سرِّ سكوته.

– من الصعب اتهام حتخشقوه بمثل هذا.

– كفى! تظلون تقولون هذا فتخدعوننا.

قال بج نغر الذي اصطحبوه دون أن يعرف إلى أين على طريقة الأديغة، وهو يقف بين الفارسين بحكمه الأسنّ بينهم، بعدما ساروا مدة:

– الفارس الذي معنا لا أعرفه، يسرني أن تعرّفني عليه يا جباغ.

– إن أردت الحقيقة يا كبيرنا، – قال نقار منفعلاً من وصفِهم له بـ "الذي معنا"، – فلستم من أرافقه. أنا من يقودكم إلى الأمير حتخشقوه مصطحباً إياكما. أنا من أسرة مامسر من الجانيه، واسمي...

– هذا أنت؟! توقف بج نغر عن استكمال ما سأل عنه — من أسمع أخباره

ولا نراه، مامسر حجرت؟
– أنا مامسر حجرت الطليق.– وأنهى مردداً "مامسر الطليق": – تكلمنا على كلمة " الطليق" يا بج، وقد فصّلنا قزنقوه وأنا معنييها، كلٌّ حسب رأيه.
– يسرني هذا، أنا راضٍ عنه. — ابتسم بج، – يسرني أن تجدا معنى الطليق. والكلمة الأخرى "حرية الـ"حجرت" لا بأس بها إن كانت تنفعكما.
– لا أؤذي أحداً، – جزم نقار وقد أدرك ما لُمِّح به إليه. — لا أتابع يا بج إلا عملي.
– وهل للحجرت عمل؟
– ربما ما كان نقار يريد قوله هو إن العطالة لا سند لها.– قال جباغ، وغيّر كلام بج المبالغ في صراحته. — كل حرية يا كبير تلازم عدم الحرية. وإن لم أخطئ فأنا أظن أن هذا هو سبب اصطحاب نقار لنا اليوم.
– أنت مصيب في واحدة ومخطئ في الأخرى يا قزنقوه. ألا يقال إن في الصواب أيضاً خطأ؟ هذا هو إذن... هذان يا مبارك النسل هما ما أسلماني للشعور بالإهانة ودفعا بي إلى ركوب حصان التشرد. ولكني أستبِق فأقول لكما: لست من دفعهم إلى القول: الحسّاسُ للإهانة سريع الفناء.
– هذا يا قزنقوه يا أخي الأصغر؛ وقفتم معي لأخذ ثأري المنصف لأن الوقت الذي سأدرك فيه معنى هذا القول المأثور قد حان. وهذا هو السبب في أني أصحبكم إلى الرجل الحقيقي الأمير حتخشقوه. يا ربي هل يتعرف عليّ الأمير؟ كنت اصطدمت بسبانج أحد حراسه أسفل أوشحه مافه. ما رأيك يا نغر، يا زعيم الخير؟ هل يسمح لك هذا الرجل الضخم أن تهزمه؟ من حسن حظي أن الأمير لم يكن بعيداً فأنقذني منه.
كان قزنقوه جباغ يستمع إلى كلام الحجرت الطليق ولكن أفكاره مختلفة: " عالم الأديغة المتنافس مركب من عجائب كثيرة. الأقلية فوق، والأكثرية تحت الأقدام. هذا راكب والآخر راجل. هذا يحرث الأرض التي ليست له، وذاك يرعى مواشيه في غير مرعاه. ومن يفعل المعروف ويرميه في البحر لا يعود فيسأل عنه. ومن لا يعمل المعروف لا يكلّ عن ذِكر معروفه. ومن يُقرِض لا يوفونه

دينه... وأخطر العيوب هو أن يتهمك من لا دين له عليك، فيَدينك...".
– يا نغر، يا زعيم الخير، – يلمِّح نقار بشكوكه للكبير، – يُخيَّل إليّ أن جباغ لا يُصغي إلينا.
– وكيف لا أصغي يا نقار؟!. أُنصت إليك فتعود بي إلى تعبيرك " حجرت طليق"...
– لا تصدع رأسك بهذا يا قزنقوه، ما أقصده بهذا التعبير هو أننا، نحن الأديغة، أحرار طليقون. والموعد الذي سنختبر فيه هذا الرأي يقترب.
وضعت كلمات مامسر نقار الذي نسي وضعه بصفته "حجرت شريد" حداً لأفكار جباغ القلقة الحزينة:
– على رأيك يا نقار، فمن يتلق إهانة يجد الفرصة للانتقام. وهذا قول مأثور من قدمائنا، حققه الله لك!
دخل الفرسان الثلاثة قرية حتخشقوه وأفكارهم متباعدة كتنافر وقع حوافر خيلهم، ووصلوا إلى مربط خيل الأمير الوالي. ابتسم بج نغر لِما رأى:
– ها هو الحارس سبانج على الباب كأنه في انتظارنا، على مبدأ: من تأتِ على ذِكره تجده أمام الباب.
– وما العجيب في هذا؟ – ناكف نقار من ذكروا اسمه بنوع من العداء الحاقد واللامبالاة. — وهل كسر قرن الثور؟ ينفذ ما يؤمر به. يدعونا إلى الدخول ممسكاً بأعنّة خيلنا.
ساعد سبانج أولاً الكبير نغر، ثم جباغ كأنه سمع كلمات مامسر الحاقدة، وأمسك متردداً عنان حصان مامسر،فقال مامسر مستاء من برودة سبانج:
– وأمسِك أيضاً بالركاب.
– إن كنت تنتظر هذا مني أيها القزم فستبقى طويلاً على ظهر حصانك.
– لستُ مستعجلاً هذه المرة أيها المهرج.
اضطر أمير القبرتاي الكبير الوالي حتخشقوه الذي كان يستقبلهم متظاهراً بجهل حقيقة ما يرى أن يقول:
– لماذا لا يترجل رفيقكما؟ – ثم عرفه فناداه: – تفضَّلْ، أنت ضيف!

ترجل مامسر معتداً بنفسه.
– حياك الله أيها الأمير الوالي. أنا تأخرت عن رفيقي لأن بيني وبين الحارس سبانج شيئاً من الذكريات المشتركة. — قالها نقار بلهجة القبرتاي.
– يسرنا يا نقار أن تتعلم لهجة القبرتاي دون أن تنسى لهجتك الجانيه. — امتدحه الأمير وهو يدعو الضيوف إلى الجلوس تحت شجرة الإجاص الكبيرة أمام المضافة.
– أيها الأمير الوالي، اللسان الحلو أفضل من اللسان المر. — قال نقار وكأنه يعرف الأمير منذ مدة طويلة، وأصلح ما قاله قبل قليل: – إذا كنا وقفنا اليوم في مواقفِ ابتلاءٍ وحدتنا فليسمعْ نداءَ استغاثتنا "مارج" كلُّ من يسكن إقليم الأديغة. وهذا النداء يا زعماءنا الخيّرين هو ما دفعني إلى التوقف عن حياة الحجرت. ولهذا تحلّ أيها الأمير بالفطنة والرجولة لأن السيف في يدك. لا تتقاعسْ، ولا تدعِ القرمَ يهينوننا. ألا يكفي كم سمحنا لهم أن ينهبونا! من لا يلازم حدوده فلْنجعله يندم على جبروته بالقوة. ومجيئي إليك أيها الأمير الطيب مع رفيقيَّ الطيبَين إنما لهذا السبب فحسبُ.
نظر بج إلى مامسر بطرف عينه بما يعني: تأدَّب في حضرة الوالي الكبير، ولا تقل ما تريد بهذه الفجاجة. ثم التفت إلى قزنقوه.
قال حتخشقوه الأمير الكبير وقد لاحظ هذه الحركات:
– أكمِل، أكمل يا نقار، لا عيب في كلامك!
– وكيف أقول ما لا يجوز أيها الأمير الوالي؟ أنا مهموم بما ينتظرنا كما أنت. سلاحك سلاحي، ورجولتك رجولتي. — وأضاف بعد سكتة قصيرة: – وإذا كنتُم قد سمعتم صراحتي فأنا اليوم، حالاً، عائد إلى شركيسيا الدنيا. سيجتاز جيش قبلان — جري هذه المنطقة ولذا سأؤلف المجموعات التي تنُهك قواه في طريقه. — قال مامسر وكأنه سمع ما قاله بج في سره: "إن وافقوك!" — سيوافقونني! أليس ما نعمل من أجله مسألة أديغية؟
– نتأمل أن يساندونا، – لم يجعل الأميرُ ضيفه يندم على ما قاله، – أرسلنا إلى تلك المنطقة أشبه مينشاقه وزبنه حسن وغيرهما من الرجال الأقوياء.

– عندي بعض المعلومات عن هذه المهمات وعن غيرها. ويقال إن جمركوي،ابن أخت الأمير بولتقوه الذي لم تجانبه الفطنة شاب نشيط. حقق الله له آماله! إذن يا زعيم الخير وقد شهدتم على مهمتي فسأتابع سفري إلى حيث علمتم إلا أن تعيبوا عليّ إسراعي.

– اسمع يا سبانج: ابحث عن رفيق لك، وودِّعا ضيفنا مامسر نقار، – نطق الأمير اسم ضيفه باحترام وتقدير، – بما يستحق من التقدير.

قال بج نقار وهو يتابع بعينيه مامسر نقار الذي يودَّع بالاحترام:

– هل تثق بهذا أيها الأمير الوالي؟

تراقصت ضحكة خفيفة على وجه الأمير:

– الأمل دعامة، – نطق جباغ من قلب الأمير.

الفصل السادس عشر

كان البحر هادئاً اليوم خلافاً للأيام القليلة الماضية. فوصل مينشاقه وماريم في عبّارة سريعة متينة يقودها ستة مجذفين إلى القرم مع انحدار الشمس بعد الظهر. ولا يزال أمامهما يومان أو ثلاثة للوصول إلى عاصمة الخانية بخجساري. فاستأجرا حسب تعليمات مجذِّفهما خيمة في الحي الذي يقيم فيه خليط من الأرمن وغيرهم، واستأنفا طريقهما فجراً.

اليوم الربيعي المرهَق الذي لا يتأثر بريح البحر الباردة دافئٌ. وأوراق الأشجار المتقابلة تصفق مع الريح. وفي المراعي الجبلية قطعان من الغنم والبقر. وفي السماء بعض الصقور الشرسة. ويعبر الفرسان والعربات والحمير الطريق المترب. وفي القرى المتناثرة هنا وهناك تصدح أصوات المؤذنين.

– أظن يا مينشاق أن الإسلام متين في بلاد التتر، – قال ماريم.

– ليس مجرد ظن... — اختتم مينشاقه: – ألا ترى في كل قرية جامعين أو ثلاثة؟

– نعم يا أخي الكبير. ونحن لا نقتنع بما يقوله لنا الأفندي قسي. نقابل الله ونحن لا نعرف كيف ندعو إليه. ونركع له ونقوم.

– ألا تعرف "قل فو الله"؟
– أعرف.
– ما المشكلة إذن؟ الأديغة يدعون إلى الله مرددين هذه العبارة في قيامهم وركوعهم وجلوسهم، أن يحمي بعضهم بعضاً، ويتفاهموا وينبذوا الغيرة والتحاسُد بينهم.
– نعم يا كبير، نعم. أعِدك أن أنفذ هذا عندنا وهُنا.
– عفارم! – أثنى مينشاقه على الشاب، ثم مازحه: – لا تبالغ بهذه الحجة، وكما يقول جباغ فالقِربة متى امتلأت عسلاً انشقت.
قال ماريم بعدما مشيا مسافة وهو يتأمل في أقوال مينشاقه:
– يا مينشاق، تستطيع التفاهم مع التتر، ويحترمونك؛ ألأنك تعرف لغتهم؟
– لا أظنه السبب الوحيد، – ضحك مينشاقه سعيداً بما سمع، – ربما يظنونني من نغوي أرض بشزه من عينيّ الضيقتين وخدَّيّ المدوّرَين.
ليست كل الطرق متشابهة. هذا طويل، والآخر قصير، والثالث ضيق، مستقيم أو متعرج. هذا يرشدك إلى هدفك، والآخر يضللك. والثالث يضيع في الطريق الأعرض، ثم ينفصل عنه. وأفكار الناس تشبه الطرق التي تتلاقى وتتفرق. تُسعِدك، وتفنيك، تملؤك بالأمل، وتخدعك. تنجيك من الشر، وتؤملك بالخير. أفكار أشبه مينشاقه الذي ركب بِنيّة فعل الخير متنافرة كطريق القرم الذي هو عليه الآن، تعِد بالأمل، وتبعث على اليأس. إذا كان للبداية نهاية فكيف ستكون؟ أيكون يحشّ في الأرض الخالية من العشب؟ وإن رجع خائباً من الأمل الذي مضت عليه سنة فبأي عين سيقابل أخته وأهله وأصدقاءه؟ وكيف سينظر في وجه ماريم الذي اتخذه رفيقاً – أملاً؟
وعند مينشاقه همٌّ آخر: كلّفه الأمير الوالي حتخشقوه بالتحقق من الأخبار التي وصلتهم عن أوضاع القرم وما يجري فيها مما يتعلق بقضية القبرتاي. وإن أردت الاقتراب من الحقيقة فإنهم حين خرجوا من القبرتاي، ووصلوا إلى البسلني والمخوش والأبزاخ والجمكوي والبجدوغ والجانيه توضحت لمينشاقه هذه الأمور من خلال أخبار متناقضة. وتبعاً لما كان يرويه من تحدث إليهم، يبدو أن هناك

اتجاهين في أوساط القرم: ولكن أنصار قبلان – جري المؤيدين للحرب أكثرية. وهؤلاء معتدّون بالأمل الذي استمدوه من السلطان التركي أحمد. والعامة المتحمسون للحرب طمعاً في غنائم الحرب يزيدون يوماً عن يوم.
وما ينتظره الجميع هو نتيجة الاجتماع الذي سينعقد في بخجساري بعد غد. كان الناس مهمومين بالاجتماع وإن كانت نتيجة الحرب واضحة قبل انعقاده. لم يكن الفارسان الأديغيان قد أدركا أن جيش القرم سيغزو القبرتاي فحسبُ بل كانا يريانه رؤية العين، وأينما تجولت لا ترى إلا الفرسان والمشاة المسلحين. وأعجب ما في الأمر أنهم لا يتصورون أنهم ماضون إلى حرب في بلاد غريبة بل ذاهبون إلى سباق خيل أو حلبة مصارعة.
كان موضوع الأرمن والروم القاطنين في أماكن متفرقة في القرم مختلفاً. كانوا، وهم المتبجحون الذين لا أحد يعتدّ بهم، ويخيل إليك أنهم لا يعبؤون بشيء، ينتظرون ما سيحدث. وكانت كنائسهم المتشابهة — المختلفة عن جوامع التتر تنتصب تحت سلام الربيع.
بدا من ابتسامة العجوز الرومي الذي استأجر الفارسان خيمته أن وضع هؤلاء ليس مهماً جداً:
– أنتما لستما تتريين فهل تتجهان إلى اجتماع التتر؟ أم..
– ونحن يمكن أن نستنتج هذا من قبعتك الرومية أيها المضيف،– قال مينشاقه وقطع السؤال الذي بدأ يطرحه العجوز الرومي. ولم يُنكر أصلَه: – نحن أديغيان. ولكن الآخرين من روم وتتر وترك وروس يعرفوننا باسم الشركس.
– لم تسمح لي طريقة ركوبكما ولا طريقة ترجُّلكما بالخطأ.
– هل سمعت يا ماريم؟
– سمعت، ولكن لا أعرف كيف.
– سأقول لك يا أخي الصغير، – قال العجوز الرومي بالأديغية، – أنا سمعتُ اسميكما، وأنا اسمي بافوس، ونسبي: كابريدي. ولما هربت من أيبك مرزا الذي اختطفني من بلاد الروم تربيت في الملجأ الذي وجدته في بيت جارمه حاتاو. وعلى ما يقال كانت أسرة من "الغرون". ولم يبق منهم أحد هنا منذ عدة

سنين، بل انتقلوا إلى الجانيه. وأنا لم أغادر إلى بلاد الروم التي أنا منها. ولم أستطع أن أغادر إلى بلادكم. ولكني لا أنسى الأسرة الشركسية التي ربتني وقدمت لي النفع. الغني لا يحتاج إلى خيمتي، والمحتاج أنفعه. ولذا يُسعدني تعارُفُنا يا أخويّ. حقق الله أمانيكما إذ أن قلبيكما يفيضان بالخير.

– وكيف تعرف إن كان في قلبينا الخير؟ استعجل ماريم.

– الذين ينوون الشر لا يحتاجون إلى خيمة يسكنونها يا ولدي، – قالها العجوز الآن بنبرة أدفأ من سابقتها. هؤلاء يتجهون إلى عمق الغابة حيث الشجر كثيف.

– لا تؤاخذ ماريم يا بافوس، – ردّ مينشاقه، وهو يدين نفسه بسبب لهفة رفيقه الأصغر، مبدياً ثقته بالعجوز بنُطقه اسمه، وأضاف على طريقة الأديغة: – لا يزال هذا شاباً حدثاً يا كبير، عنده ما يقلقه. أوضحت لي بأخبارك مرة أخرى أن العالم مركَّب من المفاجآت. ولكن يُسعدنا قولك "في قلبيكما الخير". وبالإضافة إلى القول المأثور: "من لا هدف له لا يستطيع المرور من الباب" فقد أوصلَنا أملُنا إلى القرم وإن كنا لسنا متأكدين من تحققه.

– الخير يغلب الشر يا صديقي كما كان حطاط المسكين يقول؛ لماذا لن يتحقق؟ – قال العجوز بافوس كأن كأس الشاي التي يُبعدها عنه أحرقته.

– ماذا قلت؟!. — هل قلت: حطاط؟ – سأل مينشاقه مستغرباً الاسم، غير واثق.

– نعم جانيه حطاط؛هل سمعتما بمن نطقت اسمه؟

– لم نسمع باسمه فحسبُ؛ أوصلَنا قبل أيام إلى المعبر، بل أودعْنا عنده حصانينا!

– سبحان الله، سبحان الله، كما كان أحد أصدقائي الممتازين التتر يقول، ما أعجب أن تتعارف في دنيانا الواسعة كأننا في قبر لا يتجاوز طولة بضعة أذرع ،. وعرضه أقل من نصف طوله. ما أخبار حطاط التعيس؟

– وماذا ستكون أخباره؟ يعيش وحيداً،كما تعرفه، وقد فقد ابنه وعجوزه، على أمل ان يجد ابنته التي خطفوها إلى هنا.

– نعم، تنهد العجوز الرومي وبدا من لون وجهه ألمُ قلبِه. — أنا وحطاط حاولنا كثيراً العثور على ابنته سورت بلا جدوى. وعلمت قبل مدة قريبة أنها واحدة من أفضل طباخات قبلان — جري. — انتفض ماريم مما سمع، ونظر آملاً في وجه مينشاقه، ولكنه خفضه دون أن يتلقى الجواب الذي ينتظره. وتابع بافوس الذي لا يعرف مشكلة ماريم: – جاء حطاط إلى القرم مرتين بصحبة شاب ذكي ذي كفين ضخمتين اسمه نقار. ويقال إن هذا الشاب كان يحب سورت... — تبادل مينشاقه وماريم الآن نظرات صريحة. ولكن العجوز الذي لاحظ الحركة تابع الخبر متجاهلاً إياها: – هذه هي حال الدنيا. خانات التتر يربون أولادهم عند الشراكسة بصفة أتاليق، فيصبحون أقرباء. ويحبون الزواج من بناتهم الجميلات... اسمعا، سأروي لكما خبراً آخر: هناك فتاة شركسية جميلة أخرى اسمُها نالمس يحتفظون بها في جناح حريم قبلان– جري.

– هل اتخذها زوجة؟ – احتدّ ماريم.

– لا، لا يتزوج خانات القرم أربع نساء كما يفعل سلاطين الأتراك. الخان مخلص لزوجته الوحيدة ألسو. والفتاة نالمس يقال إنهم يجهزونها لـ "شرال" السلطان التركي[1].

---

[1] يكتب العالم عبد الله جلنار: تعني كلمة شرال: "مستقل" أو "لا تُنتهك حدوده". وبتعبير آخر فالكلمة ترتبط بالعالَم الإسلامي. لم يكن شرال بخجساري مثل شرال إستانبول الذي جمع فيه السلاطين أجمل نساء العالم من كل الجهات. كان خانات القرم يختارون بنات الأغنياء والأسر المتنفذة فحسبُ، ومنهن كانوا يتزوجون. ونتيجة لهذا يمكن اعتبار الشرال في القرم جزءاً من نظام الدولة،عنواناً لرغبات الرجال المتنوعة. لم يكن خان القرم يتزوج أربع نساء، بل يكتفي غالباً بواحدة.

كان الشرال قسيماً لقصر الخان، فيه تعيش كافة نساء أسرة الخان، والجدات والأمهات والأخوات العوانس وزوجة الخان.

كانت الشابات يربَّين في شرال الخان على العزف، والغناء والفلسفة (كذا!) وسائر العلوم، بالإضافة إلى القرآن. وكانت نساء الشرال يتعارفن على مختلف العاملين في ديوان الخان.

– اهدأ يا ماريم! — قال مينشاقه الذي يفهم ما يعتمل في قلب الشاب يهدِّئُه.– البنتان على قيد الحياة.

بعدما جلس الثلاثة لا يتبادلون أي كلمة، ضرب العجوز بافوس ركبتيه براحتيه فجأة وقال:

– أظنني فهمت الآن مرادكما. ما تسعيان وراءه أيها الزعيمان ليس أمراً عادياً، بل مهمة تتطلب رجولة. سأصلي إلى مريم أم الإله أن تساعدكما على تحقيقه. جمعتنا حياتنا القاسية، ونفَّسنا عن كروبنا، وأنا أحب الحياة ولو كنت عجوزاً وحيداً فلا تتأملوا مني شيئاً آخر. الأفضل أن تسيروا على الأقدام ليلاً من أن تبدِّلوا الخيل. لم يبق على وصولكما إلى بخجساري إلا بضع غلوات حصان. هذا الطريق المار عبر الوادي الكثيف أقصرُ الطرق. ومن هناك أنتما ورجولتُكما!.. حاوِلا قدر الإمكان مقابلة مرزا قائد الجيش الذي كان الأمير

وكان لهن الحق، في أي وقت يردن،في هجْر مقر الخان والاستراحة في مكان يقع خارج المدينة أو على ساحل البحر.

وكانت النساء المقيمات في منازل الخانات يقمن بالأعمال الخيرية. فبالإضافة إلى ما يدفعن من صدقات، يقمن ببناء الجوامع. وبين نساء الشرال كثيرات من المسؤولاتِ عن العلاقات الخارجية والمتعلماتِ والمتميزات في كل شيء. وكانت نساء الشرال جزءاً من إدارة خانية القرم. وكان لزوجة الخان المرتبة الثانية بعد الخان،ولها الحق في إبداء رأيها في أي مسألة.

وبالإضافة إلى النساء كان أولاد الخانات يبقون في الشرال إلى أن يبلغوا السابعة. ومتى تجاوزوا سن الطفولة وغابوا عن أنظار الأمهات يبدؤون بالدراسة. وأحياناً يجري التعليم داخل البيت. وغالباً ما يُرسَلون إلى أتاليق في شركيسيا. والأتاليق الذي يُختار لابن الخان أميرٌ أو نبيل. والأتاليق يربي الأولاد على الرشاقة وحمل السلاح وبعض العادات الأخرى.

وأسرة جري — خان كانت تختار الزوجات من أغنياء القرم أو من بنات نبلاء الأديغة، وبنات الخان كذلك يزوَّجن من المسؤولين الكبار أو الأغنياء. ولم يكن لزوج ابنة الخان أن يطلقها أو يتزوج عليها. ولكن كان لهن الحق في هجْر الزوج والزواج من رجل آخر. المؤلف.

بولتقوه أتاليقه، إنه أحد الذين يفون بالوعد في قضايا الشراكسة، ويمكن أن يعارض قبلان — جري. ومن تسألاه عنه يدلكما. لمحا له إلى أننا نتبادل الثقة، ولكن إن حدث وعدتم إليّ لسبب ما فأنا أثق بقدرتي على مساعدتكما. رافقتكما السلامة والسعْدُ. إن استرحتما قليلاً. فمع السلامة والحظ السعيد.يخيل إليّ أن أحداً لن يشك فيكما لأنه لم يبق شاغلٌ في القرم إلا الاجتماع المأمول، ولأن لغتكما التترية سليمة.

كانت سماء القرم الربيعية بلا نجوم ولكن القمر المكتمل يطل أحياناً من وراء الغيوم فيرشدك في طريق الليل. وتعبر الشهب التي لا تدري مصدرها السحبَ ثم يستقر جسر النار المتقطع على السماء. وتتعثر الريح الخفيفة الباردة على الأرض. ووقْعُ أقدامِ السائرَين يضيع في ذلك النسيم. ويُسمع صوت بوم شارد من عمق الغابة. ويبدأ الأفق الشرقي يتلون شيئاً فشيئاً بالأحمر.

بعدما مضى عليهما بضع ساعات في الغابة وكلامهما قليل وما يقطعانه كثير، توقف مينشاقه فجأة.

سأل ماريم باختصار:

– هل من خطر؟

– لا!

– هذا خرير ساقية.

– إن كان سمْعُك مرهفاً إلى هذا الحد فلْنسترحْ هنا.

انصدع عمود الفجر فيما الرجلان يبرّدان وجهيهما وقلبيهما. وارتفع الأذان من الأنحاء معلناً وقت الصلاة. وجاوبه أذان من قرية غير قريبة ولا بعيدة. والأعجب من كل هذا أن حاضرة بخجساري التي لا تزال تبعد ساعتين أو ثلاثاً ظهرت من خلال الغابة الجبلية. تظاهر مينشاقه الذي لا يرى عاصمة الخان لأول مرة بعدم الاستغراب فقد أشار لماريم وهو يهدِّئ نبض قلبه:

– هذه هي يا جرجه بخجساري عاصمة الخان.

– أهذه هي مدينة القرم التي يقال إن فيها حريراً؟ – مازحه ماريم كأنه لا يعبأ بشيء.

– وأنا سمعتهم يقولون مثل هذا، ولكن هدفنا الذهبُ يا جرجه! – لم يكن مينشاقه يفهم ما وراء هذه الخاطرة ومصدرها، ولكنه قال كأن صوتاً خفياً يحثُّه: دعنا نتوضأ، سنريح قلوبنا ونرققها بصلاة الصبح. سندعو إلى ربنا الذي سنقف أمامه أن يعفوَ عنا مهما قلنا ومهما فعلنا، ويغمرَنا بعطفه.

لم يستطع ماريم الذي استغرب حماسة مينشاقه للصلاة، ولم يعرف السبب، إلا أن يسأل بعدما مشوا مسافة لا بأس بها متجنباً التفكير في الأخبار الجديدة:

– لا أعرف ما سيكون تعليقك يا مينشاق، أتعجَّبُ من دعوتك إلى الصلاة على غير عادتك.

– هذا ما تستغربه؟! – ابتسم مينشاقه وأكمل بعد سكتة: – لو كان العالم يسير كما نريد لكان هذا حسناً يا ماريم. انظر إلى مدينة بخجساري القائمة على المرتفع ببيوتها وجامعها ومناظرها المتنوعة؛ فكذلك الدنيا التي نسعى فيها نحمل اسم الإنسان ونحن نكاد ننفجر ضيقاً، ونضحك فيها ونبكي... نعم يا ماريم لا تصحح كلامي. لا أنسى أن الدنيا التي آتي على ذكرها دنيا عاجلة منقضية. حسناً لتكن فانية وعارية بشرط أن نطمئن فيها. ولا أنكر أني أفكر في أن قيام من لا نراه علينا لا يبعث فينا الأمان، لا يُضعِفني... ألا يمكن أن يكون هذا القيّوم علينا هو من حضَّنا على الصلاة؟ أم أن جهْلنا بما ينتظرنا يوهِن قلوبنا؟

ارتعب جرجه ماريم غير قادرٍ على تفسير الكلمات التي يسمعها من رفيقه مينشاقه لأول مرة. ولكنه لم يُخفِ:

– لا أعرف يا مينشاق كيف أطابق بينك وبين أقوالك.

ولم يغير مينشاقه رأيه:

– وأنت تعرف هذا ولكنك تُخفي. – ماذا تقول في المواقف الصعبة؟ أتقول: أنا رجل أم تبتهل إلى من تترجاه؟

– أهذا ما تتكلم عليه؟.. – تساءل ماريم وهو يستغرب أكثر من ذي قبل ما عرفه الآن وكان يحدسه،– وتظاهر بأنه يشرح لنفسه: – ربما يحمي الإيمان الإنسان... ربما كان يسهر علينا من يحمينا... ثم يا مينشاق هل تثق بالعجوز

الرومي؟
– ولماذا لا أثق بمن لم تؤذنا مخالطتُه إلى الآن؟ ربما ساقنا إليه حامينا الذي يحرسنا من السماء... — ثم أنهى: – عيب علينا أن نعيش عمرنا كفاراً لا دين لنا نستخف بمواعظ قسي أفندي، ونرفض ما يتقبله أبناء قومنا، ونرفض أن نلبس قبعتهم.
قال ماريم الذي لا يعرف جواب ما سمع، اعتباطاً:
– وأنا أرى هذا.
– الموقف الذي سنختبر فيه صدق أقوالنا يا أخي الصغير هو ساعة ندخل بخجساري، حين نزور سوقها.
قال جرجه لنفسه: " أي سوق ابتكره مينشاقه الآن؟.."، ولم يستفهم عما ذُكِر له.
دخل مينشاقه وماريم في الضحى الباكر بخجساري، ووصلا إلى السوق في ذروة ازدحامه كأن شيئاً مهماً ينتظرهما.
كان ربيع القرم يسبق كثيراً ربيع إقليم الأديغة، وأدفأ منه، فلم يخل السوق مما يحتاج إليه الإنسان: الفجل والملفوف والبصل والثوم والخيار والباذنجان والكرز والتوت الأسود والأبيض، وغيرها من الفواكه التي تُجلَب من المناطق الدافئة، إلى لحوم البقر والغنم والجواميس والدجاج. وإن أردت لحم البقر حياً سمعت خوارها من سوق آخر لها.
تسمع في السوق الذي تغلب عليه لغة التتر والأرمن والروم، لغةَ الروس والقالمق. وما لا يسمعه مينشاقه هو لسان الأديغة الذي يتنصت إليه. ولكنه يسأل بلغة التتر الصافية عن الأسعار ولو أنه لن يشتري. ويُلبس ماريم قبعة اللباد المستديرة الخاصة بالنغوي. أما ماريم الذي لا يعرف إلا بضع كلمات من لغة التتر فإنه يتظاهر بالخُرس مهما قيل له، كما نصحوه.
وفيما مينشاقه يدور في أرجاء السوق، ويبحث عن المحل الرومي لبيع اللحم الذي أوصاه به بافوس استوقف كلامُ امرأتين باللغة الشركسية ماريمَ رغماً عنه:
– أظن أن هاتين أديغيتان.

– لا تظنَّ! – قبّحكما الله! – ردَّت إحداهما، – اغتررتم برجولتكم حتى سمحتم لهم أن يخطفونا إلى هنا، فنكبتمونا!
لاطف مينشاقه المرأة التي رمتهما بهذه اللعنة من أعماقها:
– لا نستحق ما قلتِ لنا يا أختي.
– انظر إلى قبعتك التركية، واسأل نفسك أين قبعتك الأديغية!
– لا تلفتوا الأنظار إلينا، نحن نلاحق موضوع امرأة مثلكما.
قالت المرأة الأخرى الآن بنبرة لطيفة واعدة بالأمل:
– ما أحسن أن تعودوا إلى وعيكم!

الفصل السابع عشر

خرج مامسر نقار من البسلني ودخل في طريقه إلى المخوش أرضَ الجمكوي المغمورةَ بالضباب الصباحي، مصدِّقاً بطريقة ركوبه القولَ المأثور: "لا تنظر في عين الغاضب، فإنَّ نظْرَته تعثِّرك".
يتناثرُ وقعُ حوافر الحصان الوحيد في الضباب. ويتناثر قلق نقار من صدره فيصدم أشجار جانبي الطريق، ثم يتفتت على حواف الصخور الجبلية غير المرئية. وفيما يتفكر في الفُتات الذي يلمّه بقلبه يسأل نفسه: " ما الفائدة من الغضب؟ هل يراني الضباب الذي أنا فيه إن هددته بقبضتي؟ هل سيفهمني من عتّم أمل نورِ فجري؟"
نهرَ مامسر نقار الغارق في أفكاره نفسَه: "ما هذه الأسئلة وأنت الذي لم يضل الطريق في عالمه الأديغي؟ أأنا من يجهل إجاباتها؟ أحاول أن أسكت عليك يا مامسر ولكنك تتجاوز الإنسان الذي تصعب معرفتُه، مدعياً أن الضباب ليس ضباباً، وأن الريح لا تحمل الغبار، وأن الثلج مطر؟ ألم تسمع ما قال قزنقوه في ذلك اليوم؟ الشمس ليست لعرقٍ معين من البشر. بل تشرق على كل البشر. هذا مستحيل يا رجل! وهل تشرق على خانية القرم التي لا تضمر الخير؟.. هؤلاء كما يقول قسي أفندي في مواعظه يختبرهم الله في دنياه الفانية، فيفتح باب جنته للمستقيمين، ويلقي بالمذنبين وقوداً لجهنم... إن صحّ هذا فأنا أظن

أني سأكون من أوائل من يُلقى بهم في النار..."
نهر نقار الحصان الذي حمحم وكأن الصوت أسخطه:
– ما الذي لا يعجبك يا تُخُجي فتسيرَ وأنت تحمحم؟ ألم تفهم معنى "أظن"؟ لا تتخيلني مستحماً بماء هذا الضباب! يكفي ما أذنبتُ بحق الرجل الطيب حطاط الذي توانيت عن أن أكون صهراً له...
صدر سؤال مفاجئ من نقار: "هل سافرت كي تبرِّئ نفسك مما اقترفت بحقها وحقه؟" وأجاب في الحال: "ليسا وحدهما أيها البائس، بل قال لي: آن لك أن تصحو لأنك مثل الأديغة الآخرين التعساء".
بدأ الضباب يتلاشى في مرتفع الجمكوي بعد الضحى. وحينما انتهى نقار من اجتياز سهل "بْسِباي" رأى من خلال ماء الضباب أذني حصانه المدببتين والطريقَ الضيق الذي يسير عليه. وكان أشدُّ ما يُسعده هو كيف ترقق الشمس الدافئة ضباب الأرض شيئاً فشيئاً. والآن ليس هو وحصانه وحيدين إذ تنتصب أمام عينيه أرض الجمكوي القريبة. ويسمع خرير نهر بسباي ووقْع حوافر حصانه على نحو أوضح. ويرى حركة نُتَفِ الضباب العالقة في الأشجار، وتحويم الصقور في السماء.
خرج نقار من الضباب الرقيق ورأى شمس الظهيرة فأوقف الحصان على عادته. وحين قرر أن يترجل ويبتهل إليها بذراعين مرفوعين، حث الحصان دون أن يدري السبب وتابع سيره. وسأل نفسه وهو يمسح عرق جبينه: "هل أصلي صلاة الظهر إذن؟ سأصلي إن كان الله الذي لا تراه العيون يتفهمني...".
سأل مامسر نقار كما كان يفعل في الأوقات الحرجة حصانه:
– ما رأيك يا تُخُجي؟ – ثم لامه: – أنتظر جوابك يا مسكين، لا تدفعْني إلى الخطأ؛ يكفي ما أخطأنا... أنت تتصامّ، وكذا الشمس التي فوقنا، ولكني سأصلي كُرمى لسورت الفتاة التي اختطفوها مني إلى القرم؛ ألم يفرضوا عليها الإسلام؟ ألا يمكن أن يغمرنا برحمته اللهُ الذي لا ينفكّ شيوخنا الجدد عن ذكره!
أطلق نقار الحصان في المرعى المقابل للساقية وتوضأ. وبعد ما توجه إلى القبلة

في حضرة الله، وتلا بالعربية ما حفّظوه "ل هو الله..." وقوفاً وجلوساً، آملاً أن يحقق الله أمانيه، اتبعه دعاءَه بالشركسية: "يا من ندعو إليه، غير الشمس، مكرهين ولا نراه، أنت يا سورت، يا نوري، وأنا، أن يشملنا برحمته وعطفه، وإن أخطأنا أن يغفر لنا. يا حبي يا سورت، مهما جرى لك من مأساة حيث خطفوك فأنا واثق أن الله سيجمعنا ثانية لأنك لي. والذين آذونا وتسببوا لنا في المأساة سنُشهر عليهم قلوبنا الحامية سيوفاً. أنا مخلص لك يا سورت بقلبي وروحي، ولا تصدقي مهما قالوا لك عني..."

بقي مامسر نقار جالساً يؤدي صلاته – دعاءه،غبر عابئ بأصوات الخيل وراءه، ولا بجمجمة حصانه. ولما انتهى من أدعيته المزدحمة في صدره رأى الفارسين الواقفين وراءه.

– ما أعجب ما أراه، هل تصلي حقاً يا نقار؟! – سأله أبرج مرزبك ساخراً.

– لم تخطئ يا أبرج!

– كان هذا الرجل واقفاً بسلاحه أمام الله... – أضاف أتا – إلياس إلى كلام أبرج.

– لم أقف، – شرح نقار: – جلستُ أمامه على ركبتيّ.– ثم نادى حصانه بلا مزاح: – تعال يا تُجُجي، سلِّم عليهما!

تبادل الفارسان النظر. ولم يدعهما حصان نقار ينتظرانه.– لجم أبرج حصانه وترجل. ولم يتأخر أتا – إلياس عنه.

– تفضلا إن لم تكونا على عجلة من أمركما!

وأجاب أبرج:

– تدعونا على طريقة القبرتاي الكذابين الذين تعيش بينهم. نتفضل إن كان عندك سقف يؤوينا.

– ولماذا لا يكون عندي؟ – ابتسم نقار، وأشار بيده، – كل ما تريانه أرضي أنا، وسقفي وحدي. وماذا في الوجود ما يُسعِد أكثر من هذا! ما وصفتَ به القبرتاي أسمعه لأول مرة. ولكنهم لا يستحقون هذا الوصف، ولا أنا.

– كفاك ثرثرة! مالِكُنا أنت وأنا وكلِّ هذه الأرض هو خانية القرم. اسمع:

حصاني يعرج، أعطني حصانك بدلاً منه، نحن على عجل.
– أنت تهينني يا أبرج. هل نسيت أن الشركسي لا يعطي حصانه وزوجته لأحد؟!
– ألا تعرف أنك بلا شعور بالإهانة إذن يا مامسر؟! – إن كنت تريد أن تعيش على هذه الدنيا العارية...
– هذا هو المكان الذي يُحكم فيه على أحدنا بتقبُّل الإهانة.– ابتسم نقار ثانية، ولم يدع أبرج ينهي كلامه. – إن كان هذا رأيَك، وكنت واثقاً من نفسك، فلماذا أسمح لك أن تريق دمي البريء؟ إن كنت رجلاً فلْنتبارَ في الاختطاف من على السرج. فإن انتزعتني منه نفذتُ لك ما تريد!
– اسمعوا ماذا خطر له!– نظر أبرج متضاحكاً إلى أتا – إلياس، وسأل مامسرَ مستهيناً بجسمه: – أنت من سيباريني يا من أدعو من أجله الله أن يزيد جسمه نمواً؟! ألا تنظر إلى نفسك! حسناً إن كان هذا قرارك فلنتقبَّلْ ما كتبه الله علينا! أمسك أيها النغوي لجام حصانك ودعني أركب.
ولما ركب مامسر نقار أيضاً قال لخصمه:
– قف إلى يميني!
– هل أنت أشول؟
– لا، بل من أجل أن أصبح سهل المُتناوَل عليك.
مشى الفارسان بالترتيب المتفق عليه مسافة، ثم بدآ المباراة. اضطر نقار أن يرمي أرضاً الرجل الضخم الذي انتزعه من سرج حصانه. عاد بسرعة، فقال له الخصم الممسك بإبهام رجله، والذي لم يتقبل ما جرى له:
– أظنك خلعت إبهام رجلي...
– ليس الإبهام مشكلة إن كنت حياً. – مزح نقار مع أبرج، – في أسوأ الأحوال تتعادلان أنت وحصانك الأعرج. – اِخلع خفّك ودعني أراها. أهذه هي؟.. – شدّ الإبهام وقبل أن يجد أبرج الفرصة للصراخ أعاد المفصل إلى مكانه.
حين عادا إلى الساقية شكا أبرج الذي كان يبرّد وجهه بالماء:

– مرة أخرى غلبني مامسر، فلا أعرف ماذا سأفعل بحصاني.
– دعْني أرى قائمة الحصان. أظنها القائمة الأمامية اليسرى. رفع نقار الحافر ونظر تحته فابتسم: – سبب العرج واضح، هات لي الملقط!
– أي ملقط؟ كان ما سمعه أبرج مدعاة للسخرية.
– يا من أدعو له بالنماء! سواء قلت لكما أم لم أقل فأنتما لا تنفعان لشيء. هات لي أيها الأديغي وأيها النغوي الملقط من الكيس المعلق بسرج حصاني. هذا الحصان انغرزت خشبة مسننة في حافره.
– وهل هذا ممكن! — أسرع أبرج بالرد وقد احمرّ خداه. هذا من صنع أحد الفرسان الأباظة الثلاثة، أولاد الزنا، كما يقول القبرتاي، الذي ربحت منه خنجره في لعبة الكعوب. المهم أن يُشفى حصاني المسكين. سأقابل ابن الزنا هذا خلال بضعة أيام وأنسيه خنجره المصنوع من الحديد الأبيض، وأغرز قطعة الخشب في وركه.
– نعم يا مرزبج، نعم!– وافق أتا — إلياس فوراً، مرتاحاً إلى اتهام أبرج للفارس الأباظة الذي يُكنّ له الحقد. — هذا الخبيث يستحق أن تضربه إلى أن يعجز عن الوقوف على رجليه.
– حياك الله يا صديقي، هذا سهل. والآن هات ما عندك من الطعام، سنتغدى نحن ومامسر مما يسّر الله لنا. وكما كانت جدتي صاحبة اللسان العذب تقول: الطعام يقرب بين الناس.
– كيسنا فارغ، من أين نأتي بالطعام؟.. — لقى أتا — إلياس نظرة استعطاف على نقار.
– أنا لا أطلب من مامسر أن يُطعمنا. هيا أشعل ناراً سريعة، ثم هات لي من اللحم المجفف المطحون الذي في الظروف على الكساء، واغلِ لنا ماء يسوّغ هذا الطعام.
– ألم نتفق على ألّا نمد أيدينا إلى مدخراتنا؟ – تظاهر أتا — إلياس بالاحتجاج. — متى اجتزنا هذا التل وصلنا إلى قرية بولتقوه.
– كم مرة نهيتك عن أن تذكر لي اسم بولتقوه!

– نعم نهيتني، ولكن ألا يجب أن ترى ابنك داور؟
انتفض أبرج وقد ظهر عليه عدم الرضا من الخبر الذي اطَّلع عليه مامسر نقار:
– ليس نهاراً، بل متى حل الليل... — ولكنه صحا بسرعة، فاختتم متكلفاً اللطف: – وأنت ربما سمعت يا نقار، ابني الذي خطفه القالمق قبل سنوات استرجعه القبرتاي، وأعادوه متصنعين الشفقة إلى أمه ـ ابنة آل بولتقوه الثرثارة.
– لا خبر يخفى يا مزربج. أنا اعتبرت هذا مكرمة لبج نغر.
– وأنا كنت اعتبرته له لو لم يتجاوزني بج إلى والدة الشابّ.
لم يُطق أتا — إلياس صبراً:
– ولكن الأم أمٌّ يا مرزبج!
احمرّت عينا أبرج:
– وهل استشارك أحد؟ – هيا أسرع بمائك!
–كفى، كفى، لم أقل شيئاً، ولم تسمعا شيئاً، والماء جاهز.
لم يعرف نقار سبب التناحر بين الفارسين وإن لم يكن يعرفهما اللحظة فحسب. كان أبرج مرزبج من النوع الذي يقال فيه: كما خلقه الله؛ما يقوله أمرٌ حاسم. وما كان يستغربه هو موقف أتا — إلياس: يقول شيئاً ثم يتراجع. وفي كل مرة يختلس نظرة إلى مامسر. قال نقار في نفسه: "جرى بين هذين الرجل ما يعكِّر علاقتهما"، ثم تساءل: "ما هو يا ترى؟ أهو الملل؟ هذا ممكن. ولكني أرجِّح أن هناك سبباً آخر."
تناولا اللحم المجفف المطحون الذي في الظروف وشربا فوقه الماء الساخن.
لمّح أبرج لأتا — إلياس لا يُطيق طريقة تناوله الطعام:
– إيه أيها البائس، احرص على نفسك؛ إياك أن تبتلع ظرفي. النار معلقة في ذيل حصانك، لا يزال الليل بعيداً.
– وهل ظرفك طعام ذهبي فأبتلعه؟ – مزح معه، وأنهى: – لو كان ذهباً لربما ما رأيته ثانية.

– أغفر لك مزحتك المغرضة لأني أعرفك صادقاً. اسمعني يا أسباروخ[1] إروِ لمامسر ما جرى لنا قبل أيام من وراء جعفر بغنه الذي لم يكن يفارق لسانه في جبل البالقر.

– من حظك يا نقار أنك لم تكن معنا في ذلك اليوم ولا في الأيام الأخرى. — ابتسم أتا — إلياس، – ألا تعرف طبيعة بغنه جعفر؛ حين أصبح، متحذلقاً، يحرض أبناء قومه باسم أسباروخ البالقر الشجاع ضد جيرانهم القبرتاي، طردونا نحن وهو من قراهم.

– ليس إلى هذا الحد، – استعجل أبرج، – حين عرفنا أن البالقر غير راضين عما يقوله لُمنا بغنه وتابعنا كما فعلتَ أنتَ طريقنا.

– وهل تأملون أن يتوقف بغنه عند هذا الحد؟ – سأل نقار، وأجاب إجابة قاطعة: – أنا لا أتوقع.

– هل سمعت مدى فطنة مامسر؟! — سأل أبرج رفيقه وشهد عليه: – وأنا هذا رأيي، وموضع ثقتي. وإذا كان هذا رأيك يا نقار، ولأنك أصغر عمراً مني،فلي عندك رجاء: قابِلْ ابني دون أن أزور أنا آل بولتقوه، وقلْ له على طريقة الأديغة: تعالَ معي! لأنه قيل لي إنه يتحلى بالشجاعة مثلي، وهاته إليّ هنا. وأنا جاهز لأي شيء تطلبه.

---

[1] يكتب كوتلياروف ماري وفيكتور في كتابهما المعنون "سرُّ كاباردينو — بلقاريا"، وكتب الكلام نفسه الصحفي البلغاري ليونيد ستايكوف في مقدمته لكتابه "الخان أسباروخ": بعدما توفي الخان قُبرات عام 665 تفتّتت الدولة العظمى التي أسسها على يد أولاده. ولما استولى الخزر على بلغاريا الكبرى التي أصبح ابنه الأكبر باتابايان خاناً لها أخذ أخوه الأصغر كوتراغ قومه إلى الدون الأوسط، وأسس دولة بلغاريا الدون. وتوجه أسباروخُ خانُ عرق الأونوغوندور إلى القفقاس، إلى القبرتاي — البالقر. وتبعاً لما يكتب نوغمه شورا في "تاريخ العرق الأديغي" فإن البلقار– قرشاي هم أخلاف هؤلاء. وفي إحدى المراعي الجبلية قرب نالشيك سرير حجري كبير يقال إنه تختُ خان أسباروخ. ويعتقد البلقار أنك إن دعوت في مواجهته تحقق لك ما تريد. المؤلف.

"اسمع ما يدبّره هذا الرجل لي!"... – قال نقار لنفسه دون أن يُبدي عدم رضاه بما قيل له، ثم اشتعل غضبه: – "من أي نوع من البشر هذا؟" والتفت إلى أتا – إلياس الذي كان يمسح شفتيه، فخُيِّل إليه أنه لم يتقبل هو الآخر ما طلبه أبرج.

لم يصبر أبرج على صمتِ نقار:

– أراك لا تقول شيئاً يا نقار!

– لأني لم أسمع ما قلتَ.

– اركبْ يا مامسر حيث أمرتك لأني لا أكرر ما أقول!

قلق أتا – إلياس الذي يعرف طبيعة أبرج النزقة:

– يا أبرج، باسم الله تعالى الذي رزقنا... – رأى أتا – إلياس مجموعة الفرسان الخارجة من الغابة، والتي قطعت دعاءه، فقال: – من هؤلاء يا ترى؟ أظنه بولتقوه.

قفز أبرج من مكانه وركب:

– هيا اركبا! لماذا لا تزال جالساً يا مامسر؟

– وهل أنت وأنا على طريق واحد؟

التجأ أبرج المعتد بنفسه، لا يكاد أتا – إلياس يلحق به، إلى الغابة القريبة.

أصلح مامسر الخنجر والسيف المعلَّقين بقوة إلى كسائه القديم بالحزام الرفيع، وضمَّ أذنيه إلى قبعته، واستقبل الفرسان الخمسة على بعد بضع خطوات، ورحب بهم بتحيةِ سلامٍ:

– تفضلوا، وإن أبيتم فمع السلامة!

– هذا أنت يا نقار؟ – تعرّف الأمير بولتقوه على الرجل الرشيق الذي حياه، وترجل رغم كونه الأمير ففعل مثله رفاقه.

– يسرني يا أمير أنك لم تنسني بعدما عرفتني في إحدى مؤتمرات الأبزاخ.

– متى تاه أديغيان في العالم فاعتبِرها نهايتنا. نقول لك تفضَّلْ إلى قريتنا إذ لا يليق بنا أن نسألك عن الفارسين اللذين ابتعدا إلى الغابة.

– حياك الله يا أمير، إن كنت تريد هذا فلن أتجاهل دعوتك. كنت متجهاً

إليك لأرى ابن أختك على نية الخير لولا أن التقيت مصادفة بالفارسين اللذين ذكرتَهما عرَضاً في كلامك فأحّراني. وإن أردت الحقيقة فلا يخلو الأمر من أن لي بعض الهموم الأديغية معك.

– تفضل يا نقار، تفضل. أرسلنا ابن أختنا الذي تود رؤيته بالخير إلى المخوش في مهمة، وآن موعد عودته.

دفع القلق الحارس الأكبر الملتحي إلى القول:

– يا أمير، الفارسان اللصان يهربان منا... يُخيَّل إليّ أن السابق منهما هو ظهر أبرج.

توقّع الأمير ما سمعه، وكان كلامه مختصراً:

– الهاربُ لا يلاحقونه يا آيدَمِرقان!

الفصل الثامن عشر

يجري الإعلان بعد صلاة الصبح عن مؤتمر خانية القرم في بخجساري من قبل المنادين على منعطفات الطرق. ويُتناقل الإعلان نفسه في القرى البعيدة عبر الفرسان المنادين الذين يبلغ بعضهم بعضاً. يدعون أن يحل الله موضوع المؤتمر سلماً. ويُذكر اسم السلطان أحمد الثالث الذي مدّ جذراً لخانية القرم، واسم مؤسس الخانية حاج – جري الأول بالخير.

– المدينة كخلية نحل هائجة... – غمغم ماريم الذي لا يطيق ما يرى، ثم فرح بهم: – كأنهم في ورطة!

– النحل الهائج ليس هنا، بل في قصر الخان، ولكن لن يسمحوا لك بالاقتراب منه... وهل تعرف ما يقول هذان الرجلان التتريان مثل رواد السوق في ذلك اليوم؟ – سأل مينشاقه.– يقولان إننا سننتكب على يد قبلان – جري فلا يوفران شتيمة عليه.

– وهل لهم حرية الكلام؟

– لا تستغرب، ليست مهمتنا أن نرتّب أمور القرم، المهم أن تتحقق مهمتنا.

مهما رأى جرجه ماريم، ومهما سمع، وأجاب بنفسه على تلك الأسئلة من

زاوية فهْمِه، فإن أفكاره في تلك اللحظة لم تكن هنا في هذا البلد الغريب، بل في شاطئ البحر الأسود حيث اقتادت زوجة الخان ألسو المرائية نالمس وسورت.

قال ماريم لنفسه: "حيّا الله المرأتين الشركسيتين اللتين لعنتاه في السوق. لم تحلّ علينا لعنتهما بل سهُلت مهمتنا خلافاً لما توقعنا. اتخذت ألسو ذات الوجه المدور التي تحتكر كل شيء جيد لنفسها والتي تحب ما تقليه سورت، والجبن الذي تصنعه، طباخة لها... ما أخبارهما يا ترى؟ رأيتهما آخر مرة وقد ركبتا العربة بقصد الاستراحة... ربما تنتظرنا هاتان المسكينتان وعيونهما نحو ساحل البحر الأديغي، لا تدريان ما سيحدث... يا نالمس، يا نالمس، يا حبيبة روحي وقلبي!.. — صحا ماريم خجلاً من الكلام الذي صدر منه، وموّه عبر مامسر نقار: – لو عرف المسكين ما نفعل نسي بكل سهولة حياة التشرد التي يحياها..."

قال مينشاقه وكأنه خمّن ما يفكر فيه الشاب:

– أنت لا تصغي يا ماريم!

خرج ماريم من أفكاره التي تبعث فيه الضيق:

– نعم، هل قلت شيئاً يا كبير؟

– هاتان المجموعتان الكبيرتان من الرجال على وشك الاشتباك!

– وماذا سيكون موقفنا؟ هل نقف وقفة المتفرج؟

– قل إن كان عندك مخرج!

– ما تفعله أفعله معك يا كبير. لماذا نحجز بين الطرفين مادامت مهمتنا تحققت...

– هل هذا رأيُك؟..– سأل مينشاقه بحيث لا تعرف ما في قلبه، ثم ابتسم: – هؤلاء مثلُنا كما يقول جباغ: نار خفيفة ودخان كثيف.

– يا مينشاق!.. —كان ماريم قد احتدّ ولكن كونه الأصغر جعله يختتم بهدوء:

– تشبّهنا بمن لا نشبههم!

– هل جئنا إلى هؤلاء محاربين؟– ألا تتذكر ما عيّرك به نقار الذي عثرنا له

على سورت حين اشتبكتما في عرس ورسبي؟
ردّد ماريم ما قيل له مغمغماً:
– "مَن أمامه مهمةٌ ثرثارٌ، ومَن على جسده حبةٌ حكّاك".
– سأؤيد إذن من اتجهوا نحونا بقدر ما تسعفني لغتي النغوي ما دمنا لا نشكو من الجرب، ولا نحك جسدينا، وأنت تظاهر بأنك تصيح معنا. — وفيما مينشاق يحكي نيّتَه اشتبك الفريقان في معركة. وفي الحال قال مينشاقه للأصغر ماريم: – اهدأ لحظة! دعنا نمسك بالحصان الأزرق الذي قُتل راكبه... — أسرع مينشاقه فاعترض بقوته الحصان الجافل من الضجيج ومن رائحة الدم، فامتطاه، ونادى ماريم: – اركب ورائي!
كان البقاء في بخجساري ليلاً مدعاة للخوف، فخرج الاثنان من المدينة بسهولة لأن التتر اعتادوا على رؤية راكبَين على حصان واحد فلم يستغربوا. وتوجها إلى القرية التي يقيم فيها بافوس العجوز الرومي، وجريا بالحصان مسافة، ثم أوقف مينشاقه الحصان وقال وهو يربت على عنقه:
– هذا الحصان من القبرتاي. انظرْ إلى جانب فخذه الأيسر ترَ دمغة آل حتخشقوه.
جسّ ماريم خدَّي الحصان، وتأمل في عينيه الواسعتين، ومسح على جبينه.
– أظن أن حصاننا تعرف علينا يا مينشاق!
– وهل كان حصانَك يوماً فيتعرف عليك؟
– ينصت إلينا مرفرفاً بأذنيه حين نتكلم.
– ربما يحرص علينا.
– لا، لا، ألا ترى اختلاج شفتيه وفرح عينيه؟..
– أرى، ولكن لا أعرف ما سنفعل به.
ألقى ماريم نظرة غاضبة على مينشاقه ونصحه:
– لا تفكر! سنصطحبه إلى ديارنا.
– وكيف سنضيف مشكلة الحصان إلى موضوع ابنتي قومنا اللتين لم ننته من أمرهما؟

ارتعب ماريم من الكلمات المفاجئة.
– ولماذا لم ننته من أمر ابنتينا؟.. ألأن خطراً ما ظهر لنا من جهة الشاطئ؟.. إن كان هذا رأيك يا مينشاق فلا أعرف وقتها... — ثم أسرع بالإجابة وقد وجد مخرجاً: – هل تعرف ما سنفعل بهذا الحصان المسكين؟ سنتركه للعجوز بافوس الذي يعرف لغتنا، سيتفاهمان.
بعد ما نام الناس وهدأت القرية الرومية ترجل ماريم ورفيقه عند بافوس. سألهما العجوز لا يعرف مصدر الحصان الجاهز، مخمناً أنه للمرزا جَبار:
– ما هذا؟.. هيا خذاه إلى الإسطبل. إن اكتشف صاحبه الأمر كانت نهايتنا جميعنا. ثم أنصت إلى الجوار، وأكمل: – من حظنا أنه ليس في الخيمة من رآنا ويمكن أن يشي بنا. الآن حالاً انطلقا كما فعلتما في تلك الليلة. مهلاً، لا تُقاطِعني أيها الشاب! — نهر العجوز ماريم معترضاً عليه براحة يده نحوه، – كما اتفقنا قبل أيام، اذهبا اليوم وغداً إلى السوق غير البعيدة عند استراحة نساء الخان. وستجدان هناك الفتاتين بين الساعة العاشرة والحادية عشرة بذريعة شراء شيء ما. وزورق ابن قومي ديمتري الذي سيعبر بكما البحر جاهز. وهو راض عن الأجرة التي اتفقتما عليها في ظل أجواء الحرب الخطرة. وأنتما ثقا به. والآن أستمعُ إلى ما كنت تريد أن تقوله أيها الشاب.
التفت ماريم إلى مينشاقه خجلاً من تسرُّعه في الكلام، وقال بحذر:
– اعذرني يا بافوس، أنطقَني ضيقي بما نطقت. حياك الله على جهودك للعثور على ابنتينا. ولكن لا نعرف ماذا نفعل بالحصان الذي انتهى إلينا من حرب الأغراب...
– يا ماريم! — احتدّ صوت مينشاقه ولكنه نصحه بكلمات لطيفة تبعث الأمل: – ألم نتفق على ألا نتخلى عن حصاننا؟
– نعم، اتفقنا، وسنكسب ثواباً بهذا.
كان العجوز الرومي يعرف جيداً أن الأديغة يحبون الخيل، ولا يساوون به غيره، ويعتبرونه صديقاً، فاختتم النقاش الذي نشب بين الرجلين ووجهه يُشع بالفرح:
– وأنا أيضاً الخيل جزء من حياتي، ولا تزال في شيخوختي. ولكن عِداني ألا

تأتيا على ذكر الحصان الذي وجد مخبأ في إسطبلي، ولا أنا سأفعل. هناك مخرج من موضوع حصانكما الذي خبّأناه؛ وإلا كانت الدنيا فنيت منذ زمن بعيد. نعم يا مينشاق، ما نزال بفضل الله بعيدين عن اليأس. ولذا إن اتفقتما مع من سيعبر بكما البحر ديمتري صاحب البنية القوية والفم الكتوم فاعتبِرا الموضوع انحلّ. لا تُخبراه بأن الحصان كان لجبار مرزا. لماذا تتأخران... مع السلامة!

أغذَّ الرجلان السير في منتصف الليل: مينشاقه على الحصان الذي استعاره من العجوز الرومي، وماريم على الحصان القبرتاي الذي أنقذاه فجأة من الأَسْر. شاطئ القرم المقابل لبلاد الأديغة ليس بعيداً.فإن لم تظهر عقبات على الطريق، وأسرعا بالحصانين فسيصلان في تقديرهما مع الفجر الباكر.

لم يكن ليل القرم الربيعي مقمراً. ولكن كان المعلوم فيه أكثر من المكتوم، ولذا مشيا حذرين إلى أن اقتربا من نهاية رحلتهما فقال ماريم اعتباطاً ما لم يكن يستطيع البوح به وقد أعاد نور الفجر الثقة إليه:

– ليس حصانك المستعار سيئاً يا مينشاق.

– وهل تطمع فيه أيضاً يا مبارك النسل؟

– لا، بل أقول إنه ليس سيئاً.

– لا بأس هكذا. ولكن الأفضل منه أن نحيِّيَ النهار القادم على عادة كبارنا.

– أنبقى راكبَين أم نترجل؟

– سنحيي من ينشر الدفء في الكون، وكلٌّ زمام حصانه بيده.

– لا مشكلة في هذا، – قفز ماريم عن السرج، ورفع اليد اليسرى الأقرب إلى القلب، وأمسك الزمام باليمنى كما يفعل الأمراء والنبلاء. وفعل مينشاقه ما فعل رفيقه، ثم انتظر ركوبه وتبعه.

– وماذا بعد؟ ماذا تريدنا يا ماريم أن نفعل؟ – سأل مينشاقه مَن وراءه.

– أنا أريد الكثير أيها الكبير الذي أحترمه. ولكن، بعدما أبلغتُ أعزّ أمنياتي لهذه الشمس التي تنير السماء، لا أعرف كيف أبوح لك به، ألست الأكبر... ثم ألن يفرح المسكين نقار كما أفرح أنا...

– يكفي ما قلته يا ماريم.

وجد ماريم ذريعة لتجاوز موضوع البنات:
– أظن أن اجتماع ديوان بخجساري انتهى!
– لا تشغلْ بالك! ما قيل في تركيا هو ما سيقال في القرم. الفارس أعلى دائماً من الراجل.
– هل تعتبر تتار القرم راجلين بالنسبة إلى الأتراك؟.. — سأل ماريم بالطريقة التي يسأل بها عما يعرف وعما لا يعرف، ثم استدرك: نعم، نعم، وتتار القرم ينظرون إلينا النظرة نفسها.
– ما العمل؟ هذا هو الوضع في العالم: القوي يتنمر على غيره.
حين ارتقى الفارسان الأديغيان اللذان كانا غارقَين في الأفكار المتضاربةِ الغابةَ العميقة على المرتفع، ظهرت القرية المتناثرة على الشاطئ، والبحرُ الذي يبدو من منظره هادئاً. فقال مينشاقه:
– أظن أن هذا القصر الذي يظهر أمامنا هو مستراح سيدة الخانية، وهذه السوق البادية ليست بعيدة عنه. والبيت الذي على المعبر هو بيت ديمتري الذي وعدَنا العجوز أن يحل مشكلتنا. — وبعد وقفة أكمل بمزيد من الثقة: – آمل أن ننتهي هكذا من رحلة القرم يا ماريم.
صاح ماريم لنفسه في أعماقه: "اسمع ما يقول مينشاقه!.. يقول: "أظن" و"آمل"، ولا يقول "تحققت مهمتنا" فيفرحك. ومع ذلك يقترب من الجانب الذي يريده. ويتحقق له ما يريده. ورغم أن مهمتنا وصلت اليوم إلى نهايتها فلا تفارق عبارة "أظن" لسانه. ومهما طرح عليّ أجبته: "لا مشكلة" — ثم سأل الأكبر وهو يدين نفسه،سؤاله الساخر:
– هل "تظن" أم "تُنهي"؟ – وعاد إليه وعيه سريعاً فاختتم كلامه كأنه يموه على تسرُّعه: – ها هو الشاطئ الأديغي!
وأجاب مينشاقه بعد قليل كأنه غيرُ مهتم بما سمع:
– سمعت جدي مرة يقول: " ما تعرفه تماماً أفضل مما تعرف ". كل عمل له نهاية يا ماريم. إن قلت قبل أن تضع قدمك على الشاطئ الأديغي: أنا على الشاطئ، فأنت تضحك على نفسك.

وكان تعليق جرجه ماريم سريعاً:
– خلعتُ حذائي قبل الوصول إلى المخاضة.
قال لهما بلغة التتر ديمتري الرجل الكثّ اللحية والشاربين الذي استقبلهما وهما في آخر المنحدر:
– توجَّهوا إلى المعبر في الوقت المحدد، سيخدمونكما بما تريدان خلال ساعة. وانا سأحرص عليكما من بعيد هناك. والآن: لا رأيتموني، ولا رأيتكم!
– ماذا يقول هذا الرجل يا كبير؟
– أبلغني أن مهمتنا ستتحقق إن توجهنا إلى المعبر.
– هذا خبر سارّ إن صحّ، ولكن...
سأل مينشاقه ماريم دون أن يبدي قلقه:
– هل تتوجس منه؟
– إن كانت مهمتنا ستنجح فلماذا التوجُّس؟ قلتُ ما قلتُ دون هدف... ما مصير حصانك المستعار إذن يا مينشاق؟
– وهل لصاحبه دَينٌ علينا؟ قلت لنفسي: من يعرف ما سيجري لنا بشأن الحصان، فلم أدع دَينه يتضاعف!
– رضي الله عنك يا مينشاق! الآن أرضيتني.
– نقول يا ماريم: المُلْك لا يرحم، ولكنه لا يخلو من الفضل. غير أني لا أعرف ردَّ فعلِك متى رأيت ابنة أختنا... – تظاهر مينشاق بممازحة ماريم.
لا يتذكر مينشاقه أنه عانى ضيقاً وقلقاً مثل اليوم من بين الأيام التي قضياها في القرم. ليس لأنه لم يُلاق صعوبات في السنوات الخمسين التي عاشها، ولكنه كان يخشى أن يعود إلى قريته بلا جدوى، ويمثُل أمام أسرته النبيلة، دون أن يحقق المسألة الأسرية التي تعهد بها من تلقاء نفسه. وربما كان هو السبب في مزاحه مع ماريم على سبيل التنفيس عن الضيق.
أعاد مينشاقه التفكير في الموضوع فجأة: "هل جئتَ إلى القرم من أجل مسألتك الأسرية فحسبُ يا مينشاق، فقدَّمتَها على غيرها؟ – وأعادته الكبرياء التي ثارت في الصدر إلى الوعي، فسأل نفسه بنبرة أنعم: – ألم تر وتسمع ما

كان يقال في القرم في شأننا، شأن الأديغة؟ – ثم توجه عفوياً إلى الله بقلبه: – ارحمنا واشملنا بعطفك يا ربي. ووجِّه عدالتك تجاه كل من يُضمر لنا الشر، ويعادينا. واحم لنا حريتنا!".

تخلص مينشاقه من تبكيت الضمير، وقال شاملاً ماريم معه:

– لا داعي لليأس يا ماريم!

– وهذا رأيي أنا يا مينشاق.

...

قال لهما ديمتري الذي ينتظرهما حين وصلا إلى المعبر:

– أبعِدا الحصانين عن الزورق، وأمسكا بزماميهما، – وهمس لماريم الذي رأى الفزع على وجهه، وعلى مسمع من مينشاقه: – هما بين مجموعة النساء تلك.

كان قلب ماريم الذي ركب الزورق ينبض حتى كأنه سيخرج من صدره. وكل أفكاره متجهة إلى نالمس: يريد أن يراها ويكلّمها. ولكنه يخشى أن يكلمها فقد يكون قلبها تغير. وإن حدث هذا...

رأت نالمس ماريم فبدأ قلبها يخفق، وشحب وجهها، ثم احمرّ. ارتعبت سورت من الانفعال العنيف لنالمس بهذه السرعة:

– ماذا جرى لك؟

– ماريم، ها هو ماريم.

همست سورت لنالمس:

– أهو الذي حدَّثتِني عنه؟

انتصبت طفولة نالمس أمام عينيها فيما تقف سورت عندها: كانت هي وماريم معاً دائماً حيثما ذهبا. يلعبان معاً لعبة الغميضة... وفي الحال خرجت من ذكرياتها. لم يتغير ماريم منذ أن انقطعت عن رؤيته قبل أسابيع، بل قبل شهور. لا يزال على رشاقته وطوله وجماله...

كذلك التقت عينا ماريم بنالمس. ومن نظرة واحدة فهمت نالمس ما يعتمل في قلب ماريم، حبَّه ولهفته والشفقة التي في قلبه نحوها... خجلت نالمس وأسبلت جفنيها. ثم عادت إليها جرأتها فنظرت نحو ماريم. وقالت له: "أحبك، لم

أنسك".

لم يبق الآن شك في أن المجدفين الستة عشر وجهوا المركب باتجاه الشاطئ الذي ينتظرهم فيه حطاط الذي لا يعرف شيئاً.

الفصل التاسع عشر

قال مامسر نقار وقد رأى الفارس الذي يقول بنظراته: "إن كنتم رجالاً فالمسوني"، للأمير بولتقوه:

– ما أشد ما يرى نفسه كبيراً، أبرج الذي لا تسعه الأرض ولا السماء.

– ربما يستعرض نفسه لخان القرم الذي هو من رعيته... — قال أيدَمرقان الحارس، – استقبِلوا ثلاثتُكم داور. هؤلاء لا يتورعون عن شيء مما يخطر لهم. مَن هذا الفارس الذي ينتظرنا في البرية؟ كأنه الفارس النغوي الذي كان يرافق أبرج.

– لم تخطئ يا أمير، – شهد الحارس أيدمرقان على صحة تقدير الأمر. — هو أتا — إلياس النغوي.

– اعرفوا ماذا يريد.

– لا حاجة، – لم يقبل نقار وهو يتذكر مماحكاته مع أبرج، ولو أن أتا — إلياس لم يكن يتدخل، مدركاً من خلال عينيه الصفراوين أنه يقف معه. توقعت أن يكون جرى بينه وبين أبرج مشاكل كبيرة اليوم، ليقلْ بنفسه!

كان الفارس الذي اصطحبوه إليه من معارفه، ولكن الأمير سأله دون أن يسمّيه:

– هل كنت تريد أن نعبر طريق الجبل دون أن نصطدم لأنه ضيق أم تنوي لنا خيراً؟

– الطريق ضيق دائماً يا أمير على من ليس له. لا أعرف إن كنت سأسرُّكم،ولكن إن طلبتم مني الركوب ركبتُ معكم.

– ومن كنت بصحبته؟

– كان صهرَك أيضاً يوماً من الأيام.

هاج الحارس أيدمرقان من الكلام الساخر:
– فكِرْ أيها النغوي في ما تقول. من تقف في حضرته هو أمير الجمكوي الكبير.
– اسكتْ! – نهر الأمير الحارس. – أبرج كان صهرك أم صهري؟ ما يقوله الرجل صحيح. العالم طرقٌ واسعة وطرق ضيقة تتقاطع. وربما أعاد مثلُ أحد هذه الطرق، – الآن نطق الأمير اسم الفارس، – أتا – إلياس إلى وعيه. هؤلاء من نسل جنكيز خان سقطوا عن خيلهم في أرضنا، ولا يزالون يعيشون بيننا معتدِّين بقومهم الواسع العدد. إن كنت أخطأت فأنا أعتذر.
– أنت على حق. عرفت ما في قلبي. ما الفائدة الآن من الجري وراء حصان جنكيز خان أو باتوخان؛ فعلى قولكم أنتم الشراكسة "لا يصير الصغير كبيراً إن وسَّع عينيه".
– في رأيي يا أمير لم تقل ما لا يجوز أن يقال. وأنت أيضاً أيها النغوي قلت ما في قلبك نحونا. – قال مامسر نقار معتداً، وأكمل: – ولكن إن سمع وراق مبعوث الخان قبلان– جري المقيم في إيكونْحالْق ما قلتما فلا أعرف كيف سيتصرف معكما.
– إذا كنا تحمّلنا خانية القرم كما يقول أشبه مينشاقه فسيمضي ما بقي على نحوٍ ما. تفضَّلوا! ولكن احذر أنت أيضاً يا نقار لأنك شاهد على ما قلنا.
ومازح مامسر نقار الأمير:
– ألا يقال في الجمكوي: "الضيف الأديغي يقيم في حصن"؟
– والجمكوي هل يستطيعون الانفصال عن الأديغة؟ أريحوا أنفسكم فإن لم يكن يقال عندنا هذا طلبنا منهم أن يقولوا.
كان الأمير بولتقوه بولت يتكلم ويمزح، ولكن أبرج الواقف على رأس التلة التي يتجهون إليها لا يفارق ذهنَه لحظة. ومامسر المعتاد على حذر الحجرات كان يفعل الشيء نفسه. والأمير الذي أوفد فارسين بقيادة أيدمر لم تكن عيون الحراس الذين بقوا مع الأمير تفارقه لحظة. ولم يكن أتا – إلياس يقصِّر عنهم. الأمير بولت في ظاهر قريته ومع ذلك ليس واثقاً من الفارسين اللذين دعاهما

إلى مضافته. يقول لنفسه: "أبرج الذي اختفى عن رأس التلة، وهذان الفارسان كانوا أصحاباً إلى عهد قريب، بل كانوا جالسين معاً إلى نار الغداء. ولا أعرف ماذا جرى بينهم الآن: يتبادلون نظرات الحذر. ومامسر الذي قال: "ليقلْ بنفسه" لم أُلحّ عليه أن يكرر ما قاله بشأن النغوي. سيشي بعضهم ببعض ولو لم نتدخل فيهم. ليت داور المسكين لا يلتقي بوالده الصريح إلى حد الوقاحة... يقال: "قائمة البقرة لا تقتل عجلاً" ولكن من يعرف ما في قلبه؟ لماذا يلمّح لي مامسر، ومبعوث القرم وراق عبد الجليل باسم مرزا النغوي؟ ربما لأننا ننفّذ أحياناً ما يقوله إن شئنا أم أبينا... أين القبرتاي المتناحرون الذين لا يعرفون إن كنا أحياء؟ يتجهون إن أرادوا إلى صهرهم القيصر في الوقت الذي يتنازعون فيه منصب كبير الأمراء. والخاسرون بينهم يزوجون بناتهم لخانات التتر محمّلين إياهن آمالهم. ولكن متى تناحروا فيما بينهم على الزعامة قالوا لنا: ألسنا أديغة؛ بالله عليكم أن تقفوا إلى جانبنا. وتتار القرم المقيمون بيننا كالنغوي لا يوثق بهم. يغرزون سكاكينهم في الظهر وهم يعانقونك ولكن، مع ذلك، ألسنا نحن، الأديغة السفلى، مَن يجابه خانية القرم؟.. والجانيه قوم الحجرت نقار الذي دعوته إلى مضافتي يجابهونهم تماماً. ولكن سمعت بعض نواياه في هذا الشأن دون أن يكون عندي معلومات حتى أدلي برأيي فيها...".

– اختفى أبرج مرزا، – قال الأمير اعتباطاً، دون مبالاة، وقد صحا من أفكاره ملقّباً صهره بلقب "مرزا" على سبيل السخرية.

– ربما لا يحتاج إلينا... — ابتسم أتا — إلياس من عينيه الضيقتين، شاملاً نفسه وأصحابه السابقين بضمير الجمع"نا".

– وهل كنا أصحابه مثلك ليحتاج إلينا؟ – تمتم نقار.

– كلانا تغدى معه اليوم!

– وهل أنا مدين لكل من جلستُ إلى مائدته؟

– العادة أن يقال بعد الطعام: "الحمد لله".

سمّر مامسر حصانه وهو يقول لنفسه: "اسمعوا بِم يعيّرني هذا الرجل!.." وصرخ به:

– الحقّ يا نغوي هل أرسلك أبرج لتقاضيني؟!
قال له أتا –إلياس مخفياً شعوره بالإهانة من عبارة " أرسلك ":
– كان الأفضل أن تُطلِع الأمير على أني لم أسمح له بأن يرسلني إليه، من أن تسخر مني.
– إن كنت تقصد عدم قبولي أن أصبح وسيط أبرج إلى ولده داور بن أخت الأمير أمكنك أن تطمئنّ فقد أرسل إليه حراسه. ولكن لا أعرف كيف هجرت رفيقك الذي كنت تعتبره صديقك.
– سأقول لك: يجف غصنٌ من أغصان الشجرة فيسقط؛ هل سمعت؟
سأل الأمير بولتقوه نفسه غير عارف السبب: "من أي نوع هذان الرجلان اللذان أرسلهما الله إليّ؟". يتشاجران ويتفارقان، يتبادلان المديح، ثم الذمّ. مهما كانت العلاقة بينهما، وعلاقتهما بنا، ولو كان أحدهما من قومنا والآخر غريباً، فهما يحملان اسم البشر،وهما ليسا منهم. تحرّجتُ من أديغيتي، فدعوت الاثنين على مبدأ: حتى عدوك تضيفه متى دخل مضافتك. أقول هذا ولكن الأفضلَ الاحتراسُ في هذا الجو المضطرب. باتر أفندي مساعد وراق عبد الجليل في شؤون الإسلام، والذي أفسده منصبه لا يعرف كيف سيتصرف معي. مامسر عدوُّه، والنغوي الأخر صديقه...".
كان مامسر نقار متورطاً في الجدال ولكنه يلقي نظرات خفية إلى الأمير بولتقوه من وقت لآخر، يريد أن يعرف عنه المزيد وإن لم تكن معرفته به جديدة. وفي كل مرة يرى فيه شيئاً جديداً: رجل طويل قوي البنية، يشد وسطه بحزام فضي رفيع. والكساء الذئبي اللون الذي يتعلق به الخنجر والسيف والمسدس يناسب قامته. وفوق هذا قبعة من جلد النعاج من لون الكساء. وعلى كتفه الأيسر قوسه المنسجم مع باقي سلاحه. وعلى صدره تلمع ظروف الرصاص البيضاء. وسوط الحصان ملفوف على معصمه. ومشط جزمته العالية الصفراء في الركاب. ويتميز من بين رفاقه بحصانه الأشقر. دققت النظر في الأمير الذي رافقناه – ابتسم نقار في سره – ما أشد أناقته. ومع أنه أخبرَنا أنه يروض حصانه فهو كمن يذهب إلى مغازلة فتاة أو يعود منها. حسناً ليلبسوا ولْيتأنقوا

كما يشاؤون بشرط رعاية مصالح رعاياهم ويحموها. والنبيل أبرج المتلهف للإمرة واحد من هؤلاء. لا تكفيه نبالته فيلبس ثوب المرزا التي لا تتسع له. ويجعل من نفسه عبداً للقرم... إذا صحّ أن باتر أفندي استطاع أن يهيمن على هذا الرجل الضخم بولتقوه الذي له مظهر الأمراء ولكن ليس عنده إلا المال ويطوّعه، فلا أدري وقتها ماذا نقول وماذا نفعل. بقيت سيرة والد بولتقوه بين الناس حافلة بالرجولة. وابنه يسيء إلى سمعة الأب بطاعته العمياء للأفندي، والجمكوي الذين يقودهم ينتكبون على يده... ولكن إذا كنت أظلم هذا الرجل الوسيم فبأي عين سأنظر إلى نفسي؟..".

– لا أعرف نواياكم أنتم الشركس؛ حان موعد صلاة العصر وبدأت الشمس تميل. أبلغهم أتا — إلياس بما يقلقه.

تبادل الأديغة بمن فيهم مامسر الذي يتخلى عن عهد التشرد النظرات بسبب كلام النغوي. وتابعوا الشمس المائلة للانحدار، وتأملوا وجه الأمير.

– يبدو يا نغوي أن سمْعك مرهف إذ سمعت الأذان الذي لم نسمع به نحن؛ متى سمعته؟ – سأل نقارُ أتا — إلياس عن الشمس متناسياً ما قال عن الشمس:

– قلت إن الشمس تخبرنا، ولم أقل إن صوت مؤذن المصلين في الجمكوي وصلني.

وردّ مامسر نقار دون أن يبحث طويلاً عن الجواب:

– أذكّرك إن كان هذا هو الأمر بما قال أحد مؤذنيكم النغوي: – " يجب أن تؤذن يوم الاثنين ليأتوا يوم الأربعاء".

قال الأمير لنفسه: "الأفضل لنا ألا نتكاسل عن الترجل عن الخيل من أن يشي بنا أحدنا إلى باتر أفندي، ويصل إلى وراق عبد الجليل إن لم ننفذ الأمر الديني الذي لمّح به إلينا الشخص الغريب الوحيد بيننا.؛ فلنصلِّ العصر!"، وترك الضيفين الوافدين على الجمكوي يتشاحنان، وقال:

– إذن إذا كان الله جمعنا أيتها الجماعة فلْنتوضّأْ عند هذه الساقية!

وفي الحال ارتفع أذانٌ تائه من جهة المرتفع. ولما نظروا جهة الصوت راوا أبرج

مرزبج على المئذنة.
لم يطق أتا – إلياس صبراً:
– انظروا إلى هذا العديم الإيمان! لم أستطع طوال رفقتي به – اغفر لي يا الله – أن أعرف طبيعته. يتحول متى أراد إلى مؤذن، إلى أفندي، إلى مرزا، ولكن خنجره ملطخ بالدم، وكذلك يداه.
كان من عادة الأمير أن يصلي العشاء في البيت، وفي الوقت الذي نفذ فيه ما تتطلبه الصلاة،ونوى التوجُّه إلى المضافة سمع الضجة الآتية من جهة البوابة الكبيرة. فخرج من الغرفة ملهوفاً، خائفاً أن يكون حدث مكروه لابن أخته داور الذي أرسله إلى المخوش. رأى على ضوء القمر عدداً من الفرسان والراجلة متجابهين. وتعرَّفَ أبرج الواقف وراءهم، فسأل الجميعَ معاً:
– ماذا تفعلون أمام باب داري مثيرين الضجة في أنحاء القرية كلها؟
– هؤلاء يا أمير، – قال الحارس أيدمرقان، – جاؤوا يتتبعون ضيوفنا.
– ماذا ينوون؟ – كان الأمير بولت فهم نية قائد مجموعة الفرسان أبرج غير أنه سأل الحارس كأنه لا يعرف شيئاً.
– لا أعرف كيف أعبِّر عن هذا يا أمير... – يقولون سنستضيف ضيوفكم نحن أيضاً.
– إذا كان النغوي لا يعرفون أن الأديغة لا يغيرون مضيفهم فهل يجهل هذا "الأبرج"؟
– لا يهمني يا بولتقوه ما تعرف وما لا تعرف! – ردّ أبرج على الأمير، وأنهى بصوت أشد حزماً: – نفِّذْ ما يقول المسؤول عنك وراق عبد الجليل مبعوث الخان، وهو ما أقول لك تماماً.
– إن كنا يا أمير مَن يطلبهما هؤلاء، – قال مامسر الذي خرج من المضافة مع الأمير، – فنحن جاهزان لما يريدون.
– من يسأل عنكم أنت يا مامسر الحجرت؟! – خرج أبرج الآن من وراء مَن يختبئ خلفهم. – بل هذا الذي خدعتَه سيسترده أبناء قومه.
– لم يخدعني أحدٌ غيرُك يا أبرج! – ردّ أتا – إلياس على من أهانه.

خرجت مجموعة من الفرسان من وراء المنعطف ووقفت مواجه المحتجين. سأل أبرج ابنه كمن لا يهتم بما يرى:

– أهذا أنت يا داور من لا أتعرفه؟

– لا أستغرب أن تنكرني... – أجاب داور والده وعلى شفتيه ابتسامة استخفاف.

– يا ولد، أليس والدَك من تقف في حضرته؟!

– أنا أعرف طبيعة من أنا واقف أمامه!.. – لم يتراجع داور.

– اهدأ يا داور... تحلَّ بالحِلم!.. – نصح الأمير ابن اخته يريد منه أن يقصر الحديث.

– سأفعل يا أمير كُرمى لتقاليدنا التي تقول إنّ من يُهان يجد الفرصة للانتقام.

– هذا يا أبرج داور يتبع إنسانيتك ورجولتك. – شرح أبرج مرزبج لابنه القول المأثور.

أما باتر أفندي الذي كان واقفاً وراء زاوية الجدار ينصت فقد انضم إليهم متظاهراً بأنه لم يسمع شيئاً، ولم يفسح الفرصة لداور للإجابة، بل مدّ يديه الضخمتين بين المتجابهين قائلاً:

– أيتها الجماعة المسلمة، يا أمة الله الذي خلق الكون، لا تتبادلوا الكلام المهين الذي لا يليق بكم. الله العلي العظيم يراكم. وأنا أراكم بعينه وأتوسل إليكم. يا مرزبج، يا أحد عباد الله الصالحين، اجمع فرسانك. وأنت يا أمير الجمكوي بولتقوه، أعِدْ إلى مضافتك ضيفيك الحجرت المسلمَين كما تقول تقاليد الأديغة. وأنت يا أبرج داور، أنت في مقتبل العمر، عمر انفتاح أبواب الحظ لك، أرجوك أن تعمل على تهدئة المتخاصمين متحلياً بالصبر والرحمة، وباحترام الأكبر سناً منك مهما كانت العلاقة بينهم. شملك الله برحمته وعطفه، وجعلك من عباده المحظوظين. لِنُصبِحْ على خير وليس في قلوبنا إلا الخير والمحبة!

ولما بقي الضيفان المختلفا الأصل وحدهما في المضافة، وبعد أن أويا إلى الفراش، قضيا وقتاً طويلاً يتحدثان في ما جرى لهما، ولا يتركان موضوعاً لا يطرقانه.

قال نقار لنفسه: "ماكنتُ أثق بهذا النغوي ولكن تبيّن أمام أبرج مرزبج، وعلى مرأى من الجميع، أنه رجل حقيقي". ثم سأل نفسه تغلبه روح الحجرت المرتابة: "أيكون متفقاً مع مرزبج ويضحك علينا؟.." – ومدّ يده دون أن يكتفي بذهنه إلى خنجره كما فعل الآخر، فسأله موبخاً نفسه على مبالغته في الخوف والارتياب:

– هل تسمعني يا نغوي؟

– وهل تسمعني أشخر!

– لا، بل أقول ربما هو نائم.

– وهل تستطيع النوم بعد ما فعل بنا أبرج؟..

– لا مشكلة... – وأضاف بسرعة: – عاقَبوه بما يستحق فتشفيت به، ما لم أفهمه هو وصول باتر أفندي حالاً، من أين هبط الرجل علينا؟

– يخيَّل إلي أنه لم يكن بعيداً... – سأقول لك ما يطلقه شراكستكم على أمثال باتر أفندي وأبرج، – ضحك أتا – إلياس، – "لا يتراقص مختلفان".

مرة أخرى تذكر نقار القول المأثور: "إن علّمت النغوي لغة الشراكسة لم يدع لك الفرصة للكلام" فضحك في سرّه، وامتدح محدِّثه:

– منذ أن سمعت بسيرتك، وإلى أن تعارفنا لم أكن أحترمك، ولكنك لست امرأً سيئاً يا أتا – إلياس. لا أعرف من أين تعلمت اللغة الشركسية، ربما من أبرج مرزبج، أتقنتها.

– أنت مخطئ في شأن أبرج يا نقار. علّمني الشراكسة الذين نقيم بينهم. وأعرف شيئاً من لغة الأباظة. كانت جدتي تقول لي: متى تعلمت لغة الناس الذين تعيش بينهم سهُلت عليك غُربتك. وأنا، وأسرتي، نؤمن بهذا المبدأ. ولكن لا تفهموا أني أتكلم باسم أبناء قومي كلهم، وأني أتصاغر بهذا الكلام. ونحن من بقايا محاربي جنكيز خان وباتوخان الذين هزّوا الأرض، نعم من بقاياهم، كما تسموننا، ولذا لا تقولوا من وراء ظهورنا إننا فقدنا رجولتنا، وليس وراءنا أحد يعضدنا. نحن تسيّدنا القرم في فترة ما باسم القبيلة الذهبية...

نقض مامسر الصمت الذي ساد غرفة الضيوف التي تدخل إليها أشعة القمر:

– أنت على حق يا أتا – إلياس. لم أقصد إهانتك. ولكن لن يغفروا لك قولك الجريء: إنكم حكمتم القرم.

– لا أسمع هذا للمرة الأولى! – قال أتا – إلياس جازماً. – وهذا سبب عدم استقراري في خانية القرم التي نكبتني في شخصي وأسرتي. وهذا سبب مقاطعتي لأبرج الغريب الذي كان يخدعني.

– كان يجب أن تفعل هذا قبل زمن طويل...

– لو كانت الوحدة تسمح لك أن تفعل ما يجب أن تفعل، وما يجوز...

– أإليّ توجه هذا الكلام؟! – قال نقار قاصداً نفسه وإياه بالكلام. ثم سأله:

– هل كنت راجلاً أم راكباً؟ – وشرح سريعاً: – أقول هذا لأني كنت أستشير حصاني أحياناً.

– كان يحدث أن يفهمني حصاني وألا يفهمني.

– لا يُركَب حصانٌ لا يفهم صاحبه.

مهما حدث بين الرجلين اللذين جمعتهما المأساة، ومهما جرى من حديث، فالموضوع الذي كان ينتهي إليه قلقهما هو الحرب التي ستحرق آلاف غلوات الحصان بين القرم البعيدة والقبرتاي.

– ما من حرب خيّرة!

– نعم يا نقار. الحرب يضيع فيها العدل والظلم، الشجاعة والجبن.

– ما النصر إذن؟

– وماذا سيكون النصر؟.. يتلازم فيه الفرح والحزن.

حدّث نقار بما استغربه: "اسمع إلى أين يصل عقل هذا الرجل! – أستمع إلى الرجل الذي كان يسخر منه أبرج فأراه لبيباً، بعيد النظر، يستمع جيداً. ولكني حين سألته عن سبب عزوبيته لم يُجبني إلا بقوله: "انتكبت في القرم" ولم يصارحني بما فعلوا به. وأنا هِمت على وجهي بسبب القرم نفسه. لا أنكر ما فعلوه بالمرأة التي أُحبُّها سورت. مهلاً، مهلاً، كان أبرج عيّرني ونحن في البالقر: "أنت تصلح لجناح الحريم الذي خصَوك لأجله، وليس لهذه المهمة"... إن كان هذا عيب هذا الرجل فهذا ظلم ولا يجوز!؟.. " – غضب نقار في سره، ثم دعا

لمن أشفق عليه:
– تصبح على خير أتا – إلياس!
–وأنت يا نقار!
جاء النهار التالي بخبرين: الأول سار، والثاني مبهم صعب التحليل.
في الصباح المشرق الذي ركب فيه مامسر نقار وصديقه الجديد أتا – إلياس الطريق إلى الجانيه، توقفت عربة وراءها بضعة فرسان أمام البوابة الكبيرة لدار الأمير بولتقوه. ترجل الفرسان وصحبوا امرأتين مع مظاهر الاحترام إلى جناح النساء: إحداهما جأرف نالمس، والتي كانت إلى جانبها ممسكة بساعدها هي جَتَشأه سورت.
وفي الحال جاء فجأة فارسان لا علاقة لهما بالعربة،وقالا للأمير بولتقوه:
– مرزا وراق أَدْلَر، يدعو إليه الأمير بولتقوه باسم خانية القرم ظهراً.

الفصل العشرون

لم تكن قرية وراق أدلر مرزا "سرايْحالِق" بعيدة عن قرية الأمير بولتقوه. ولولا المرتفعات والمنحدرات العالية الثلاث لوصلت في أقل من ساعتين. والسواقي غير العميقة مما يصعّب الطريق الجبلي. وضع الأمير كل هذا في الاعتبار فأخبر ضيوفه بعد الفطور أنه لن يتأخر، وركب مع بضعة حراس إلى القرية النغوي التي دعَوه إليها.
ما إن خرج الأمير من قريته حتى انضم إليه دون استشارته عدد من الفرسان الحراس. ولما دخل عمق الغابة انضم إليه عدد من الحراس الذين لم يكونوا مع الفرسان المبلّغين بقدوم الأمير إلى سرايحالق. ولما رأى أشبه مينشاقه ومامسر نقار بين مجموعة الفرسان المنطلقة من القرية، استقبلهما الأمير وقال لهما:
– أنتما يا مينشاق ونقار، يسرني أنكما استقبلتماني. ولكن كان الأفضل ألا يدخل ضيوف وسطاء في الدعوة العاجلة الموجهة إلي.
– لسنا ضيوفاً يا أمير! – رفض مينشاقه التسمية، بل من وجه الدعوة إليك هو الضيف الذي رفضوا استقباله.

– كلامك صحيح يا مينشاق– وافق مامسر نقار النبيل القبرتاي، وأضاف للأمير بولتقوه، كأنه غير عابئ بالحب الحزين، مدّعياً شيئاً من الرجولة، وصورةُ سورت الجميلة التي اشتاق إليها سنوات، ولم يقابلها إلى الآن، أمام عينيه:
– وإذا كنتَ قلقاً على الفتاتين الضيفتين عندك فلا داعي للقلق، هما محميتان في المضافة التي يحرسها داور وماريم.
– صحيح، هاتان محميتان في مضافة النساء. — قال أتا – إلياس وهو يبتسم في سره لنقار، ووافق من رافقهم: – أنتم على حق أيها الشراكسة، ولكن لو سمعت كلامي يا أمير ما سمحت لك بتلبية هذه الدعوة. هؤلاء لا رأي لهم ولا هُم موضع ثقة.
– سأذهب إليه وأسأله عن حاجته ما دمتُ واحداً من الأديغة الذين إذا قيل لأحدهم: "تعال!" لبَّوا الدعوة. — أجاب الأمير، ومازح رفاقه: – ألن يقول لنا مضيفنا: "أنتم قليلون على أن تكونوا جيشاً، كثيرون حراساً؟"..– وبعد سكتة قصيرة مازح مامسرَ العازبَ المسنّ: – اطمئنّ الآن يا مامسر إلى أنه لم يبق ما يخُشى منه على نسائنا، وثقْ بنا!
كان كل الجمكوي من النبلاء وانتهاء بالعامة الفلاحين يحترمون الأمير بولتقوه بولت، لا لأنه أمير فحسبُ، بل لإنسانيته ورقة قلبه، ويحبونه. ولا يعني هذا أنه لم يكن بلا أعداء وحساد. متى تميزت بين من تقودهم، وأحسنت إليهم، فسترتسم صورتك في خيال من لا يحبونك. وسيصرعونك أرضاً في الخفاء دون أن تدري المصدر والسبب، ويتشفون بك بدلاً من أن يلحقوا بك فيُقيلوك من عثرتك.
ما العمل؟ هذه هي حياة الإنسان! ولم يبدأ هذا السلوك من شخص بولتقوه، ولن ينتهي به. ومن حسن الحظ أن الخير أكثر في العالم من الشر. وهذا ما يمدُّ العالم بالروح. وما يدفعه إلى الأمام. وبولتقوه يعرف ما ينقصه من هذه الصفات ظاهراً ولكنه لا يستطيع التخلص منها كما يريد. وأَفضلُ ما يعرف من نفسه من كل هذا هو تصديقه لكل من يشكو إليه. ولكن إن صارحته بأنه لا يعصي من هو أقوى منه تعلَّل بأن على الإنسان أن يطيع من يتقدمه، وأصرّ

على موقفه.
أهذا عنادٌ أم اعتياد على الطاعة؟ بولتقوه بولت عند الجمكوي أمير أصيل، لا يمكن مقارنته بأحد في الجمكوي أو تعليمُه شيئاً إضافياً. والمفتي؟ وإمام المسلمين في القرم المقيم في بخجساري؟ والذي فوقه في إستانبول؟... أليس ممثل هؤلاء في الجمكوي هو باتر أفندي؟ وأبرج مرزبك المرزا النبيل الذي يود الحلول محل وراق أدلر فيتآمر عليه، صديقٌ حميم له. ضحك بولتقوه من قلبه: " ولكن هل يمكنك ولو كنت نبيلاً أن تصبح أميراً وأنت لست من سلالة أمراء؟! لن تصبح أميراً أو خاناً إن ادّعيت وأشَعْتَ أنك أمير أو مرزا... حسناً، لا أدري. يبدو خان القرم مهيمناً علينا ولكن لا أعرف طبيعته. هذا يترك المنصب ويأتي غيره، ومن لا يقبل التخلي عن المنصب يُطيحون به. ومن لا يُطاح به يُقتل... وهل الوضع في القبرتاي أفضل مما في القرم؟ هناك أيضاً يتصارعون، يتنافسون على من الأقوى والأذكى. وهم في صراع على كبير الأمراء يتشاورون ويخطئون. لا أعرف كيف سيوقف حتخشقوه كرغوقه جيش القرم الذي سيتوجه إليه؟ ليتنا ألفنا دولة أديغية بدلاً من أن نتنافس، ونتآمر،ويسخر بعضنا من بعض!.. والآن تستنجدون بنا قائلين إننا عرق واحد...".
– ظهرت قرية سرايحالق... –قال أتا – إلياس بحيث لا تفهم إن كان مرتاحاً لما رأى أم غير مرتاح. وأنهى ما يحزنه: – كأن أبناء قومي لا يقيمون مراسم استقبال للضيف...
– لو كنا من تتار القرم لاستقبلونا... – قال مامسر نقار، ثم غيّر: – وأي استقبال ضيف كما قال الأمير؟ ها نحن جيش كامل!
سرت على شفتي النبيل أشبه مينشاقه ابتسامة، وتمتم بولتقوه نادماً على ما قال لهم:
– وحدث أن ذهبنا إليهم في جماعة أكبر من هذه.
– هل أنت واثق يا نقار من صاحبك النغوي؟ – سأل مينشاقه هامساً على غير عادته.
– أنا واثق منه هذه المرة، ولكن لا أعرف كيف سيكون سلوكه معنا إذا خالطنْا

أبناءَ قومه.– قال مامسر، وهمس في أذن النبيل الذي سأله: – هل تعرف عنه عيباً ما، سألتَ عنه قبل أن نركب أيضاً.

– من الصعب الثقة في عالم اليوم... — ألقى مينشاقه نظرة ارتياب إلى رفيقه، ثم شرح له كلامه معاتباً نفسه على ما فعل: – تكتشف أحياناً أن أقرب الناس إليك وأشدك ثقة فيه ليس أهلاً لها. كنت سمعتُ أن أبرج عرّض أتا — إلياس للإهانة في القرم إن صحّ الخبر. وهو شاهد على عُذرية سورت ونالمس، وأنا أصدِّق هذا.

– ما هذه الأفكار وماذا تقول؟ – أجاب نقار كاظماً غيظه بصعوبة، وسخر من ارتيابه العائد إلى حياة الحجرت التي عاشها، قائلاً: "انظرْ فيمَ يفكر هذا!". أوقف بولتقوه حصانه حين وصلت مجموعة الفرسان المختلطة إلى تلة سرايحالق، وقال لرفاقه:

– إن كانت الدعوة باسمي فتوقفوا أنتم هنا. وأنا ماضٍ إلى من دعَوني. وإن لم يسؤكم اختياري فمن سأصطحبه هو النبيل أشبه مينشاقه.

– يا أمير، – قال أتا — إلياس مستاء من عدم ذِكرِ اسمه، – كان يسرنا لو اصطحبتنا، مامسر الجانيه وأنا. كنت عملتُ مترجماً لك.

قال الحارس أيدمرقان بدلاً من الأمير الذي لم يلتفت:

– أقول لك أيها الضيف إن كنت لا تعرف أن الأديغي لا ينادي وراء من ركب: أميرنا يعرف الأديغية والنغوي ليس أضعف منك. وجدُّ من دعاه كان صهراً للأديغة.

– ربما كان وراق نغوي الرجلُ الحكيم يعرف الشركسية، – غمغم أتا — إلياس بلا توقف، – ولكن حفيده نسي تقاليد الضيافة الشركسية.

– اهدأ يا نغوي!.. — لم يستطع مامسر نقار الصبر غالباً عليه طبيعةُ الحجرات وحريته الفردية الزائدة، ثم سأله بصوت ألطف شارحاً له: – ألم تفهم أن وراق مرزا موفد خان القرم لا يدعو إليه الأمير ضيفاً؟

– هكذا؟ – سأل أتا — إلياس كمن لا يعرف شيئاً عن الموضوع، ثم برّأ نفسه وهو يزم عينيه الضيقتين: – كان بودي أن أقدم لكم نفعاً... ثم أضاف إلى

نفسه: – "الشراكسة الذي تركَنا خاناتُنا بينهم بعد ما اقتادونا، وهم الذين كانوا يريدون امتلاك العالم بأسره، صعبٌ أن تفهم عاداتهم وطبيعتهم. يدافعون عن أرضهم التي فيها روحهم، وما ليس لهم لا يلتفتون إليه ولو كان ذهباً. فيهم رجولة وإنسانية ورحمة مدهشة. فيهم ذكاء، يحمون حريتهم كما يحمون أمهاتهم. ولكن العجيب أنهم في داخلهم يتناحرون ويتآمرون على مَن فيهم الأقوى والأذكى. أُشفق عليهم ولا أحسدهم. وأبرج الذي ينتمي إليهم حلفت أن أثأر منه لِما دفعهم إلى أن يفعلوا بي. ألستم أصحاب القول المأثور: "من مد يده إلى عينك فمدّ يدك إلى روحه"؟.. سواء كنت أعرف أم لا أعرف سلفاً، ليس باتر أفندي والمجرم أبرج الذي يطيعه، ومن يتصنعون الدين، كما تتصورونهم. يجتمعون عند وراق الخبيث الذي يتظاهر بالمشيخة... لو اصطحبني الأمير اليوم لأثبتّ لهؤلاء المعدومي الشرف أني لا أزال أحتفظ برجولتي وإنسانيتي...".

ليس منظر سرايحالق، القرية النغوي، كمنظر قرى الأديغة. — الخيام المستديرة المدببة المنتشرة في البرية منصوبة دون شوارع معينة، تحف بها من الجانبين مرتفعات بارزة. والمواشي المتفرقة على التلال خارج القرية، والخيل، والغنم والجِمال، لا تحيط بها العين. وترى في مواقع الخيام غير المسورة بأسوار العيدان أو الحجر، أنواع الدواجن من الدجاج والديك الرومي والبط والوز... مما يمكن أن يكون وجبة سريعة التحضير، لذيذة. وعلى مداخل الخيام مرابط للخيل تذكِّر بالأشجار الشعثاء. وأكثرها لم يربط إليها حصان واحد. وأمام كل خيمة كومة من "الجلّة" وقوداً. وما ليس عجيباً عند النغوي، وهو عجيب عند الأديغة الذين يقيم النغوي في أرضهم،هو أنهم لا يزرعون إلا الفواكه وما يمكن أن يُظلَّهم في الصيف.

– يا أمير، – قال مينشاقه وقد تحرر من أفكاره: – هل النغوي نغوي في كل مكان؟

– ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا ضيف؟ – سأل الأميرُ مينشاقه وإن فهم مغزى السؤال.

– قرى النغوي القليلة التي تعيش بيننا في القبرتاي تعيش مثل هؤلاء مستعدين

للرحيل في كل لحظة.
– ولكن، – ضحك الأمير، – ليس عندهم نية الرحيل.– وبعد سكتة أضاف إلى ما كان يقلقه: – كما يقول البسلني: لا بأس، لِيقيموا بيننا، وليُعْمِ دخان جَلَّتهم عيوننا، بشرط ألا يتحالفوا مع أبناء جلدتهم القرم ويحاربونا.
– "البيلسان يُزهر، وكلٌّ يعود إلى أصله"، كما يقول قزنقوه جباغ، هذا ليس مستحيلاً.
– والبالقر الذين يعيشون معكم يقال إنهم من عِرق هؤلاء؛ كيف يتصرف هؤلاء معكم؟
– لا عتب لنا عليهم إلى الآن، وإن كانوا يغمغمون بحقِّنا من ورائنا، أو يحرضونهم علينا.
– ما من مكان يخلو من مثل هذه المشكلات. وهم كثيرون في ديارنا... وأظن أننا سنلتقي بأمثالهم في خيمة وراق مرزا. ولكن ألا يعيش جيراننا النغوي معنا في أرضنا مهما قالوا؟ ألا نتنفس من هواء واحد؟ ويهطل علينا مطر واحد؟ ويدوي فوقنا رعدٌ واحد؟..
– لماذا لا يُكنّون الخير لنا ونحن نكنه لهم؟..
– كنت وافقتك يا أمير على طيبة قلبك لو لم أكن أرى ما يفعلون بنا. لا أعرف، لا أعرف...
ظهرت عدة خيام كبيرة في أعلى القرية، أقربَ إلى ضفة نهر بشزه، بعيداً قليلاً عن القرية، تدلّ بشكلها على أنها خيام وراق مرزا. اقترب الفارسان الأديغيان من الخيمة التي رُبِط إليها حصانان، وترجلا.
بعد المقاتلَين اللذين استقبلاهما على مدخل الخيمة دون ترحيب أو دعوة، أُدخِل بولتقوه وأشبه إلى الخيمة التي تمتد مائدة من بابها إلى آخرها، على أرض وجدران مفروشة بالسجاد والبسط التي عُلِّقت عليها زخارف، وعلى السرير يجلس رجل أسمر سمين قصير ضيق العينين، وعليه قفطان،وعلى رأسه قبعة من اللباد. وكل هذا يغلب عليه تعدد الألوان. علّق مينشاقه في سرّه على ما رأى: "ربما كان مثلُ هذا ما دفع الأديغة إلى القول: "المجنون مولَعٌ بالملوَّن"، وضحك.

صدق توقُّع بولتقوه أن يلتقي بأبرج عند باتر أفندي ووراق مرزا فلم يستغرب ما رأى. بل قال لنفسه: "أيّ مهمة لهؤلاء معي؟"

قال وراق عبد الجليل بلغة البسلني المتقنة بعد بضع كلمات الترحيب:

– أنتم أيها الأمير وباتر أفندي، وأبرج مرزبج يعرف بعضكم بعضاً من قبل. أما رفيقك فيسرنا أن تعرِّفنا عليه إذ لا نعرفه.

– رفيقي أحد رجالات القبرتاي النبلاء من أسرة أشبه يا موفد الخان، واسمه مينشاقه.

– مهلاً،مهلاً، اسمعوني لحظة، هل أنت من نسمع باسمه ولا نراه كما يقول جيراننا البسلني؟ – سأل موفد الخان وراق أدلر الذي تذكَّر مجابهة بين منغل — جري الخان ومينشاقه في مسألة نسوية. والله وبالله[1] يسعدني أن تكون ضيف الأمير بولتقوه. ويسعدني أكثر أننا تعارفنا.

ردّ أبرج الذي لم يُطق كلام الأمير، ولا كلام وراق أدلر موفد الخان، على من كان ابن حميه سابقاً:

– وهل مامسر حجرت، وأتا — إلياس الذي صار رفيقاً له، يذهبان إلى الجانيه أم يعودان منها يا بولتقوه؟ ما الذي يسعون وراءه؟ ولماذا حوّلت ابني داور إلى عدو لي يحاربني؟..

ردّ الأمير بولتقوه الذي منحه الله طبعاً هادئاً على الأسئلة المرّة بسؤال حازم:

– وهل تحتاج الأسئلة التي تعرف أجوبتها يا أبرج إلى أجوبة؟

– أنا من يسأل، لا أنت يا بولتقوه. أجبْ إن كنت رجلاً.

استعجل باتر أفندي الذي لم يقل شيئاً إلى الآن:

– يا مرزبج، بالله عليك أن تتحلى بالصبر!

– لا تعلّمني يا باتر أفندي! — صرخ عليه أبرج وقد غشّى الدم عينيه. ثم فضح نفسه بصوت ألطف يدين به نفسه: – ألم نطلب منك ألا تساهم في الحديث؟!

---

[11] بالعربية. المترجم.

زمّ وراق أدلر عينيه مع الكلمات الأخيرة لأبرج، ومزح مع المشتبكين في الجدال:

– ما الذي جرى لكم يا أصدقائي الشراكسة؟ اصبروا قليلاً في حضرة الرجل القادم من القبرتاي. ماذا قلت يا ضيفنا المبارك مينشاق عن أخبار القبرتاي؟ وما حال الأمير الكبير حتخشقوه؟ سمعنا أنه تكفّل بمهمة مستحيلة عليه. وما أخبار جيرانكم أقربائنا البالقر الجبليين؟ تصلنا الأخبار أنهم يعيشون مكرهين معكم. — ياه، صرخ لنفسه من قلبه، –" كنت سأرى ما ستفعلون أيها الشركس لو حكمكم من جديد رجل صلب من نوع جنكيز خان وباتو خان!.. حقاً لا يُقصِّر سلاطين الترك وخانات القرم عنهم... سنرى، سنرى ما يحدث لكم بعد ثلاثة أشهر أو أربعة..."

صحا وراق مرزا من أحقاده الدفينة ونادى خدمه وقد نسي أن اليوم هو أول أيام رمضان:

– ألم يبق طعام في هذا البيت؟

نظر بولتقوه بطرف عينه إلى مينشاقه وقد تذكر أنه قدّم الفطور اليوم لضيوفه. وردّ عليه الآخر بنظرة تعني: "لم تُخطئ".

– يا مرزا، يا عبد الله، – رفع باتر رأسه الضخم، – اليوم أول أيام الصيام للمسلمين.

– نعم يا باتر، حقاً، اليوم بدأنا الصيام، وتسحّرنا. — وفي الحال تظاهر أدلر مرزا بتمويه كلامه بالمزاح: – قلتُ لنفسي: ربما لم يصل رمضان إلى إخواننا الجمكوي. — ثم شرح لهم أحكام رمضان دون مزاح: – كل الأقوام التي اعتنقت الإسلام أنزل الله العزيز عليهم أن يختتموا رمضان بِعيدٍ يستمر ثلاثة أيام. ويتلوه عيد الأضحى؛ أليس كذلك يا أفندي؟

– طبعاً، لا حاجة للسؤال عنه، – أجاب باتر أفندي سعيداً بتوجيه السؤال إليه.

– إن كان هذا رأيكم فلْيُحقق الله أمانيكم! ولتزِدْ مواشيكم وأموالكم كل يوم مئة ضعف. وليخفف الله ما بيننا وبينكم من توتر. والآن سأخبرك يا أمير دون

إطالة بسبب دعوتي لك وبشهادة النبيل أشبه مينشاقه. الموضوع هو داور بن أبرج مرزبج.– كان يريد إضافة: الذي سماه القبرتاي المراؤون "جمركوي"، غير أنه خاف أن يثير التعبير نقاشاً في حضور أشبه مينشاقه فأحجم.

سأله بولتقوه، وإن فهم ما يريد أن يقول وراق مرزا، مضيفاً نسب والد داور:

– هل جرى لابن أختي أبرج داور مكروه أم فعل أمراً سيئاً؟

– لا يا أمير، يقال: الأب الجيد لا يلد ولداً جيداً، ولكن ابن أبرج مرزبج الرجل الممتاز لم يرتكب ابنه ما يعيب. — شهد باتر أفندي صديق أبرج على حُسن تربية الولد نيابة عن وراق عبد الجليل، وأضاف: – ولكننا سمعنا بعض ما صدر عنه بحق أبيه مما لا يليق به. وكما يوصينا الإسلام ويربينا يا جماعة فإن من يجب أن يربي الطفل أبوه الذي يمد ساقاً قوية في أصله، لا أمه. وحين يحدث خلاف بين الأب والأم فتعاليم شريعتنا تقول إن الطفل لوالده بغضّ النظر عن كونه ذكراً أم أنثى. وإلا فلن ينشأ ولداً صالحاً ولا ابنة صالحة. أنا قد أخطئ ولكن دين الله سبحانه وتعالى لا يسمح لك بالخطأ. ومن أزاح هذا الدين لم يُقبل منه في الآخرة. إن كان ما قلته خاطئاً فليُصحح لي ضيفنا النبيل أشبه وأنا لن أؤاخذه.– لم يقل الضيف شيئاً فسأله: – ما رأيك أنت يا مينشاق؟

– والله لا أعرف يا أفندي. كلُّ ما قلتَه أسمعه للمرة الأولى فلا أعرف بِمَ أعلّق عليه. — ابتسم أشبه في قلبه، – ولكن إن أردت الحقيقة فليس قلبي في الدار الآخرة. لا تزال أمامنا مهامّ كثيرة في دنيانا العاجلة... ومتى وصلنا إلى ما أتيتَ على ذكره فسنرى...

– ما الأمر أيها البائس؟ – انتفض أبرج مع الغضب — ما الذي ستراه بعدما قيل لك: إنك في الدار العاجلة؟!.

لم يتحمل الأمير بولتقوه:

– يا أبرج أهنت ضيفنا متلاعباً بشرفك بصفتك نبيلاً.

– إن كان ضيفَك فهو ضيفٌ عندك، لا تصطحبه وهو غير مدعوّ. — والآن أفصح عن حاله تماماً، وغمغم بصوت منخفض: – لا يتأملْ أن نغفر له إهانته

أقطاي قائدَ الجيش في القبرتاي!
رأى مرزا الذي لم يتدخل إلى الآن النبيل مينشاقه يهمّ بالنهوض فرفع يده اليسرى مخفياً رياء النغوي:
– لم أكن أنوي التدخل يا مرزبج ولكن أيَّ ضجة أثرتَ ونحن في شهر الصيام دون اعتبار لمنصبي، ولا لمنصب الأمير بولتقوه، ولا الأفندي باتر، ولا الضيف النبيل مينشاقه القادم من القبرتاي؟ – وبعد وقفة قصيرة توسل إلى الأفندي باتر بصوت رقيق: – أيها الأفندي الذي أدعو الله خالق الكون أن يرضى عنه، هدِّئ مرزبج! نتفهم الموقف الصعب الذي هو فيه، ولكن متى هدأ قلبه غداً أو بعد غد فسنتكلم مع الأمير خال ولده، ونتأمل أن يفهمنا. أهلاً بكما من جديد، لا تؤاخذونا إن صدر منا بعض الكلام في غير محلّه.– ما إن أصبح الرجلان اللذان نصحهما وراء الباب حتى برّأ مرزا نفسه للضيف القبرتاي: – ما العمل يا ضيف؟ هذه حالُنا...ما من مشكلة إلا لها حلٌّ يا ضيفينا اللذين أبديا صبراً شديداً. سنجد حلاً ما. ولكن مشكلة المواجهة بين القبرتاي والقرم هي أعقد المشكلات. لو صالحْنا بين زعمائنا، – لا أعرف رأيكم أنتم، كان خيراً.
لم يعجِب وراقُ مرزا ذو الجسد القصير والوجه الأسمر المحمر، مينشاقه منذ الدقيقة الأولى من لقائهما.ألأنه موفد تتارِ القرم، أعداءِ الأديغة في إقليم بشزه الذين يعكرون حياتهم دائماً؟ هذا سبب جيد، ولكن اعتبار هذا حجة مبالَغٌ في صراحتها. ماذا إذن؟ ألأنه يتكبر على العرش المطرز الذي هو أكبرُ منه جداً حتى لا يَبينُ عليه؟ لا، الحقّ أنهم لما أُصطُحبوا إلى مضافته قابله بإنسانية، وهشّ له، وسأل عن صحته. وهدّا أبرج الذي علِق بالأمير عن طريق امتداحه لباتر أفندي، ولقنّ أبرج درساً، ثم أبعده من حضرتنا دون إهانته. وأصلح موقفه بادّعائه نسيان قدوم رمضان في هذا اليوم. وماذا بعد؟ صرخ مينشاقه معجباً بنفسه: "لا تطابُقَ بين ما في قلبه وما على لسانه!" ، تظاهر أنه مهموم أكثر منا بما يُهمّنا. وماذا قال لي بشأن حتخشقوه أميرِنا الكبير؟ "تكفّل بمهمة مستحيلة عليه" و يسأل عن البالقر "الذين يعيشون مكرَهين معنا". ونهَرَ أبرج

ووعده أن يحل مشكلة ولده في أقرب وقت. يبدو أنه يسدّ جهةً فيما يتظاهر بحفر الجهة الأخرى. يطلب المستحيل على مبدأ شردم جانحُت: "لا تخرجْ ولا تُقِم في البيت، ولا تدعني أدخل وأنت فيه".

نظر النبيل أشبه مينشاقه إلى الأمير كأنه روى له ما يشغل باله، وعاد فتوجه إلى آخر كلمات وراق أدلر مرزا:

– يُخيَّل إليّ يا مرزا أن الأمير بولتقوه سيوافقني إن تدخَّلْنا للإصلاح بين زعماء الطرفين. وسأقول لك رأيي الصريح فيه: إن كنا نريد التصرف باستقامة فالحقيقة ليست في القرم، بل في بلاد الشراكسة التي لا يعتبرها أحدٌ حتى مع القبرتاي دولة. هؤلاء يتناحرون ويتآمر بعضهم على بعض،ولكن لم يغزوا أي شعب إلا أن يدافعوا عن أنفسهم.ولا أتذكر إلى الآن أنهم خاضوا حرباً أهلية. نحن الذين لا تنتهي منا القرم وتركيا وروسيا وفارس، فلا ينفكّون عن الاعتداء علينا.

– ولكن أيها الضيف، – نظر وراق مرزا نحو الأمير، وقال وما في قلبه غيرُ ما على لسانه: أنت على باب الصدق. أنت مستقيم، – وأضاف في قلبه: "ولكنك لا تعرف إلى أي جهة ستعود". وكما كان يقول الأمير قانقوه الذي قتل المرحوم شهباز – جري في البسلني قبل أعوام والتجأ إلى القبرتاي: "إن كان تعدادك قليلاً فأنت ضعيف، وكل الأقوام القليلة العدد سيئة الحظ".

تردد اسم الأمير بولتقوه بضع مرات يريدون أن يساهم في الحديث الدائر بين وراق مرزا والنبيل مينشاقه، ولكنه كان جالساً يتظاهر بعدم سماع اسمه، يفكر في شخصه هو، وجاره وأسرته. وليس في هذا العام فحسبُ بدأت شؤون إمرة الجمكوي التي بيده تتعكر، بل في العام الماضي الذي أجبروا فيه منغل – جري على الهروب من القبرتاي. وكان مقتل شهباز – جري تسبب في مآس كثيرة، ولكن لم يكن للبسلني علاقة بالأمر، بل قالوا إن المسؤول أسرة الأمراء الإخوة قانقوه الذين عاقبوا شهباز – جري على تصرفاته الطائشة، فارتاح من لا علاقة لهم بمقتل الخان، بمن فيهم العامّة وغيرهم، ونسُوا الأمر شيئاً فشيئاً. والآن عادت قضية خانات القرم من جديد إلى إقليم الأديغة كله، لا إلى البسلني

والقبرتاي فحسب. — ألقى الأمير بولتقوه نظرة استخفاف إلى وراق مرزا، واستأنف أفكاره معتبراً نفسه خارج المضافة التي دُعي إليها: "من أثار من جديد كل هذه الأحقاد ونبش الماضي هم النغوي الذين يتزعمهم وراق مرزا. ولو كانوا وحدهم لهانت المشكلة، بل جماعتنا، أمثال أبرج، وأمثال باتر أفندي، وأقرباؤنا الأباظة الوصوليون أيضاً. ما الذي دعاني من أجله حالاً هذا الأحمر الوجه الذي كرّهني نفسي؟ أمِنْ أجل أن يحلَّ مشكلة ابن أختي داور أمامي، وأنصحَه أن يطيع أباه ويُعزّه ويحترمه؟ ولماذا موعظة باتر أفندي الذي لا يفارق موضوعُ العلاقات بين الرجل والمرأة مواعظه؟.. هؤلاء ينوون أن ينفردوا بي، كما فعلوا معي قبل مدة قصيرة، فأنفّذ لهم ما يريدون، وهم يتناوبون على مديحي وتهديدي. حسنٌ أن اصطحبت النبيل أشبه مينشاقه... أقول هذا ولكني سأبقى في النهاية وحدي بين هؤلاء...".

– يا أمير، أنظر إليك فأراك لا تُصغي إلينا... — نادى وراق مرزا الأميرَ ليُخرجه من شروده، وسأله: – هل هناك ما يقلقك؟

نظر الأمير الذي قُطعت أفكاره المتضاربة نظرة هادئة على عادته إلى من سأله، ثم ألقى إليه نظرة وُدّ، وابتسم له.

– نعم، يا ضيف، نعم، يا ضيف القبرتاي،– تغافل وراق مرزا عن السؤال الذي وجّهه إلى الأمير، وتابع كلامه: – إذا أردت الحديث عن كون القوم أقلية، تقصد بهم النغوي المقيمين بينكم، فهذا سوء حظّ. ولكن يا ضيوفي الشركس الأعزاء، لا تنسوا أننا كنا قوماً كثيري العدد حين كان الشركس أصدقاءنا أيام أجدادنا. وهذا الشعور القوي هو ما يمدنا بالحياة إلى الآن. وسنعيش طويلاً شوكة في عيون من لا يودّوننا. ولن أخفي عتَبَنا عليكم أنتم الشراكسة: بناتكم القبرتاي أَلْتِنْجاج ومَلْخُرْب عشقهما خانات قومنا الأغبياء، خان أستراخان النغوي، وخان القبيلة الذهبية النغوي، فعملتا على مصالحتهما بالروس، وخرجنا نحن صفر اليدين.

– كانت ابنه الأمير تيمرقوه ابن الأمير إيدار، زوجة للقيصر إيفان... — أضاف النبيل مينشاقه، مسايِراً صوت وراق مرزا الحزين.

– حسنٌ أنك ذكّرتني بها أيضاً أيها الضيف. وأنتم ألم أقل لكم إنكم انتكبتم على أيدي بناتكم وإن كنتم تُعزّونهن.

– وهؤلاء، – لم يتراجع مينشاقه أيضاً، – لا تنس أن تضيف إليهنّ زوجات خانات القرم، وزوجة جدك وراق التي هي جدتك.

عاد المضيف إلى وعيه حين ضحك الأمير بولتقوه الذي كان يستمع إلى مناكفة المضيف مرزا ومينشاقه:

– لماذا تضحك يا بولتقوه؟ هل نقول ما لا يُقال؟

– وكيف تقولون ما لا يجوز يا مرزا! — أقول إن خان القبيلة الذهبية الذي كان صهرَ كبيرنا تِحنامات إسماعيل كان رجلاً حكيماً.

– ولماذا لا تقول يا أمير إذا كان هذا هو الواقع. حقاً كان صهركم. كان أحد رجالاتنا البعيدي النظر... ولكن المسكين هو الآخر لم يكن حراً، شأنُه شأنُنا... — قال وراق أدلر مرزا، وفي الحال غير تعبير " شأنه شأننا ": – نعم، لم يكن حراً كما أنتم وغيركم. ومن أيضاً... لم يكن حراً في نفسه.

– الحرية لها معان كثيرة إن أردت، – قال بولتقوه.

– ما قلتَه يا أمير كلام كبير... — ألقى مرزا نظرة مرائية على الضيف القبرتاي، وأنهى بكلام غير مكتمل: – إن سمحوا لك أن تكون حراً بنفسك.

– رأس الإنسان، – قال مينشاقه أيضاً، – هو نقطة بداية الإمرة والرجولة والجبن. يمكن للإنسان أن يحمي حريته فحسب يا أمير، ولكن الحرية الكاملة لا يستطيع شخص واحد حمايتها. لا تُحمى إلا إذا تضافر عدد كبير من الناس متخلّين عن شخصياتهم الفردية. مهما أبعدتَ في النظر مؤلماً عينيك فكلامنا، ثلاثتنا، لا يتطابق.

ابتسم وراق مرزا:

– لا أوافق على هذا في شخصيكما يا ضيف.

– يسرني أن يكون هذا رأيَك فينا يا مرزا.

دفعت الضجة التي صدرت من جهة الفِناء مرزا إلى الانتفاض برأسه، وتبادل الأديغيان النظر.

أسرع الحارس باوبيك الذي اقتحم الغرفة بالقول:
– يا كبير "المرزات" هاجمَنا فرسانٌ شراكسة.
– وماذا يريدون؟
– يسألون أين ذهبتم بضيوفكم؟
– ألا يرون خيلهم على مربطنا؟
– يرون، ولكنهم يُشهِرون علينا خناجرهم.
– بلّغوهم أن أميرهم ونبيلهم ضيفان عزيزان عندنا.
– نبلِّغهم، ولا يسمعوننا.
– وأين حراسنا؟
– وقفوا وراء فرسان الأديغة.
– هذه هي حالُنا أيها الضيف القبرتاي مع الجمكوي والبسلني، وليس الأباظة أفضل منهم.– قال وراق مرزا منكسراً كأنه حزين لما جرى.– لا يثقون بنا، ولا يثق بعضهم ببعض... لا أعرف حلاً إلا أن أتوجه إليهم وأهدّئ الجميع...
– ولماذا تتحدث إليهم إن كانوا لن يفهموك؟ – يا مرزا إن لم يبق لك معي ما نقوله أو نفعله غير ذلك الموضوع، موضوع داور، فسنركب نحن أيضاً. وحراسك سيرتاحون.
– كما تريد إن كان هذا قرارك... — قال لهم مرزا وهو يودعهم إلى الباب: – لو جلستم مزيداً من الوقت لوجدنا موضوعات كثيرة نتكلم فيها. وها هو وقت الإفطار يقترب، نفطر معاً من طيبات ما رزقَنا الله. ولكن فيمَ نحن أحرار؟ ما نحن فيه هو الدنيا التي يختبرنا فيها الله سبحانه وتعالى. تسمعون ما يجري على باب دار مرزا، مع السلامة، نلتقي على خير إن شاء الله! — ثم أوقف الأميرَ ممسكاً به من ساعده، وهمس في أذنه: – الخراف المئة التي تكلمنا عليها أوصِلْها غداً إلى الجبل لتنضم إلى القطيع. وإن لم تفعل غرّمك ثلاثة أضعافها... لم يعرف أشبه مينشاق الذي رأى الأمير ينتزع ذراعه من يد مرزا كيف يفسر الموقف.

الفصل الحادي والعشرون

كل أشكال الفوضى، من أي نوع كان، بغضّ النظر عن المكان والسبب، تبدأ وتنتهي بطريقة واحدة. وهي لا تعرف تمييزاً بين الأعراق. وتبدأ بطلقة واحدة، وتهدأ بمثلها. وذا كانت الخناجر والسيوف تختلف في صليلها فما تترك على جسم الإنسان واحد عند الجرحى. وما تتركه من ندبات، تسبب الآلام نفسها بغض النظر عن أحجامها.

ما جرى اليوم في إيكونْحالْق، مفاجأة لمن سمعوا به وإن لم تُرقْ فيه دماء. ولكن الناس نسوه بسرعة كما بدأ بسرعة بسبب عدم وجود قتلى.

مينشاقه الذي كان في هذا الحادث، وفي أفكار أخرى، ثم رأى كيف انتزع بولتقوه يده من وراق مرزا، تنتصب أمامه من مدة إلى أخرى هذه الأحداث. ومع أنه كان يخمّن مصدرها فلم يكن يرى من اللائق سؤال الأمير عنها. وهو يحاول أن يُبقي الأمر سراً حتى لو باح له الأمير به. يحدِّث نفسه: يمكن هذا مساء أو صباح غد في موعد الانطلاق.

"كان موضوع إزعاج القرم والنغوي للأمير بولتقوه، والتنكيد على راحته، يُسمَع منذ مدة في أوساط القبرتاي. ولكن من أروي له ما رأيتُ بعيني اليوم سيصعب عليه تصديقه..." — مينشاقه بقي وحده ساعة انصرف رجالُ الجيران الجالسون معه في المضافة وقت صلاة العشاء. وحين انصرف الخاطبان نقار وماريم من الغرفة الأخرى حيث تُكرَّم الفتاتان العائدتان من الأسر، سأل مينشاقه نفسه غير راض عنها: "وهل في هذا عجيب يا أشبه؟ وهل ترى لأول مرة ما يفعلون بنا وإن وضعنا جانباً موضوع الفتاتين اللتين استرجعناهما من القرم؟" — وبعد وقفة قصيرة نهر نفسه أيضاً: "وهل نحن الأديغة أفضلُ منهم؟ ألم تر كيف حاول النبيل أبرج وباتر أفندي إهانة الأمير بولتقوه في مضافة مرزا النغوي؟ لا أدعي أن وراق مرزا لم يكن يساندهما، ولكنه تخلى عنهما بطريقة خبيثة مرائية. وهو الآخر فكرتُ في طبيعته فوجدت معرفتها صعبة. أظنه من النوع المسمى "حلو — مُرّ": أيدهما مرة، وتملّص منهما أخرى. ولما خرجا من الغرفة دانهما في حضورنا مسوّغاً عمله. وامتدَحنا نحن غير متناسٍ وجودنا في غرفته حذراً علينا،

وباشاً في وجهنا. وأعادنا مع الفرسان الذين أتوا وراءنا مع المزاح والتصنع. وطلب من حراسه الفرسان تشييعنا إلى ظاهر قريته مع مظاهر الاحترام... والأمير بولتقوه الذي نحن في ضيافته؟.. هو بين الجمكوي الذين هو أميرهم وبين التتر الأغراب. ولكن لا أستطيع أن أتّهم مَن نهرَ المرزا بمرفقه بالتخلّي عن أديغيته. وإن قلت هذا أثِمتُ بحقه...".

سمع مينشاقه مؤذنَ العِشاء، فنظر إلى الإبريق والطست وراء الباب غير متحمس للوضوء، وحين قرر أن يصلي في المضافة كي لا يدع المشككين يتكلمون عليه،دخل الأمير بولت، وقال للنبيل بلهجة تشبه العتاب:

– ظننتك يا ضيف توضأت وتنتظرني...

– إن أردت يا أمير حقيقة الحال في هذه المرة: لم أكن أريد بعد سلوك النبيل أبرج وباتر أفندي اليوم في مضافة وراق مرزا دون أن يخجلا من أحد، أن أذهب إلى الجامع وأصلي معهما.

– والله لم يخطر لي هذا يا من جعل الله يومه مئة، بل في نهار رمضان...

– صحيح، صحيح، – انتبه أشبه مينشاقه إلى ما بدأ به المضيف فلم يدعه يُكمل، – طبيعي أن تذهب، أن تخالط المصلين من رعيتك. أنت وأنا يا أمير لسنا في وضع واحد، أنت ستبقى عمرك معهم، وأنا مسافر غداً.

– ولكن ألم تر اليوم يا مينشاق كيف تصرف معي الرجلان في حضرة مرزا وفي حضرتك دون أن تردعهما أديغيتهما؟ – كان الألم يبدو على الأمير ولكنه سأل دون أن يتركه يسيطر عليه، وسأل نفسه غير مهتم كثيراً بجواب محدِّثه: – هؤلاء معي مثل الزلاقط العضوضة ولكني لا أُريهم ردودَ فعلٍ خائفةً مني.

– حسناً تفعل، ولكن الأفضل أن ترد على عضِّهم بالعضّ.

– وأنا أنتظر مثل هذه الفرصة... ولكن الأمير سأل ضيفه بسرعة: – قد ترى أن عدم الانتظار أفضل.

– قرأت ما في قلبي، – ألحّ على مينشاقه السؤال عن "حركة المرفق التي انتزع بها يده"، ولكنه قال له كي لا يؤخره عن الجامع إذ أمامهما الغد: – تقبَّل اللهُ صلاتك في الجامع، وحقق أمنياتك الخيِّرة! أنا إن سأل عني الأفندي أو صهرك

السابق فأخبرهما، دون أن أتخذ منك رسولاً، حقيقة ما في نفسي نحوهما. وإن رفضتَ فاصبر الآن كرجل تلقى الإهانة، بما أني فهمتُ وضْعك تماماً. يُخيل إلي أنا سنجد أنفسَنا، هم وسائرَ أعدائنا، في موقف نضطرُّهم فيه أن يحلقوا رؤوسهم... وأنا إذ سأقضي صلاتي في المضافة فلا بأس أن يقطع نقار ومارِيم غزلهما ويرافقاك إلى الجامع.

– ولماذا نقطع عليهم فرحتهم يا مينشاق؟ – قال الأمير وقد غمر نور الفرح وجهه، – حقق الله أمانيهم وجعلهم من المحظوظين إذ اجتمعوا من جديد!

لم تطلْ صلاة مينشاقه. قرأ في سره أمام الله: "قل فو الله أحد" ثلاث مرات في ثلاث ركعات. دعا لنفسه ولأسرته ولقومه أن يبعد الله الحرب التي تنتظرهم، وإن حدثت ولا بد، أن ينصر أميرهم الوالي، بحكمته ورجولته ولأن الحق إلى جانب الأديغة. دعا هكذا واقفاً وجالساً بلغته الأديغة، وفارق سجادة الصلاة.

دنا مينشاقه من النافذة، وتابع أفكاره الحزينة وهو يتأمل الدار المغمورة بنور القمر: "أيّ مصيبة نحن فيها؟.. أينما اتجهنا لم نجد أمامنا إلا العقبات نصطدم بها كالذي حدث لنا اليوم في مضافة المرزا. نعدُّ أنفسنا خُلقنا للحرية، ولا نستطيع كسر القيد الذي على رجلنا. وإذا كنا نعيش من أجل الصدق والبراءة فإننا نرضخ للظلم ونحن نتصنع الرجولة ونصمت. ظاهراً يحمي بعضنا بعضاً، والحالُ أننا نتناحر. نتكلم فنُوهِم أنفسنا أنْ ليس على البسيطة عِرق يدانينا، وما من أحد عنده مثلُ عاداتنا وإنسانيتنا. زِيُّنا يلبسه كل من يتباهى برجولته، حتى السلطان والشاه. والخنجر والسيف اللذان نحمي بهما أنفسنا سُقيا في محددة لَبْش[1]. وبناتنا اللواتي لم يُفِدننا يتخاطفونهن في كل أنحاء العالم. وأولاد بعضهن زعماء لكنهم لا ينفعوننا في شيء وربما يعادوننا. – ابتعد مينشاقه بجسده الضخم عن النافذة كأنه رأى في دار الأمير المنيرة ما أرعبه، ولام نفسه وهو يعود إلى مجلسه: – ما الذي جرى لك يا أشبه حتى تأتي على الأديغة قومك مادحاً – ذاماً؟ لا يجري لنا إلا ما نجنيه بحق أنفسنا، وما نستحقه! – أجاب

[1] الحداد في ملاحم النارت. وفي قريتي أسرة ما تزال تحمل اسمه: أولاد لبش. المترجم.

على سؤاله إجابة قاطعة، ثم وجد لنفسه ذريعة مخرجاً – وقد يكون ورطة –: عدم عودة الخُطاب يتجاوز أعجوبة جلخستانيه... يا ربي، ماريم الذي يغلي حبه، ليته لا يخبرها أن أختي توفيت وقد كنت أكدت عليه ألا يفعل... وأعجب شيء هو التقاء نقار فجأة هنا في الجمكوي بابنة جتشأه حطاط قبل أن يشبع الأب من رؤية ابنته التي أرفقها بنا لمرافقة الفتاة الأخرى نالمس. يا أيتها الدنيا المنحوسة . أيتها الدنيا الفانية، ما أظلمك، وما أرحمك، كما كانت أختي تقول!.. مهلاً، مهلاً، الخطاب يعودون، – سمع مينشاقه صوتاً من جهة الباب.

دخل بولتقوه إلى الغرفة فقال مستغرباً كون ضيفه وحده:

– هل أنت وحدك؟ أين نقار ورفيقه؟

– كما تراني يا أمير.– قال مينشاقه كمن لا يبالي بشيء، ثم أضاف باسماً: – وكيف أكون وحدي، والله الكبير معي كما يقول الأفندية في ديارنا. – ولكن سأله الآن سريعاً عما كان يشغل باله: – ألم يكن نقار ورفيقه أتا – إلياس في الجامع؟

– داور كان هناك، أما الثلاثة الآخرون فلم أرهم... – نوافذ ضيفتينا مُنارة ولذا يخيَّل إليّ أن المغازلة أنستهم الوقت...

– أنت على حق يا أمير. ولكن، بغضِّ النظر عن جرجه ماريم الشاب، ماذا يريد مامسر نقار وأتا – إلياس النغوي الملتحيان اللذان يتقدمان عمراً عليه بكثير؟ – سأل مينشاقه بحيث لا تدري إن كان جاداً أم يمزح، ثم ضحك.

– هل نسيت يا أشبه أنهم كلَّهم في الحب سواءٌ. ألا يقال: الحب ليس ناراً، ولكنه متى اشتعل لا يمكن إطفاؤه.

– نعم يا أمير. يمكن أن تخوض النار مع من تحب، – أيد أشبه بولتقوه، وأنهى بسرعة: – أنا أعرف ماذا يستحقان... سأروي لك ما فعلت بنا مرة جدةُ المرأة التي كنت أذهب لمغازلتها والتي هي الآن في بيتي: لا يا أمير، لم تطردنا بالعصا، لا يتفق هذا مع تقاليدنا. فيما نحن جالسون نثرثر ونغني أغانيَ مبتذلة، وقد تجاوز الوقت منتصف الليل، نادت من وراء الباب جدة من هي في بيتي الآن:

"يا بنتي، افرشي للضيوف فراشهم، وعودي أنت إلينا نطمئن عليك" فانصرفنا، لا نلوي على شيء. وهؤلاء يستحقون مثل هذا الطرد.

– ولكن يا ضيف، – عاد الأمير بولت فمزح مع النبيل مينشاقه، – لم يصل الوقت إلى منتصف الليل بعد، أن تغازل أفضل من أن تحارب وتتشاجر يا مينشاق.

– وهذا صحيح... — تنهد مينشاقه الرجل الجسيم على غير عادته.– لا يدع لنا مجالاً للراحة من له علاقة بنا ومن ليس له؛ وإلا فماذا في الدنيا أجمل من الغزل والأعراس؟!.– ثم نقض بنفسه الصمت الذي ران بسببه على المضافة: – يا أمير إن كنت لن تؤاخذني فأنا مشغول البال طوال النهار؛ ألسنا كلنا أديغة، بحركة المرفق التي أبعدت بها وراق مرزا عنك.

كان على بولتقوه الاحتفاظ بالسر وراء هذه الحركة التي يسأل عنها مينشاقه بمناورة بعيدة، فأجاب بفتور جواباً مبهماً يعني: وأنت ما شأنك بما لا يعنيك:

–لأني مللت من همسات نغوي مرزا التي لا طعم لها... كأنه يثق بي ولا يثق.

– هؤلاء يا أمير لا يتورعون عن شيء مما يؤذونك به. الأفضل ألا تفتح لهم الباب..

– أوافقك بشأن المرزات، ولكن لا أقول هذا عن عامة النغوي. صِدقُهم ورحمتهم متلازمان. لا يقصّرون عنا في استقبال ضيوفهم وتوديعهم، وفي كرمهم.

– ما كنت لأجرَّك إلى كل هذه الموضوعات يا أمير لولا أننا جعلنا من أنفسنا مربّين لأولاد خانات القرم ومرزات النغوي، وغيرهم[1].

---

[1] كان تقليد الأتاليق منتشراً بين شعوب شمال القفقاس كلها. ولكن من كانوا ملتزمين بتربية ولد الأمير في أسرة غير أسرته هم الشراكسة. وفي هذا الخصوص يكتب خان جري في أواسط القرن التاسع عشر: "لن تجد في إقليم الأديغة أي أسرة من أسر الأمراء تربي ولدها في أسرته. بل يقدمون أولادهم منذ أن يولدوا إلى أسر غريبة" ويسمى من يربي ابن الأمير "أتاليق". وأسرة الأمير والأتاليق تحافظان على القرابة طوال العمر. وتبعاً للتقاليد الشركسية فالأتاليق هو المستشار الأول لربيبه. وكان مربيّه والمشرف عليه. ويعتبر أولاد امرأة الأتاليق إخوة وأخوات للربيب. وهكذا كانت القرابة بين أسرة الربيب وأسرة الأتاليق أقوى من رابطة الدم. وفي القفقاس الشمالي الذي له تنظيم إقطاعي كان نظام الأتاليق يربط، لا الأسر فحسب، بل الأقوام كلها برباط قوي. وقد ينسب الربيب إلى القوم الذين ربي عندهم، وعلى سبيل المثال: فالوبيخ والبسلني والجمكوي والبجدوغ والشابسغ والأبزاخ الأديغة كانوا يربون أولاد خانات القرم ويُشِئونهم. وفي حال الاضطرار يلجأ الربائب إلى إقليم الأديغة. وكان يحدث أن يكون لأمراء شركيسيا السفلى عدد من المربين (الأتاليق)، وعلى سبيل المثال كان لأسلانبج ابنِ أمير الجمكوي بولتقوه جامبولات، ثلاثة مربين: الأول: قُدَنَتَ من أعراق القبرتاي القوية، والثاني حجمقوه أجف من نبلاء الأبزاخ، والثالث برزج حاج من نبلاء الوبيخ. وكان الثالث مربياً لجامبولات نفسه.

وكان للقبرتاي علاقات أتاليق مع غير الأديغة كالبالقر والأوسيتين والأباظة. وبين شراكسة شركيسيا السفلى والأبخاز مثل هذه العلاقة. وهكذا كان الأمير الأبخازي الكبير ميخائيل شيرفاشيدزه ربيب أسرة النبلاء برزج المعروفة في أنحاء البلاد. وبعدها ظل حريصاً على الوبيخ. وكان البالقر يولون الموضوع أهمية كبيرة. ويأتي ذكر الموضوع في الأغنية التاريخية المخصصة للأبطال في القرن السادس عشر المسماة " باخسانق" ويأتي ذكر الموضوع أيضاً

أوى مينشاقه إلى الفراش أسيراً لأفكاره بعدما خرج الأمير من المضافة متمنياً له ليلة سعيدة، ناسياً الشابين الغائبين في المغازلة. كان ما يشغل بال مينشاقه الآن هو احتفاظ وراق مرزا بحوالي خمسين فارساً وراجلاً في أنحاء مختلفة من الجبل مستعدين للتجمع بإيعاز. قال لنفسه: "لا أظن الأمير بولتقوه جاهلاً بأمرهم، ولكن رغم أني أسأله بلوعة وصراحة فقد اكتفى بالقول: "مللت من همسات مرزا التي لا طعم لها"، وغيّر الموضوع. ما هذا السرّ؟.. أيكون لأمير الجمكوي الكبير وجهان؟.. أيكون هو وأبرج المتعاديان، وإلى جانبهما باتر أفندي، يؤدون مهمة واحدة؟ وما مصير ابن أخته داور إذن؟.. — جلس أشابه مينشاقه في الفراش بجسده الضخم. — من يعرف سرّ هذا الموضوع هو زينه حسن الذي ينتظرنا في القرية المجاورة".

صاح مينشاقه من غرفته للعاشقين اللذين دخلا على رؤوس أصابعهما حذر إيقاظ كبيرهم:

– لستُ نائماً، يُريحني أنكما عدتما. — نادى مينشاقه مرة أخرى فيما هما يتبادلان النظر،يستحييان من دخول غرفة الكبير: – اخلدا إلى النوم، سننطلق بعد السحور.

في بعض الحكايات الشفهية.

ويكتب ف. تورناو (كان جاسوساً أسيراً عند الأديغة، وكتب عنه إسحاق رواية "جاسوس"). (لمترجم): "تربية الأمراء والأسر المتنفذة أولادَهم في غير أُسَرهم عادة قديمة. يربون الولد في أسرة غريبة حتى يكبر ويتعلم فنون القتال. وغالباً ما يكون الأتاليق من عرق آخر. وترتبط الأسرتان برابطة قرابة. وهذا التقليد يقيم السلم بين كثير من الأعراق. ويهيئ الناس ذوي اللغات المتعددة للتفاهم والتعايش"

قررت السلطة الروسية إغلاق هذا الباب بين أمراء القبرتاي ونبلائهم ومَن في جوارهم. وأصدر يرمولوف عام 1822 بهذا الخصوص قراراً يلغي القرابات من هذا النوع: "أطلب بإلحاح ألا يعطي أمراء القبرتاي ومتنفذوهم أولادَهم لغيرهم يربونهم عندهم. وأن يسترجعوا حالاً ما قُدِّم منهم". المؤلف.

– الأفندية يُفتون بجواز إفطار المسافرين يا مينشاق.
– نعم، هذا ما يقولون، – وافقه أتا – إلياس كأنهما متواطئان، فشهد على كلامه، – والمريض يجوز له أيضاً.
– لِيصدرْ من الأفندية رأي جيد واحد! ولكن لا تحاولا بهذه الحجة متابعة مغازلتكما. موعدنا بعد السحور. اسمع يا جرجه هل أخبرت زبنه حسن بموعد لقائنا معه؟
– اصطحب داورُ جرجهَ ماريمَ إلى بيته ينام عنده.
– وهل يفعل أحد مثل هذا!.. – صرخ مينشاقه.
– هذا ما جرى ولو أنه مخالف للأصول... – قال أتا – إلياس، –لم يتركنا داور إلا أن يصطحب ماريم.
– هل تعرف ما يفعلون بمن يبدِّل مضيفه؟
– يذبحون له جدياً ذكراً.
– يستحق، لا جدياً ذكراً فحسبُ، بل ابن آوى! – قال مينشاقه. – اصطحبت جرجه في طريق القرم فحسب، ولم تكن لدي نية اتخاذه صهراً. – وأنهى الحديث بسرعة: – تصبحان على خير!
حان موعد السحور سريعاً في ليل الصيف القصير، فتناولوا الطعام، وتجمعوا في أرض الدار لتوديع الضيوف. كانت أحصنة الضيوف الأربعة، وعربةٌ أنيقة للنساء يجرها حصانان، جاهزةً. الأمير بولت والنبيل مينشاقه واقفان بعيداً قليلاً عن الرجال. والجميع من الأمير والجيران القادمين للتوديع والفلاحين والخدم ينتظرون ابنة آل بولتقوه الكبرى قُتاس، وكنّتها الكبرى لاشين، وسورت ونالمس.
قال الأمير بولتقوه مستاء من تأخر النساء واضطرار الرجال لانتظارهن:
– النساء يتأخرن يا مبارك النسل...
– النساء يا أمير، – ابتسم مينشاقه وقال لمضيفه ما يُريحه:، – نساءٌ أينما كنَّ.
ظهرت النساء اللواتي يحملن ما قُدِّم للضيفتين في صندوقين: قماش ثوب، وغطاء رأس، وخفّ للغرفة، وهدايا أخرى، على مسطبة المضافة، قال الفلاح أيدمرقان موجهاً الكلام إلى الفلاحين خصوصاً:

– افسِحوا الطريق، الحموات يودِّعن البنتين الضيفتين...
اتخذت العربة الخفيفة المحروسة من الأمام ومن الخلف طريق القبرتاي.

الفصل الثاني والعشرون

انقضت أيام العيد الثلاثة.
الوقت هو الوقت الذي يتبادل فيه الربيع والصيف الترحيب.
حقاً الصيف الذي ظهر في مضيق باخسان، والذي تراه بعينيك وتشعر به في داخلك،كان يودع بعينين مطمئنتين الربيع المنحسر، وبأيام لطيفة، وبأمسيات وادعة؛ غير أن الأخبار المتناقضة القادمة من الغرب، من جهة القرم، كانت تزيد من قلق الناس.
كان أمير القبرتاي حتخشقوه كرغوقه واحداً من هؤلاء. الحرب لا تميز بين عامة الناس والملوك والسلاطين والخانات والأمراء. إنها كضربة السيف، والرصاصة، لا فرق عندها بين من تصيبهم، كلهم سواسية. ولكن اختيار قومك لك، إن كانوا كثيرين أم قليلين، وإيداعهم ثقتهم وأملهم فيك، وتأميرهم إياك، ليس مجرد حظ سعيد لك: تربط نفسك بنفسك إلى عربتين للثيران منفصلتين إحداهما للخير وأخرى الشر. إن استطعت جرّهما رضي الناس عنك وامتدحوك، وإن عجزت ظلوا يتهمونك بأنك ربطت نفسك إلى نير لا تقوى عليه، واغتابوك، وأطلقوك من النير نفسه، وبقيت عاراً ومهزأة في التاريخ.
توقف الأمير حتخشقوه كرغوقه على عتبة غرفة الإمارة، وسأل نفسه:" ما التاريخ؟ " وبعدما وقف قليلاً عقد ذراعيه وراء ظهره واستأنف أفكاره. " يقول بعضهم: تواريخ كل الأقوام في كل العصور متمازجة، والآخرون لا يقتنعون بهذا ويبتسمون. ومن الناس من يقول: مَن سيتذكر الماضي، ومن يحتاج إليه؟ اقتنِعْ بيومك واستمتعْ به منتظراً الخير غداً. ونحن لا تأتينا الأيام كما نشتهي: هذا مشمس حار، والآخر ضباب، والثالث عابس...".
الشمس التي كانت تطل على الغابة المتباعدة عن يمين نهر باخسان الهائج، وعلى أرض جَتْمِشك الصالحة للحش فحسب، استدرجت حتخشقوه إلى

النافذة. انتصب أمام وجهه الصباح الصيفي الباكر اللطيف وأرض الدار النظيفة. ومن الجانب الآخر للدار، حيث المطبخ، تسمع أصوات تقطيع اللحم، وتنظيف القدور، وتكسير الحطب.

وفجأة ، ودون أن يعرف السبب، انتصبت أمام عينيه قمة قنجال التي تشبه رصاصةَ بندقية ثقيلةً. ورغم أن الشمس مشرقة فإنها تجثم على المرعى الجبلي الفسيح حيث تتناثر الأبقار،كئيبة واجمة، تسحقك بكل حجمها وثقلها. وأوشحه مافه قلق لها كأنه يسألها عن سبب حزنها. وفي السماء تحوم بعض الصقور كأنها تبحث عن قطعة حجر سقطت منها على جبل قنجال. وتزحف فوقها سحب باهتة بلا مبالاة.

كان حسناً لو استدرجنا جيش القرم إلى الجبل وعرّفناه أن المرء أعمى في الأرض الغريبة وضعيف بلا حول... — خطر لكرغوقوه مرة أخرى المخرج الذي كان يفكر فيه ففرح به: – إن استدرجْنا العدوَّ ونحن نقاتل ونتراجع إلى الأرض التي يجهلها... وعلى ما يُروى فإن أجدادنا تصرفوا مع جنكيز خان البدوي بهذا الأسلوب فنجَوا منه. ولكن، – خرج الأمير من الماضي، – النساء اللواتي غاب الرجال عنهن، والأطفال، والمسنون؟.. عندنا مثال قدوة على هذا الوضع: في وقت ما، حين أرهقَّنا القرم نفسه بالعدوان، انتقلنا من المرتفعات الخمسة الضعيفة وانتقلنا إلى موقعنا هذا المحمي المحصن، فكذلك سننقل بضع القرى المكشوفة على طريق العدو ونجد لها مكاناً على جبل الأديغة. إن لم نقابل القرم بهذه الطريقة فلن يبقى لنا إلا "إما أن تكون رجلاً أو تموت"، ونستنفر من نستطيع؛ وإلا اقتُلِع الأديغة من الجذور. أين صيحة النجدة "مارج" الآن؟ وهل سيسمع الأديغة المتناحرون هذا النداء؟.. — سأل الأمير الكبير الذي عصر الألم قلبه، ثم عاد إلى أفكاره ولا تزال صفوة غليون منغل — جري التي أفرغها على رأسه الأصلع في العام الماضي تحرقه: – لن أقول لمن أجمعهم اليوم من ثقاتي: شمّروا عن سوقكم قبل المخاضة، على مبدأ: يسمع بعضهم كلام غيره، ويُبلغه للآخر. سأدعهم يتناقشون وأسمع كلماتهم، وأستفيد من المهمّ منها، وسيظهر بينهم من لا يوافقوننا، ولكن أين يذهب المضطر

ساعة الشدة؟ سيعودون إلى صفنا..."
التفت حتخشقوه إلى صوت الباب الناعم، وسأل السيدة نارنه التي دخلت:
– هل من داع للقلق يا سيدة؟
– لا يا أمير، شغل بالي قليلاً غيابُك، فجئتُ.
– يسرني، اجلسي!
– سأعود إلى النساء إذ رأيت استعدادك لاجتماع الرجال يا روحي.، وأرسل إليك فطورك.
– حياك الله يا حلوتي. — ابتسم حتخشقوه، وتابع المرأةَ: – اهتمي بغداء من سيأتوننا من الضيوف!
نظر الأمير إلى الفسحة الواسعة المسقوفة بالقصب، غير بعيد بين المضافة والمطبخ. الطاولة التي يمكن أن يجلس إليها قرابة المئة تحتل الفسحة. ومقعده هو في الصدر. وكان الأمير بنى قاعة الاجتماع الصيفية هذه في السنة التي أُسندت إليه مهمة الأمير الوالي. وهذه هي المرة الرابعة التي يجتمع فيها مستشاروه في خلال نصف السنة الماضي المشحون بالقلق.
ليس الموضوع أن حتخشقوه لم يدعُهم واحداً واحداً، ولم يستمزج آراءهم، ولكنه اعتبر اجتماعهم وحديثهم وجهاً لوجه، وإن لم تتطابق آراؤهم تماماً، سيكون مفيداً. قال لنفسه: "ثم إن من سيقيِّم الآراء ليسا شخصين فقط، بل مجموعة. ثم إذا احتدّ الخلاف بينهم وتطور، من يدري، فسأُفهمهم أن رأي الأمير هو الحاسم. لا، لن أزيح آراءهم إذا كانت خلاصتها في مصلحة قضية الأديغة بحجة أني أنا قائد الجيش. ولكن بما أننا اليوم في موقف حرج فسأتقدم من يعلقون أملهم بي معتداً بنفسي، وأسمعهم وأحملهم على طاعتي ، قائلاً على رأي والدي "عقل واحد خير من عقلين". منذ انتخِبتُ أميراً والياً لا يزال الأمراء الذين لا يريدونني، من القبرتاي الكبرى والقبرتاي الصغرى، يبتسمون لي في وجهي، ويغرزون في غيابي نظراتهم المرائية في ظهري، مستعدين لأن يشمتوا بي إن أصابتني مصيبة. أيها القبرتاي البؤساء ليس حتخشقوه كرغوقه الذي انتخبتموه أميراً والياً إلى وقت معين لكم وحدكم، بل هو لكل الأمراء والنبلاء

والفلاحين، حتى العبيد والخدم. إن وصلتم إلى هذا الموقف قلت لكم وأنا واحد منهم: "من يُضيّقُ عليهم تناحرُ الأمراء والنبلاء عيشتَهم هم الفلاحون الضعاف".

تسمّر الأمير الجسيم على أرض الغرفة كما يقف أي رجل قوي كأن شخصاً غير مرئي وقف في وجهه فجأة. وسأل نفسه لائماً إياها: "ما الذي جرى لك كحصان عنيد؟ أليس ما تقوله صحيحاً؟ صحيح، صحيح!.. ولكن لا يجوز أن يقال هذا بصراحة مطلقة للفلاحين. وهم على كل حال ينظرون إلينا شزراً. وإن لم تقل لهم فهم جاهزون للانقضاض علينا... ولكننا اليوم في الموقف الذي يوجب عليّ، بل على القبرتاي كلها، هذا الكلام. وهذا موضوع لا يمكن أن تغتني منه بل لا يأتيك منه الثناء. ولكن إن تكلمت باسم الأرض التي تركها لنا الأجداد، والتي وُلدنا فيها، وفيها سندفن، باسم الوطن فما الأفضل: أن يسود عليك الغريب أم أن تحمي شرفك؟ هذا ما يجب أن تقوله لهؤلاء في الوقت الذي تقوله فيه لنفسك. وهذا ما سيحمي قومنا من الانقراض بصفته عرقاً من الأعراق على الأرض".

جاءت نارنه شخصياً، بقامتها الرشيقة الثابتة التي لا تتناسب وعمرها، بصينية صغيرة عليها بركٌ ساخن وشراب عسل ذهبي اللون. قال لها كرغوقه غيرَ مصدِّق ما يرى وفرِحاً معاً، غيرَ عارفٍ تفسيراً:

– أما كان الأجدر أن تكلفي الخادمة بهذا يا حلوتي؟

– أنفِّذ لك وعدي بأن أشارك في إعداد وجبتك منذ أسنِد إليك منصب الأمير الوالي يا روحي.

– منصب الأمير الوالي منصب مؤقت يا حلوتي. — مزح كرغوقه مع المرأة التي فتحت له قلبها وروحها.

– أمرُك يا روحي الوحيدة لا يتعلق بوقت معين. سيبقى كلامنا ليلة عرسنا نذْرنا إلى أن يقضي الله أجلاً كان مكتوباً.

– حياك الله، – أمّا ما في قلبه هو فلم تسمح له رجولته الأديغية أن يفصِّله، فقال باختصار متخلصاً من الموقف بامتداح مائدتها: – ومائدتك يا حلوتي

لذيذة مثلك، ومباركة. — وقال فيما يستمع إلى جهة مربط الخيل حيث يصدر وقْعُ حوافرها: – المدعوون يتجمعون.
دنا حتخشقوه مرة أخرى من النافذة فرأى زبنه وأشبه يدخلان مقر الاجتماع. وكان وراءهما الشباب إلَن وقبارد وماريم. قال الأمير بنبرة عطف على السيدة التي نهضت للخروج:
– أُشفق على جرجه ماريم الذي ذهب إلى القرم وعاد محظوظاً... الفتاة التي تقوم بالحداد على أمها التي لم تر فرح ابنتها. الفتاة محظوظة وتعيسة معاً.
– نعم يا كرغوقه، نعم، – أيدت السيدة نارنه زوجها وهي تنطق اسمه برقّة، واختتمت: – نالمس الفتاة الصغيرة اللبيبة حية على كل حال، وبصحة جيدة، وأعادوها إلى البيت الذي سُبيت منه. أمها المسكينة هي التي لا رجعة لها... سورت بالقياس إلى نالمس هي من انفتح لها باب الحظ. مهما عذبوها فقد انتهى عذابها على نحوٍ سارّ.
– كنا سنفرح بها يا نارنه لو لم يدفع والدها المرحوم حطاط وأخوها حياتهما من أجلها... هذه المأساة وغيرها جزء مما يُلحقه بنا خان القرم.
– نعم يا حسرتي، نعم. ليحمنا الله. سيشملنا بعطفه... هؤلاء ناس بلا شفقة... — قال الرجل في إثر المرأة التي خرجت حاملة الصينية كي لا يُقال إنها تتدخل في أمور الرجال: " مهما جرى فلابد أن نلقِّن هؤلاء درساً هذه المرة لا تقوم لهم من بعده قائمة.
دخل قسي أفندي الذي تسبقه عادة عصاه الفضية اللامعة، وقال باسم المجتمعين:
– المؤتمر الذي جمعته بعلم الله تعالى وفضله في باخسان ينتظرك أيها الأمير الوالي؛ دعنا ننضم إليهم!
ظهر أمير القبرتاي الكبير، فطلب الجلوس ممن نهضوا احتراماً له، وجلس هو أيضاً في المكان المخصص له مقابلهم. وجلس قسي أفندي قرب الباب الأيمن. ألقى الأمير نظرة على الجالسين أمامه حسب ترتيب أعمارهم، وسأل كانه لا يقصد أحداً:

– هل هناك من لم يأت من المدعوين؟
– لا يزال شردم جانخت في جبل قنجال منذ أرسلتَه أيها الأمير الوالي. ولكن بيننا أتا — إلياس الذي لم ندعُه. لم يقبل مامسر نقار وبج نغر إلا أن ندعوه.
تبادل المؤتمرون النظر وتهامسوا:
– أنا أعرف لأن مامسر نقار، ابن الجانيه،ترجاني أن أسمح له، – التفت حتخشقوه إلى جباغ، وأجاب على ما سمع. لا أرى بينكم جرجه توقان الذي أرسلناه إلى الأباظة القريبين منا قلباً ولغة. ربما لم يعد إلى الآن.
نظر المؤتمرون إلى وقع حوافر صدرَ من مربط الخيل، فرأوا جرجه توقان يصحبه فارسان. وقال جرجه ماريم الجالس في أقصى الطاولة حيث مكانه الطبيعي، ناسياً أن عمره لا يسمح له بالكلام:
– هذا هو توقان يا أمير!
ابتسم الأمير مما سمع، وقال بسرعة:
– سأفتتح مؤتمر باخسان إن رأيتم ذلك مناسباً. سنراجع قرارات مؤتمر الأمراء — النبلاء الثاني خلال هذه السنة، والذي انعقد في جلخستانيه. بما أن القبرتاي الكبرى هي أول من سيواجه جيش القرم فسنتكلم أولاً على الأعمال التي فيها منفعة بقدر الإمكان. وسنتكلم على الموضوعات الملحّة الأخرى. ولكني أخبركم بأن المأساة التي تنتظرنا لم تعد بعيدة. وعلى مبدأ "إن كانت يدك مدهنة فامسح بها رأسك" فالظاهر أننا بقينا وحدنا أمام جيش القرم. ولا أقصد بهذا أن قلبنا الأديغي يتصامّ، ولا أن قبعاتنا سقطت من رؤوسنا، ولا أننا نتبادل نظرات الرعب. ما سنحميه هو أرضنا، بلادنا، أطفالنا، مسنّونا، بل قطرات نهر باخسان، القبرتاي الحرة كلها، وسماؤها، وشرفها. لا داعي لليأس وقد قالوا: من يفقد الأمل يقع في المهلكة أيها الكبار وأيها الأصاغر سناً. لا مخرج لنا إلا: "إما أن نكون رجالاً أو تموت" — توقف الأمير عن الكلام قليلاً، ثم أنهى بصوت ألطف وأهدأ: – سامحوني إن كانت نبرة الكلمات التي سمعتموها أعلى مما ينبغي!
– لا يا أمير، لا. — قلق قسي أفندي،– ما قلتَه إنما قلته بعلم الله فصوتُك

ليس عالياً، وأنت على حق. الله العلي الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل إلى أحد قيوم علينا. سيخبر أعداءَنا الذين يطاردهم قرناؤهم الجن والشياطين أنك على حق. وإن لم يسمعوا دفع بهم إلى الهاوية. وسيُهلكهم على أيدينا، وستشهدون لي يوماً على هذا الكلام.

– بارك الله في فمك يا أفندي، – هتف أحد الحضور.

– نعم يا أفندي، نعم. — وافقه غيره.

تابع الأمير كلامه كأنه لم يسمع كلام الأفندي وغيره:

– والآن دعونا نتكلم في موضوع مؤتمرنا بمختلف آرائنا. سأعطي الكلمة الأولى لأشبه مينشاقه. لم نكن خارج المهمة التي سافر فيها إلى القرم في مهمة عائلية، بصحبة جرجه ماريم، فارو لنا ما رأيتم يا مينشاق. — قال كرغوقه لمينشاقه الذي نهض بجسده الضخم، مُفهِماً الحضور الذين سيتكلمون بعده عدم ضرورة القيام للحديث: اجلسْ، اجلسْ، لا ننشغلْ بالقيام والجلوس، بل لنتكلمْ كلاماً مُهماً لنوفرَ الوقت. نسمعك يا مينشاق.

– حقاً، الأفضل أن يكون فِعالُنا أكثر من كلامنا أيها الأمير الوالي. نحن قضينا بضعة أيام في القرم بعضُها سراً وبعضها جهراً. وتعرفون النتيجة السارة لمهمتنا. ولكن ما يجري في القرم من كلام ومن أفعال ليست سارة، بل سيئة. نكذب عليكم وعلى أنفسنا إن قلنا إن في القرم سلاماً واتفاقاً. المجموعة التي كانت تعارض منغل — جري في شأن الحرب قُمعت بالأوامر الإدارية وبالسلاح. ومن زُجَّ بهم في السجون كثيرون. ومن نجا بجلده ليسوا قليلين. وقائد الجيش التركي في كافا، عليغُت باشا، أرسل خمسة آلاف جندي إلى القرم عبر بحر آزوف ليُعاضِدوا الخمسين ألفاً الذين هم جيش القرم. وباختصار يا أمير هذا ما نعرفه إلى الآن.

قال زبنه حسن متمهلاً، يمسّد لحيته الشقراء بيسراه:

– كنا، حين سمعنا أخبار شركيسيا الدنيا، مجموعةً من إلن وقبارد وداور — جمركوي، ولذا سنُطلعكم عليها. من جهة خُيّل إلينا أن إخواننا الأديغة الذين التقينا بهم غيرُ مهتمين بنا: يتابعون أعمالهم المعتادة، يربون أطفالهم، ويُجلّون

كبارهم. يعملون في أرضهم، ويعتنون جماعياً بمواشيهم السارحة في المراعي. ويمرحون ويتسلون في أعراسهم، ويتحملون معاً أحزانهم. ولكنهم يسكتون متى جئتَ لهم على ذِكْرِ خانية القرم، ويُغيّرون الموضوع. ورأينا أن موقف الأمراء والنبلاء أكثر حرجاً وضيقاً من موقف الفلاحين العامة والفلاحين المتنفذين. والنغوي المتفرقون بين أبناء قومنا هناك ماذا سيكون وضْعُهم؟ – أعاد زبنه السؤال إلى السائل، وأتبعَه برأيه: نحن، كما هم، طوال عمرنا، لا صراحة بيننا، نتبادل الكلام الجميل فحسبُ، ولا يعرف أحدنا ما في قلب الآخر. ولكنهم نغوي فلا ينسون أصلهم التركي.

– لا تؤاخذني يا أمير، – لم يصبر أتا — إلياس، – لا أظن أن قوم النغوي الكبير يخلو من الناس الطيبين يا حسن،– وأضاف بصوت أحزم: لا تناسُبَ بين كوننا أقليةً في أرضكم، وبين كثرة أبناء قومنا عموماً.

– ماذا يقول هذا الرجل محاولاً تربيتنا؟..– قال دمدي لأتا — إلياس من خلفه دون أن يهتم به.

– اهدؤوا يا جماعة! دم العِرق نار هائلة. قال الأمير، واختصر: أقول لكم هذا، وأنا من دعا ضيفنا.

ابتسم بج نغر وجباع قازان في سرهما. وشدّ مامسر نقار جسده سعيداً.— قال قاشرغ الحداد في سرّه: "ربما كان للأمير المخادع مهمة ما مع النغوي".

تابع الأمير الوالي كلامه بصوت ألطف:

– العرق الذي لا يُضيّع معنى اسمه البشري – سواء كان نغوي أم أديغة أم روسياً أم شيشانياً أم بالقر أم قالمق أم تترياً، أم غيره — حسنٌ ومن دواعي السعادة أن تُعزَّه وتستمد الثقة من طريقة عيشه، ولكن العرق الذي يعيش بسلام، إن كان عرقاً كبيراً أم صغيراً، لا يجوز أن تهاجمه بالسلاح وهو لا يستحق هذه المعاملة، ولا أن تهدده بالاستعباد، وأن تسوقه بعصا المواشي حتى يرضخ. إنه نوع من الظلم، بل يتجاوزه. ويضيّعُ بنفسه كل خير فعله دون أن يردعه رادع. خيرٌ أن تعيش حريصاً على غيرك، كما هو حريص عليك، من أن تتحارب وتتآمر.

– لا يمكن أن يزيد أحد على ما قلتَ يا أمير، ولا أن ينقص. – أضاف زبنه حسن إلى ما قال دون أن يُشير إلى غير ما قال الأمير. – ولكن ليتنا كنا قادرين يا جماعة على تحقيقها...

– إن كنا يا حسن قادرين، أعني جميع الحاضرين بمن فيهم الأمير، على تحقيقها فالله العلي العزيز سيكون في عوننا. – ساهم قسي أفندي في النقاش مشيراً برأس عصاه الفضية نحو السماء.

– إن أردت الحقيقة العارية يا أمير، – تابع زبنه حسن، – فلا سلام في المنطقة التي كنا فيها. ولا يعرفون ما سيأتيهم به الغد. وهم، الأديغة والنغوي، مهمومون بتحضير جيش القرم لمجموعات سرية في مواضع مختلفة في الجبال. ولكن أتوقع أن يجد وراق مرزا وبولتقوه بولت حلاً للموضوع إن لم يكذب أحدهما على الآخر.

ترك الأمير زبنه الذي كان يتكلم دون أي دفء في عينيه الزرقاوين، ودون أن تختلج عضلة من عضلات وجهه، إلى جرجه تاوقان الذي له هيئة زبنه نفسها:

– أطلِعْنا على أخبار الأباظة الذين أرسلناك إليهم يا تاوقان!

– الأباظة يا أمير يقولون الكثير، ويفعلون القليل،على عادتهم الأزلية. يعتبون علينا أن تركناهم وحدهم في الجبال الخمسة وهربنا إلى مضيق باخسان. ويتهموننا بالجبن، غير أنهم جاهزون بلباسهم وسلاحهم في أي لحظة يسمعون فيها نداء الاستغاثة مارج.

– هكذا! صرخ دمدي بما لا يتناسب مع عمره المتقدم. وسأل دون اهتمام بما أجفل به الحضور: – أيمكن أن يكونوا مثل أباظة قارمه؟

– لا أظن أن هناك جماعة لا عيوب لها، بمن فيهم الحضور هنا... – قال قزنقوه جباغ، لا يُهين دمدي، ولا يدين أهل قارمه بل يدافع عنهم – دعونا نستفيد من دروس الماضي ونعيد إلينا الوعي فنحارب بقلوب صافية ورجولة ووحدة لا تتزعزعان القرم القادمين لنهْبِنا.

– إن شاء الله، – وافق الأمير بالعربية ودون أن يدري هو نفسه، جباغ. وترجم إلى الشركسية.– وأضاف بعد وقفة: أنا واثق من انتصار قضيتنا.

سمع الأمير من أقصى المائدة حيث الأصاغر سناً، تعليقات حماسية من مثل: "ضعْ ثقتك فينا أيضاً يا أمير" و"لن نسمح لأنفسنا بالضعف" و "نكون رجالاً أو نموت"، فقال لهم:

– حياكم الله، هذا ما يتأمله منكم كبارنا.

– توقفوا لحظة أيها الشباب، – خاطبهم قاشرغ، ثم توجه إلى الأمير حتخشقوه: – سامحني يا أمير، يا من جعل الله يومه مئة، على مقاطعتك. أود أن أسألك عن أمر لا أفهمه: ما نية القيصر بطرس الأول الذي يخضع له قادة الجيوش الشراكسة، والذي صار من أقربائنا بالمصاهرة في أزمتنا الحالية؟ هل يتركنا وحدنا أمام العدو؟

– ما كنت أريد أن أقوله، – لم يبحث الأمير طويلاً عن الجواب إذ كان مستعداً لمثل هذه الأسئلة المحتملة، – سبقتَني إليه يا قاشرغ، أيها الزعيم الطيب، — أصبحت روسيا مقيدة بموجب الاتفاقية التي عقدها القيصر بطرس الأول قبل أعوام مع السلطان أحمد الثالث. نعم أيها الزعيم الطيب، حقاً أن أيوك القالق عنده اتفاق مع روسيا ولكنه لم ينس أنه صهرنا فأمدنا بالسلاح على قدر استطاعته. نشكر أيوك باسمك يا قاشرغ، وباسم بج نغر، وباسمنا جميعاً. وليس وحده ففي بضعة الشهور التي يهددنا فيها خان القرم مدعوماً بصراحة جارحة لم نسمح لأنفسنا بالتهاون: شاركتم في مؤتمرات الأمراء — النبلاء، والفلاحين، وتعرفون تأييد مؤتمرات الأمهات لنا. وقد أرسلنا وفوداً إلى زعماء الأقوام الأخرى، وأبلغناهم بوضعنا؛ ما العمل؟ لا القريب ولا البعيد يفهمنا. نحن وحدنا. وهذا ما يجعلنا نستشهد بالقول المأثور: "إن كانت يدك مدهنة فامسح بها رأسك" ومع ذلك لا داعي لليأس. نكون رجالاً أو نموت. سننهي مؤتمرنا هنا؛ أمامنا مهامّ كثيرة.

– قولوا "آمين" يا جماعة، – قال قسي أفندي الذي كان ينتظر هذه اللحظة لمن أنهَوا معه الدعاء، وراحتاه الرقيقتان مرفوعتان أمام وجهه نحو السماء التي بدأت سُحُبها تكفهرّ. — ريثما تنتهون من الطعام الذي خصّكم به الله العلي العزيز سأؤذن لجماعة المسلمين المؤمنين لصلاة الظهر. ثم نتوجه معاً إلى

الجامع. ونقف أمام الله الذي خلقّنا. وندعو إليه أن يغمرنا برحمته، وينصرنا على من يُناصبنا العداء.
صدر صوتُ قسي الرقيقُ من مئذنة الجامع لبضع دقائق. وفي الحال أبرقت وأرعدت السحب السوداء القادمة من الغرب حتى حنى بعض المؤتمرين رؤوسهم. ثم بدأ المطر.
– هيا يا سبانج وقرج، – نادى حتخشقوه كرغوقه حراسه، – البسوا شيئاً يحميكم من المطر، وأنزِلوا قسي أفندي من المنارة!
لم يعرف صوت قسي الرفيع أصلاً، الذي داهمه المطر، والذي كان يزيد رقة، التوقف.

الفصل الثالث والعشرون

قال نقار لأتا — إلياس لحظة وصول العربة التي تُقلّ سورت، إلى الجبال الخمسة في طريقها إلى الجانيه، ووراءها الحراس:
–لم أتوقع أن يكون موقفك منا على هذا النحو.
– وماذا تقصد؟
– أقصد اتفاقك أنت والأمير حتخشقوه.
– وما العجيب في هذا؟
– نعم فيه أمرٌ عجيب! – جزم مامسر.
– قل لي ما هو إن لم يكن سراً!
– أعيش عمري واضحاً كالنهار المشرق.
– وأنا ليس عمري كله ليلاً.
– قلْ هذا لغيري!
– الحقّ يا نقار، – سمّر أتا — إلياس حصانه، – ما الذي لا يعجبك؟
– سأقول،– سمّر نقار أيضاً حصانه، واعترض حصان رفيقه، – كيف ستخون قومك القرم من خلال أخيك الأصغر؟
– أنا لا أقول إن القوم كلهم أشرار ونهابون.

– على كلامك أخوك الأصغر حامي القوم.

– من حسن الحظ أن ينبري واحد من القوم التائهين في الظلام، فيضيء بدمه وروحه لإخراج قومه من متاهتهم.

– هل تقصد أن يحرق نفسه لأجلهم منيراً لهم بدمه وروحه؟..– نظر نقار الآن إلى من وقف في طريقه بعين الود وقد غلبته طبيعة الحجرت، وأجاب: – اسمعْ ما يقول هذا!.. هيا، العربة تسبقنا.– وبعد قليل أضاف لنفسه بلا مبالاة: – لو كنتُ مكانه لعرفت ماذا أفعل بهم...

– من هم؟

– ومن يكونون؟! كنت أطلب من الأمير حتخشقوه وقبلان – جري الوقوف أمام الجيشين من أجل أن نمنع الحرب، كما فعل الأمير ردد قائد جيش الأديغة ومستيسلاف قائد الجيش الروسي، وأمرتُهما بالمصارعة على أن يكون النصر لمن يصرع الآخر... لا، لا، هذا أيضاً غير ممكن.

– ماذا؟ لو جرى هكذا لكان حسناً...

– كان حسناً إلا إذا كان مثلُ مستيسلاف قائد الروس لن يخدعك... كان حسناً لو لم يذبح عديمُ الشرف هذا ردَ[1].

---

[1] (هذه تفاصيل تلك المأساة نقلاً عن مصدر روسي (حكاية الأحداث الماضية) في عام 6530 (حسب التقويم الشركسي، 1022 حسب التقويم الميلادي: المترجم) جاء ياروسلاف إلى بيريست، وفي الوقت نفسه هاجم مستيسلاف الذي كان يحكم مدينة توم تقاش القسوغَ وحين عرف رَدَدُ أميرُ القسوغ (واحدٌ من أعراق الشراكسة القدماء: الزيخ والموط والحكوف والقسوغ. المترجم) اعترض قائدَ الجيش الروسي، ولما تجابه الجيشان قال ردد لمستيسلاف: لماذا نُفني مقاتلينا؟ دعْنا نتصارع فإن غلبتني فلك أرضي وزوجتي وأولادي وما أملك. وإن غلبتك فلي ما عندك " وافق مستيسلاف، واشترط ردد المصارعة دون سلاح. تصارع القائدان طويلاً، ولما بدأ الروسي ينهار توسل إلى العذراء أن تعينه على أن يبني لها كنيسة. وذبح ردَ بسكينة كان أخفاها في حذائه. واستولى هكذا على زوجته وأولاده... ولما عاد مستيسلاف إلى توم تقاش وفى بنذره ووضع حجر الأساس للكنيسة. (المؤلف). وللكاتب

– هذا التصرف ينمّ عن انعدام الإنسانية.– لم يتحمل أتا — إلياس.
– هذا ما جرى.
– ربما بدأت المواقف اللاإنسانية من مثل هذه الواقعة.
– ربما، – أظن أن هذا جرى في الزمن البعيد الذي بدأ فيه الإنسان يمتلك العقل.
حثّ الفارسان اللذان تأخرا عن العربة. وفيما هما يتحادثان، يرد هذا على ذاك على إيقاع حوافر الخيل، حتى لَتقول: أين اختفى الجدال، لا يزال أتا — إلياس يفكر: " أيكون نقار لا يزال مغلوباً بطباع الحجرت وارتيابه؟ تجربتي في "الحجرت" أقصر، من تجربته ولكني حملتُ هذا اللقب الاضطراري سنتين أو ثلاثاً حتى التقيت بالشراكسة على طريق فارس. ومن حظي أن داور بن أبرج لم يمت بخنجري في القالمق... وما جرى لي في شأن الحب أتعس مما جرى لنقار: أبعدوني عن أسرتي الجديدة وأهانوني إهانة لا تُمحى العمرَ كله. من كان السبب؟ ابن قومك أبرج الذي استطاع أن يحمل أبناء قومي على طاعته يا نقار. ولم يفهمني أبناء قومي الذين شكوت لهم مأساتي. يقال إن الجميل تَلقى منه الجميل، ولكن جمال زوجتي الشابة نكبنا كلينا. أين هذه المسكينة؟ ربما احتُجزت في "شرال" (مبغى) تركي، ترضي رغبات الرجال..." – شدّ أتا– إلياس اللجام كأن الحصان هو المسؤول عما جرى له فوثب.
قفز نقار من أفكاره وسأل:
– هل من خطورة؟
– لا، لا أعرف ماذا جرى لحصاني.
– ربما عرف حالك!
– كيف؟
– تكلَّمْ مع حصانك أحياناً ولا تسمح لأحزانك أن تفنيك... هل تعرف ماذا

رواية طويلة بعنوان "ردد" مترجمة إلى العربية من مترجم هذه الرواية، وتجري أحداثها في بداية القرن الحادي عشر. (المترجم.)

يفعل أولئك الذين تسمونهم: الشركش[1]؟ إن لم يجد من يفهم آلامه وأحزانه وضع أمامه قبعته وشكا لها، واتخذه مستشاراً... أما أنت فيُخيَّل إليّ أنك تتهم حصانك بسوء مزاجك.

– ومن أين تعرف؟

– قلت يا مبارك النسل: "يخيل إلي"، ولم أقل: "أعرف"... – ولما بدت الخيام التي تؤلف قرية قامل غيرَ بعيد عن الجبال الخمسة، وجد نقار ذريعة لإنهاء الجدال بينهما فأبدى فرحه: – دعنا نلقي التحية على قرية أبناء قومك دون الدخول إليها.

– وعليكم سلام، – رفع أتا – إلياس جسده قليلاً عن السرج كما يفعل الشراكسة تعبيراً عن الاحترام. وفعل نقار الأمر نفسه. – كان يقال إن جدّ جدي ولد أيضاً في قرية قامل حالْق.

– هل قبره فيها؟

– لا جذور لأسرتنا في هذه القرية. ولد جدنا بين الشراكسة في أرض البسلني، لا أعرف في أي مكان، ثم قضى المسكين على يد أحد الجبليين، بعضهم يقول: من الشركس، وآخر من الأباظة، وثالث من البالقر، ورابع على يد واحد من ثلاثة إخوة من القرشاي؛ فمَن مِن هؤلاء ستطلب الثأر منه؟! وكيف تعرفه؟

– مضى عليه وقت طويل...

– الثأر القبلي وثأر الأسرة، – رفع أتا – إلياس رأسه وقد احمر وجهه: – ليس له أجل محدد. جذور هذه المأساة ستزحف مرة من تحت الأرض كما تزحف جذور الشجرة. إن لم أثأر لجدي كان اسم "أتا – إلياس" الذي منحوني إياه بلا معنى. ولو كان عندي ولدٌ لسميته أتا – إلياس أيضاً... – انكسر صوت أتا – إلياس.

– أوقعوك في ورطة... – قال نقار مشفقاً عليه، وسأل متجاوزاً كلامه: –

[1] بالشين، على طول الرواية كما ينطقه البالقر والنغوي...، وإن آثرنا عدم استعماله.

المترجم.

أعرف اسمك، وتعرف اسمي، وتناديني باسم الأسرة مامسر، ولكن لا أعرف اسم أسرتك.

– كيف تعرفون وأنتم لم تسألوا عنه؟! – ولا بأس أن تقول: كل الناس يعرفون نسبي. ولا تستغرب إن قلت لك؟ نغوي!

– نسبٌ جيد. – وقال نقار في نفسه: "من حظنا أنك لا تحمل نسب "جنكيز"!

– نعم، ليس نسباً سيئاً.

– النسب يا نغوي تعرف إن كان جيداً أم سيئاً من خلال الشخص الذي يحمله.

– أنت على حق يا مامسر، على حق. كان مناسباً أن نتوقف في قرية قامل التي ولد فيها نغوي أتا – إلياس الذي أحمل اسمه ونسبه، سورت ونحن بقية الإخوة، ونستريح.

– أتريد على مبدأ القبرتاي الخبثاء: "تفضل إن لم تكن مستعجلاً "؟..

– وهل يصدر عني مثل هذا يا نقار؟

– لا، أمزح فحسبُ. نحن، أعراق الأديغة، نتبادل المزاح بيننا. إذا لم يبق على وصولنا إلى البسلني مساء إلا القليل فتوقُّفنا حيث لم يبق لك جذر، لا أقصد عدم الثقة بأبناء قومك، ومع ذلك تعرف أننا في زمن القلاقل...

– إن كان هذا رأيك فلن ندخل إليها. وإن دخلنا فماذا نفعل حيث لا يعرفوننا؟

خاطب أتا– إلياس نفسه:" تقول:"لا أقصد عدم الثقة بأبناء قومك"، ولكن ما في قلبك ليس ما على لسانك.– لا ألومك أيها الشركسي فعالمُنا هو عالم الدسائس والرياء... وأبناء قومي النغوي مثلُكم، لا يثقون بأحد. أنتم ونحن والأباظة والقرشاي، يفتعلون بطولات، وينتحلون تاريخ غيرهم، حتى لَتضيقُ بهم الدنيا".

"تقارنوننا بتتار القرم بحجة أنهم من قومنا، وتُشركِوننا في آثامهم فتدينوننا. نعم، لا ننكر أننا من العرق التركي الذي كان يهز العالم في وقت من الأوقات

بسيوفهم وحوافر خيلهم، وإن تباينت لغاتنا قليلاً. وتتطابق أزياؤنا وعاداتنا ومآكلنا. وتتشابه أعراسنا ومآتمنا وطريقة ركوبنا الخيل. وندين جميعُنا بالإسلام. ومع ذلك يدفع الأتراك تتار القرم إلى محاربتنا. ومن الذي انتكبت على أيديهم القبيلة الذهبية الكبرى المعروفة في العالم كله؟ هم تتار القرم الذين تظلون تعيروننا بهم. وهؤلاء ليست الأرض التي يعيشون فيها هي التي ولدوا عليها... ما نغبطكم عليه هو أنكم تعيشون على أرضكم... لا توهمونا بأنكم قوم مسالمون كأننا لا نعرفكم! ألستم، كما يروي كبارنا، أهل جلخستانيه وأهل باخسان،من تَحاربوا بالسلاح يوماً؟ ما فعله الترك والقرم بقبيلتنا الذهبية فَعَلَه بكم روسيا والقرم...".

– يا أتا — إلياس، يا حامل نسب النغوي المبارك، قال الآن مامسر نقار لرفيقه منادياً إياه بنسبه، – إن كان هذا رأيك أيضاً فلن نحيد عن طريقنا.

– ما هذا الكلام يا نقار؟!

– أظنك يا أخي مهموماً بشيء لا تستطيع البوح به...

– لا، أليس كل ما حولنا مما يبعث على الهمّ؟..

– جرى الكثير على هذا العالم المقيت، وسيجري. أمَا وقد ساندتني في يومي هذا الذي انتظرته سنين طوالاً من الترقب، فسأقاسمك همّك.

– قلتُ هكذا جزافاً، – ابتسم أتا — إلياس، – لا يبعث فيّ الهمَّ إلا الحُرُّ.

– صحيح، هناك من يواتيهم الحَر ومن لا يواتيهم. الشمس مالت، والبسلني لم تعد بعيدة. سنقصد مضافة نارت جعفر. ونبدل هناك عربتنا. وأنت تبقى بين أبناء قومك.

– سأفترض أني لم أسمع كلامك يا نقار. لن أتخلص من عربتكم، وأجعل من نفسي نصف نبيل كما يقول الشراكسة. سأصل معك إلى الجانيه، وأرقص في عرسك بطريقتي الخليط من النغوي — الشركس. ثم سنرى كيف تجري أمورنا يا رفيقي.

– حياك الله يا أتا — إلياس. — ارتفع مامسر عن الحصان قليلاً تعبيراً عن الاحترام. — ما سمعته كلام رجل حقيقي. وأنت تناسَ ما عبّرت عنه بقولك

"سنرى كيف تجري أمورنا". أأنت أم أنا من لا يعرف طعم العزوبية؟ سنفكر في هذا أيضاً معاً.

– هذا ليس الآن، لاحقاً، – تلعثم أتا – إلياس، وغيّر عبارة "ما يُهمنا" الذي قفز إلى لسانه، إلى عبارة أخرى: – لا تزال أمامنا مهام كثيرة.

– لو كانت هذه مهام سلمية لكان خيراً... – قال نقار، واستسلم ثانية إلى ارتيابه: – "نحن الاثنين كأن قلبينا منفتحان، أحدهما على الآخر... ولكنه يُخفي عني شيئاً على عادة النغوي. كل إنسان، بغضّ النظر عن الأسرة والأب والأم والإخوة... عنده سرٌّ يحمله معه إلى القبر... وإذا كان سرُّ هذا الرجل من هذا النوع، فلا أريد أن يبوح لي به، هذا حرام. وإذا صدق ما يُهددنا به قسي أفندي فسيأتي يوم ينكشف فيه هذا السر. هذا الرجل وأنا جمعتْنا مصيبتُنا، ولا أتذكره بهذا الشكل منذ تعارفنا. وكيف لك أن تعرف ما قال له حتخشقوه وجباغ منذ صارا موضع سرّه؟.. – يا أتا إلياس أنسى أن أسألك في موضوع، ولا تتصور أني أقصد به شيئاً: هل أخوك الأصغر في جيش القرم؟

– لا، لا عمل له في جيش القرم.

– وما عمله إذن؟

– إن كنت تتذكر، هو من كان يضرب بسوط الحصان هنا وهناك حين توجهنا قبل أيام إلى أمام خيمة وراق مرزا، هو الحارس باوبيك.

– وكيف لا أتذكر؟! – سمّر نقار حصانه، وسأل لا يعرف السبب في ما قاله:

– كيف استطعتم الصبر؟

– ليس هناك ما لا تفعله في المواقف الحرجة... عليّ أن أقابل أخي الأصغر الليلة...

– فهمت... أنت لم تقل شيئاً، وأنا لم أسمع...

انصرف الجيران الذين رحبوا بهم في مضافة آل نارت فقال أتا – إلياس الذي كان يبدو كمن لا يهتم بشيء:

– سأذهب إذن كما أخبرتك إلى أخي الأصغر.

– سأركب معك إن قبلتني رفيقاً.

– لا حاجة يا نقار إلى أن تسأل منذ أن صرنا صديقين حميمين. هذه المرة، لا تؤاخذني، أريد أن أكون وحدي. ليس المكان بعيداً، سأصل في بضع غلوات حصان، وأعود.

– مع السلامة إذن، حقق الله نيتك!

أجبر وقعُ الحوافر في منتصف الليل المضيفَ جعفر على الجري إلى المضافة:

–هل هناك ما يُقلِقك؟

– لا، ركب أتا – إلياس إلى القرية في مهمة.

– وأي عمل في منتصف الليل؟.. – غمغم المضيف بكلام لا يليق به، وسأل نقار: – هل تعرف من أين رفيقك؟

– وهذا من الذين يعيشون وحدهم مضطراً.

– وكيف يكون وحيداً وأخوه الأصغر أحد حراس وراق مرزا القساة؟! لم أعرف كيف أفهمُ الأمر لأنه رفيقك، احذر منه!

– اطمئنَّ أيها البسلني! – ناداه نقار بنسَبِه، كما فعل المضيف به. – لا أتخذ من ليس موضع ثقة رفيقاً. وأنت لو انضممت إلى فرسان الزفاف...

– مهلاً يا نقار، مهلاً، – قاطع جعفر صديقه، – سنبدأ زفافك من البسلني، وسننهيه في الجانيه بعرس سبعة أيام يتعجب منه من يراه ومن يسمع به.

استعرض مامسر نقار في نظرةٍ حياة الوحدة التي عاشها، ثم قال متفكراً على قدر عقله في المصيبة القادمة للأديغة:

– حياك الله يا جعفر، – وقال لنفسه: "هذا إن كانت نيتنا ستتحقق لنا".

كان أتا – إلياس قد وعد ألا يغيب طويلاً حيث ذهب، ولكنه دخل إلى المضافة مع الفجر ونجاحه في مهمته ظاهر على وجهه ونشاطه. ولما رأى نقار جالساً في كامل لباسه سأله خجلاً من نفسه:

– ألم تنم يا نقار؟

– نمت، ونهضت مكتفياً من النوم. – ولحيتي وشارباي، على ما تراهما، – مزح نقار، – شذّبتُها قليلاً. وهناك خبر سارّ: مضيفنا نارت جعفر جاهز للانضمام إلينا بفارسين.

– هذا خبر جيد يا نقار، وأنا لم أعد من مهمتي خائباً.
– لاحظت هذا منذ أن نظرت إليك؛ حقق الله نواياكما!
– ليس لنا وحدنا، بل لكل من في قلبه الخير.
– هذا هو؟ – نظر نقار بعين الود في وجه رفيقه وكأنه أُطلِع على ما لم يكن يعرفه.
اقترب نقار وصاحبه من الجمكوي في طريق مأمون، على مبدأ "لا يستعصي الطريق على أحد"، معرِّجين على يسارهما على الأبزاخ،، ثم عبروا البجدوغ، حتى وصلوا إلى الجانيه.
الصباح التالي لأول يوم جرت فيه حفلات الرقص حمل خبراً مزعجاً لنقار وسورت اللذين فرقت بينهما السنوات: جيش القرم المؤلف من خمسين ألفاً، بالإضافة إلى خمسة آلاف جندي تركي بقيادة مرتاض باشا زحف على إقليم الأديغة.
وفي اليوم نفسه، وكما جرى الاتفاق، هُرع الفارس المبلِّغُ من أرض الجانيه إلى أرض القبرتاي.

الفصل الرابع والعشرون

قال باتر أفندي الذي لم يعرف بعدُ أن جيش القرم لم يعبر البحر لداور:
– أحتاجك بعد صلاة الظهر، تعال إليّ!
وقف داور بين المصلين لا يعرف بِمَ يُجيب. وبعد الصلاة ذهب غير متحمس للقاء الأفندي. ووقف أمام الرجل الجسيم الجالس في غرفة مظلمة غير كبيرة:
– أسمعك يا أفندي!
– اجلس يا داور!
– وكيف أجلس في حضرتك وأنت أكبر مني بما لا يقاس؛ أسمعك.
– ماذا نقول، نحن الأديغة؟: "من يسمحُ لك بالجلوس لا يعود فيغتابك"، اجلسْ!
– لا تؤاخذني يا أفندي، ينتظرونني.

– وماذا تفعلون من قبل أن تولدوا؟.. — ابتسم داور فلمعت قواطعه العريضة في الظلام كبذور اليقطين. — نحن لم نكن نعرف أين نقضي النهار أيام شبابنا... — وفي الحال سأله سؤالاً لا مناسبة له: – هل تود رؤية والدك؟

سأل داور متجاوزاً السؤال المطروح عليه:

– ماذا قلت؟

– هل تود رؤية والدك؟ – كرر باتر الآن السؤال بصوت حازم ناسياً صفة الأفندي.

– أنا جئت يا أفندي لأصلي في بيت الله، لا لِأرى أحداً.

– أيُّ وقاحة أسمعها؟

– اهدآ! — لام أبرج مرزبج الذي أسرع من الغرفة الأخرى ابنه: – لماذا لا تنفذ يا ولدي أوامر الأفندي، خادم الله؟ أنا من حدد لك هذا الموعد.

– سأترككما إذن تتحادثان، الأب وابنه.

– لا بأس يا أفندي، ولكن لا سرّ بيننا، نحن الأب وابنه.

– توقَّفْ يا أفندي، أنا لا أريد أن أعرف سرّ هذا الرجل، ولا علنه.

– يا ولد! — ارتفع صوت أبرج مما سمع.– اِنس نصفك المنتمي إلى آل بولت، وافعل ما أُمرتَ به!

انغرز الكلام الذي رُمي به داور ناراً في صدره ولكنه أجاب متجاهلاً:

– لن أنفذ لك هذا! ولكني أقول لك، وبشهادة الأفندي، أني نسيت منذ اليوم نسب الأبرج.

وفي الحال فتحت قُتاس الأخت الكبرى لبولت الباب عنوة، منتشية بالخبر الذي سمعته، وقالت لمن يقف ابنها أمامهما:

– لماذا تناكدان ابني وقد حبستماه في بيت الله الذي بناه أخي بولت؟

نهض أبرج مرزبج وقد امتُقع لونه مما رأى وسمع:

– يا ابنة آل بولت الثرثارة التي يساوي جنونها طول ثوبها، اغربي عن وجهي قبل أن تفلت مني يدي!

قفز داور وتصدى لوالده يريد حماية أمه:

– أقول لك يا أبرج مرة أخرى: لا أعرفك ولا تعرفني. لا تعترض طريقي بعد الآن! تعالي يا أمنا[1]، ليس هذا بالرجل الذي تلقين عنده شيئاً من الإنسانية.
التفتت قتاس العائدة إلى البيت تتقدم ابنها إلى زوجها السابق، وقالت:
– متى قال لك ولدك ما سمعت فالأفضل أن تموت.
رقّق أبرج صوته نادماً على خشونته الزائدة مع ابنه:
– لِنتكلمْ معاً كالرجال إذن! ربما كان هذا آخر لقاء لنا.
سمّر كلام الأب داور، وهدّأ أمه:
– مهلاً يا أمنا، عندي أسئلة لمن طلب مني أن نتحادث حديث رجال... عودي أنت، وأنا سأتأخر قليلاً.– ثم توجه إلى والده وسأله: – ما الذي تريد أن تقوله لي؟
– لماذا يا داور ترفض أن أكون أباً لك؟ ماذا أسأت إليك؟
– هل قلت:" أب"؟ وُلدتُ يتيماً وأبي وأمي على قيد الحياة. أين كنتما حين سُرقتُ؟ هل بحثتم عني؟ كلاكما لم يهتم بالأمر. حيا الله القبرتاي الأخيار الذين كانوا عوناً لي. كان من الصعب معرفة ما سيجري لي لولاهم. وبعد كل هذا تقفان أمامي تقولان: أنجبناك!..
غامت عينا مرزبج مما سمع. وشحب لونه. وفي طرفة عين مرّ شريط حياته بكاملها أمام عينيه. ومنذ صغره كان مرزبج المولود في أسرة نبلاء يحسد آل بولتقوه المعروفين في كل إقليم الأديغة. ولم يتقبل في صميمه كون هذه الأسرة أقوى من أسرته.
ومع ذلك، فقد تزوج مرزبج ذو الجسد والوجه الجميلين من قُتاس، الابنةِ المدللة لأسرة الإمرة بولتقوه. كان ما تأمّله حينها غير ما يجري الآن. منذ الأيام الأولى بعد العرس نشرت ابنة أسرة الإمرة جواً من البغضاء في البيت: بدأت تعيّر الرجل بأن أسرتها أقوى من أسرته، وبدأت تتذمر من كونها الآن نصف سيدة بيت فحسب، وبأن أولادها المقبلين لن يكونوا أولاد إمرة حقيقيين. ولم يكن

[1] العادة أن يُنادى الأب والأم بصيغة الجمع كنوع من الأدب. المترجم.

يقدر على مقاومة المرأة المسترجلة، ولا استطاع حمْلَها على التخلي عن جلافتها. ولما ولدت داور ازدادت حِدة بدلاً من أن يلطِّف الوليد طباعها.
فهم أبرج أن زوجته تطوّعه سنة بعد سنة منذ زواجهما، فانفصل عن ابنة آل بولتقوه عاجزاً عن تحمُّل المزيد، وتوجه إلى خانية القرم عسى أن يولّيه الخان عملاً جديداً، مختبراً قوته وقدرته. لم يكن ليغبط أحداً على قوته ورجولته. كان واثقاً أنه سيجد منصباً ما، يترقى فيه بسرعة، وأن الخان سيولّيه مسؤولاً عن الجمكوي. ونسي في غمرة هذه الأحلام العذبة إن كان له ولد. أما قتاس فكان همها أن يحمي أخوها الأصغر أسرة الإمارة، موهمة نفسها أن ولدها سرقه منها والده، فعاشت لامبالية حتى كُشِف عما جرى لابنها.
– يا داور صدِّقْني أني لم أعرف إن كانوا سرقوك. والدتك هي من نسجت كافة خيوط هذه المأساة وعقّدتها. وهذا هو السبب في أن أحداً لم يبحث عنك...
– لا فائدة الآن من هذا الكلام. لن يعيد أحدٌ إليّ طفولتي. — أجاب داور أباه وقلبه يتمزق، – كانت والدتي تائهة في ما أصاب عزة نفسها. وأنت لم يكن يهمّك إلا شخصك. أما أنا فكنت أرثي وحدتي كارهاً المشاحنات والعداوة بينكما... لماذا تحتاجان إليّ الآن؟ أنا عندي بيت وأصدقاء حقيقيون يساندونني في القبرتاي. لا تُفسد عيشتي يا أبرج! عشْ كما كنت تودُّ... لم يعد بيننا ما نتحدث فيه أكثر من هذا.
استدار داور سريعاً وخرج من الجامع.

الفصل الخامس والعشرون

أراح قزنقوه جباغ العائد من عند الأمير الوالي حتخشقوه حصانه، وقدّم له ما يحتاج من خدمات. ولما استند بصدره، دون قصد، على السور عادت الأفكار التي لم تكن تفارق ذهنه فاستولت عليه: كل الناس بغض النظر عن لغتهم ولباسهم وغذائهم، وبياضهم أو سوادهم، وصفرتهم أو ضيق أعينهم، وعن أفراحهم وأتراحهم ونظراتهم إلى الحياة، مهما تطابقت أو اختلفت، فإن ما

يُفرحهم وما يحزنهم، وطرائق ضحكهم وطرائق بكائهم، متشابهة. ولكن رغم أن الناس يعيشون هكذا فإن الماشي لا يستطيع مجاراة الراكب، والمتخم بالطعام لا يفهم الجائع، والجالس على العرش يركع أمامه الناس. هذا لا يسعه البيت المؤلف من طبقات، وآخر يكفيه كوخ مغطى بالقش. مَن عنده المقدرة قبره فسيح، والمعدِم قبره ضيق. يبدو أن من عنده أجنحة يطير، ومن ليس عنده يشتهي ما عند غيره... "

ارتفع جباغ عن السور فيما هو يضحك من عبارة "الاشتهاء" التي عزاها لنفسه. خشي أن يكون أحد ممن في الدار سمع ضحكه من نفسه فأجال النظر في كل مكان. كان مرتاحاً لأنه لم ير فيها أحداً، ولكنه دخل الغرفة آنفاً أن يبقى معتمداً على السور كمن فقد أي أمل.

وقبل أن يرتاح في جلسته هجمت عليه أفكاره من جديد كذباب الصيف العضوض: "من له جناح يطير، ومن ليس له يحسده..." – تكررت الكلمة التي استدعت ضحكه في الفِناء، ففكر في الموضوع من زاوية أخرى متذكراً ما كان يقوله جده وجاره العجوز. "نعم، عالم الشمس والقمر مركب على نحو عجيب من أربعة أقسام حسب الجهات الأربع، وليس هذا وحده فالسنة أيضاً مركَّبة من أربعة أوقات: الربيع والصيف والخريف والشتاء. هذه الغرفة بأربعة جدران. والإنسان؟ الإنسان أيضاً يدان ورِجلان. والبهائم والوحوش بأربع قوائم. والطيور تُقلِع بساقين وجناحين. وما يُقلقنا في النهر الذي يُحيينا بمائه حين يفيض هو مبدأ نهر باخسان ونهايته، وضفتاه. وأعجب ما في الأمر أن كل نهر وكل ساقية يمينه أعلى من يساره. أليست القاعدة أن يسيطر الأقوى على الأضعف؟ "

نظر جباغ الذي كان يذرع أرض الغرفة بهدوء إلى سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الماعز، فتسمر في مكانه: "مهلاً، مهلاً، والدين؟ وهو الآخر يقال فيه إن أربعة أديان متميزة هي التي تهيمن على العالم: الإسلام، والمسيحية، واليهودية، والرابع كنت سمعت اسمه، ولكن لا أتذكره. هو، على ما يقال، الدين الذي يعتنقه سكان الشرق ذوو العيون الخُزْر... حقاً هو ما يسميه جيراننا القالمق:

بوذا... — سأل جباغ نفسه في ما يفكر فيه بعدما وقف قليلاً: – لماذا العالم مرتَّب بهذا الشكل؟ سمع جباغ نداء صلاة الجمعة، فتوضّأ وركب إلى جامع حتخشقوه بصحبة الحارسين.

المصلون لا يتسع لهم فِناء الجامع الفسيح الذي أمر كرغوقه بتشييده العام الماضي بناء على رجاء اجتماع النساء المسلمات بقيادة السيدة الأميرة نارنه، وعلى رجاء الرجال المؤيدين لقسي أفندي، بالإضافة إلى تشريفه بمنصب الأمير الوالي. بل تضيق بالمصلين الشوارع القريبة من الجامع، ولا تكفيهم أماكن الوضوء. المصلون الذين لا يدور بينهم كثير من الكلام يتبادلون التحية. ويجتمعون في مجموعات حسب الأعمار من اثنين أو ثلاثة. يتجاذبون الحديث على نحوٍ يدل على أن المصيبة القادمة جمعتهم. والشباب الذين وصلوا مبكرين ينصتون إلى الكبار واقفين وراءهم. وما يشغل بال الجميع سؤال واحد: "ماذا سيكون مصيرنا؟ وماذا بإمكاننا أن نفعل؟"

قال قزنقوه جباغ لنفسه حين رأى جمع الرجال الكبير جداً خلافاً للجُمَع السابقة: ربما كان مثلُ هذا الحشد هو من دفع جدي إلى القول: "المُلك يفرق الناس، والحاجة تجمعهم".

رأى قسي أفندي الذي علّق السُّبحة بيده اليسرى الأميرَ كرغوقه الذي يفسح له المصلون الطريق، فقال مستمتعاً بالإنصات إلى كلماته العذبة:

– عشتم بأفضل حال أيتها الجماعة ، أفسِحوا الطريق للأمير. تفضل أيها الأمير الكبير للجماعة القادمة للصلاة، حماها الله العلي العظيم. وأنت يا جباغ، قف في صفنا. وأنتم يا كبارنا المؤمنين تجمعوا وقفوا على مسطبة الجامع كي يراكم الشباب مرة أخرى ويكرموكم. — ثم حكى ما رأى وما تحقق له فرِحاً به متظاهراً باستشارة الأمير والكبار: – ما العمل في رأيكم، الجامع لا يتّسع لكل هؤلاء؟.. ولكن ما من مشكلة إلا لها حلٌّ يا جماعة. سنتصرف اليوم كما علّمنا الله العلي العظيم. الكبار بزعامة الأمير نصلي في الجامع. وأنتم بقبول الله، اتخِذوا من أكسيتم سجاجيد صلاة، ومن ليس معه ما يصلي عليه فعلى العشب النظيف، وسنبقي الباب والنوافذ مفتوحة. وسأُسمِعكم صوتي، صوت

الأفندي، بقدر الإمكان. ونصلي هكذا في حضرة الله الخالق الرحيم.
وقبل أن يتفرق المصلون الذين سمعوا صوت الأفندي من الجامع، ومن لم يسمعوه، وقفوا ينتظرون كلام الأمير أكثر مما ينتظرون موعظة قسي أفندي. تقدّم الأخيرُ المصلين الخارجين من الجامع، بصفته الإمام. ثم رفع اليد اليسرى القريبة من القلب، المعلّق بها السبحة، وخاطب مَن أمامه:
– تقبَّل الله الذي وقفتم أمامه صلاتكم، ورحمكم وحماكم! سنقدم الكلمة اليوم، بعلمِ الله ورضاه، إلى أمير القبرتاي كلها كرغوقه حتخشقوه بدلاً من موعظتي. نسمعك يا زعيم الخير، يا من حماه الله وحمانا.
– سيكون كلامي قصيراً يا جماعة. ليس اليوم يوم الكلمات المطوَّلة، ولا الغد ولا الأيام التالية. لن أكرر ما تعرفونه. ولن أخفي وضْعنا الحقيقي: جيش القرم آتٍ إلينا يريد اقتلاعنا من جذورنا، لا كما كان يأتي سابقاً لاستيفاء الإتاوة. نحن الآن في موقف يوجب علينا حماية شرف الأديغة. الحرب نار، النار تُدفئك ولكنها تَظلِم الجميع بلا رحمة. لا تفرق بين من على حق ومن على باطل. تحرق من تمسّه، وقليلون من ينجون منها.
قسي أفندي الذي سمع: "صحيح يا أمير، صحيح"، "أين كنتم إلى الآن؟"، "قلْ لنا ماذا نفعل"، صاح باتجاه من قال "أين كنتم إلى الآن؟"، مشيراً برأس عصاه الفضية:
– من هذا؟.. اسكت يا عديم الإيمان! لا يقال مثل هذه الكلمات المُغرضة أمام الجامع. لا تؤاخذ الضالّ أيها الأمير الوالي، نسمعك.
– لم أسمع يا أفندي ما يُعاب، كلٌّ يعبّر عن رأيه. — قال الأمير حتخشقوه، وأجاب بصوت حازم: – ولكن لا ينسَ أحدٌ أننا وصلنا إلى الموقف الذي سيتضح فيه طريق وحدتنا. وجواب سؤالكم عما يجب أن نفعل هو: سنتجه كما اتفقنا إلى منعتنا الأديغية الأزلية.
– هل تعني أن نترك قرانا وأراضينا ونختبئ في الجبال؟ – صاح الآن أيضاً أحدهم من بين الجمع.
– أين رجولتنا؟ – وافقه شخص آخر.

– كفاكم؛ اسكتوا! – نهر الحداد قاشرغ هؤلاء.

– يا أمير، يا زعيم الخير، – قال عجوز قوي البنية بعدما أدى الصلاة، – لا تؤاخذني، وأنا أيضاً أريد أن أساهم برأيي. – لاقاه الحارس قرج الذي رأى الفارس قادماً، وأمسك بزمام الحصان ليوقفه، فنهاه العجوز: – ألستَ من طلبت منه الابتعاد؟ هيا قبل أن أسوطك! اترك زمام حصاني. لم آت إلى هنا للتسلية... أنا غُرت ماجِخ إن كنت تتذكرني أيها الأمير كرغوقه. ترافقنا في أماكن كثيرة، وتجولنا معاً كثيراً... رجليّ اللتان لم تعودا تحملانني حبستاني في البيت. فطلبت من أولاد أختي النشطاء أن يساعدوني في الركوب، فركبتُ وجئت. كان من واجبك يا أمير أن تسأل عني. ولكني لا أعتب عليك، فلسنا في موضع نتبادل فيه اللوم. إذا لم نكن من يقرر عمر الإنسان، وإذا كنا نقف اليوم أمام العدو، فلْننسَ الخصام وتبادُل الاتهامات. لا تدَعونا نقدِّم العتاب على التنافس في الرجولة. لنرفعْ من معنويات من تزعّمنا الأمير حتخشقوه! أنا أفهم سبب اختيار الأمير الوالي للجبل. – سأل العجوز نفسه: هل تسمعني يا بلاخوه، يا من يقول: "وهل سنختبئ في الجبل؟" إن كنت لا تعرف فاسمع: الريف مكشوف. والجبل عادل[1]. سكانُه يعرفونه، والغريب عنه يتوه فيه. – منح فرصة لمن لامه يفهم فيها كلامه، وأكمل بعد قليل: – ما العمل؟ لو لم أكن مُقعَداً هكذا لرافقتكم في طرق كثيرة، وفي الجبال التي أعرف أماكنها الخفيّة... ولكن لا داعي لليأس يا جماعة. لا تتركوا صبياً أو صبية في القرى كي لا يصبحوا لقمة سائغة للعدو. وكذلك النساء الشابات. ونحن، أنا والعجوز، سنبقى كغيرنا من العجائز في القرية. ماذا أيضاً؟ لا أعرف... هذا ما كنت أريد أن أقوله لكم في يوم قلقنا. لا تقولوا: ركب إلينا العجوز المقعد ولقّننا درساً.

وبعد الصياد ماجخ قال الحداد قاشرغ ومساعده دمدي بضع كلمات، قاد قسي أفندي دعاء جديداً للمصلين، وانصرفوا وكلٌّ منهم يحمل قلقه معه.

قال بج نغر الذي ترافق هو وقزنقوه جباغ على الطريق بعدما خرجا من قرية

---

[1] في الكلام سجعٌ. المترجم.

الأمير:

– أشفقت على العجوز المسكين ماجخ. ولكن لم أجد من اللائق أن يلوم الأميرَ الوالي... كان عليه في مثل هذا اليوم أن يتغلب على مشاعره. حقاً لم يتكلم عن حقد، ولكن...

ابتسم جباغ:

– لا تدعْنا يا نغُر نصف كبيرنا الحكيم:العجوز راوي حكايات، يحرد إن لم يُصغوا إليه. ولا تدعْنا ندخل بين الأمير والعجوز الفلاح. هما يتصالحان، ونخرج نحن مذنبين. ولكن كرغوقه ليس كما يصفه ماجخ. يزوره ويسأل عنه ويرسل إليه. وكان عنده قبل أيام يستشيره. ربما تسلق الصياد ماجخ ونزل جبل قنجال مئة مرة. ويعرف المراعي القريبة منه جيداً.

– ولماذا يحتج إذن؟.. ربما يغلبه العجز.

– ربما هو أحد الأسباب. ولكن ماجخ ليس من الذين يستسلمون للمرض. — وأنهى جباغ بعد وقفة قصيرة: – ألا تعرف طبيعتنا نحن الأديغة؟ نقيس أنفسنا إلى الكبير ولو لم نكن كباراً. ومن يُعزُّنا نتكبر عليه.

– صحيح يا جباغ، صحيح.– وافق بج على ما سمع، ثم مازحه: – ولكني أظنك تغلي في اسم أسرتك دون نار[1].

– إن كان هذا رأيك يا زعيم الخير، – رد قزنقوه على المزحة بمثلها، – فما العمل؟ طحين الأديغة يغلي أدمغتنا[2].

بدت قرية قَزَنْقُيَه المتناثرة بين الأشجار في الجبل المشرف على نهر باخسان السريع. وصل الفارسان إلى مفرق الطريقين، فقال جباغ لرفيقه:

– تفضَّلْ يا نغر، نتغدى!

– حياك الله يا جباغ، لا أريد أن ننشغل بالغداء فنضيّع النهار. أدعو لكم أن تزيد ثروتكم ويبارك نسلكم. — وفجأة توقف نغر الذي سلك طريق قريته،

[1] القازان تعني المرجل باللغة التترية –التركية. المترجم.

[2] الطحين إشارة إلى التناحرات. المترجم.

وسأل: – هل صحيح أن بغنه الأعرج مثير الفتن، لم يكفه البالقر فاتجه إلى نواحينا؟

– وليس وحده، عنده رفاق من جماعتنا.

– من هم؟

– أظن أن بينهم بلاخوه الذي نهره اليوم الصياد العجوز ماجخ، وغيره.

– على كلامك، فقد زحف غيره من جماعتنا من الدغل فيما نظن أننا استطعنا تهدئة أبرج، وأعدناه إلى الجمكوي.

– الناس مختلفون بأشكالهم، وفطنتهم، وتفكيرهم كاختلاف الأشجار التي تراها على المرتفع هناك... – وبعد سكتة قصيرة شرح: – من حظنا أن العالم مركَّب على هذا النحو، وإلا قتلَنا الملل.

قال بج دون أن يدقق التفكير:

– أوافقك يا قزنقوه، ولكن ألا نتكلم كلانا لغة واحدة، ونعيش على هدْيِ شِرعة الأديغة، رغم اختلافنا في جسدينا ووجهينا، وفي غيرهما.

– نحن أديغيان ونحمل معنا روح الأديغة، ونتفانى من أجلها. غير أن ما أقصده هو أنه ليس كل الأديغة متشابهين.

– يا مبارك النسل يا جباغ، ذكّرتني بهذا الكلامِ العجوزَ دمدي الذي تعرفه؛ يقول: "رزقني الله بأربعة أبناء، ولكنهم لا يفهمون ما أقول لهم بالطريقة نفسها. أكرر للأكبر بضع مرات، والأوسط يدخل كلامي في أذنٍ ويخرج من أذنه الأخرى، والثالث ينصرف كأني لم أقل له شيئاً، والأخير الرابع يتلقف كلامي قبل أن يصل إلى الأرض".

– ربما لأن الأصغر هو الأحبُّ إلى القلب... – مزح جباغ، ثم شرح: – هذا هو الأمر، ليسوا متشابهين رغم أنهم إخوة. ولكننا لن نفتري عليهم. الإخوة الأربعة يساندون والدهم في موضوع الأمة. وعلى حد تعبير الحداد قاشرغ فهم: سيوف من فولاذ.

الأخبار المتناقضة المتناقَلة عن جيش القرم اليومَ وفي الأيام الماضية نشرت رعباً في القبرتاي الكبرى لم يكن فيها. وأكثرُ ما يُلحظ هذا الرعب في القرى الواقعة

غرب مضيق باخسان: دومانقواي، وحَمْرُغْقواي، وبْجَحُقواي، وحاتقواي، وبْشِزأ كو حابل، وغيرها من القرى التي يمكن أن يأتي العدو من جهتها. ومن هذه القرى قرية بورَحابل، قرية ماجخ.

– ما الأخبار في القرية يا بنت آل ملغُش؟ – نادى ماجخ من الغرفةِ الزوجةَ باسم أسرة أهلها، ولما لم يسمع جوابها عنّفها: – أين أنت، هل أنت صماء أيتها البائسة؟

– وأين سأكون؟ – قالت العجوز النحيلة السمراء، الطويلة القامة، وبيدها سلة فيها بضع بيضات.– كنت في قن الدجاج.

– لم أسأل عن دجاجاتك، بل عما في القرية من أخبار.

قالت مُفهِمةً العجوزَ عبر صوتها عن شيء من الاستياء:

– اليوم أهدأ من البارحة، ربما لأنه بقي فيها عدد من المسنين من أمثالنا.

– وأنت ماذا كنتِ تريدين؟ – سأل الرجلُ، ومدّ يديه القويتين حتى وصلتا إلى طرفي الحبل المعلق بعمود السقف، الذي يرفع به جسده عند الحاجة، ثم جلس في الفراش.

– أنا لم أكن أريد شيئاً يا والد ابنتنا... — نصحته بلطف وهي تضع الوسادة وراء ظهره، – ولكني أقول: ليتنا توجهنا إلى جلخستانيه حيث أهلي، إذ لسنا قادرين على الالتجاء إلى الجبل.

– أليست جلخستانيه جزءاً من القبرتاي فأدعَ الناس يقولون: اختبأ وراء ظهور أنسبائه؟! — احتد صوت ماجخ، ولكنه رأى مقصاً كبيراً ظاهراً من جيب العجوز فسألها بصوت أنعم: – ما هذا؟

– كما أن سلاحَك وراء ظهرك، فأنا أحتاط بهذا المقص إذ أن الوضع قلق، والقرية في حالة ترقُّب... يقال إنه يظهر في القرية عدد من اللئام... مهلاً، – نظرت عبر النافذة، – ها هما رجلان آتيان إليك.

– استقبليهما إذن. — اسمعي يا عجوز: خبِّئي مقصّك.

دخل الغرفة بلاخوه برفقة رجل أعرج، وكلاهما ممن لا يودهما ماجخ. رفع الصياد العجوز جسده قليلاً بطرفي اللجام تعبيراً عن شيء من احترام،وقال لهما:

– تفضلا، اجلسا. وأنتِ يا ابنة آل ملغُش، ويا عجوز آل غُرت، لا تنشغلي عن تقديم ما عندك للضيفين. أنتَ إن لم أخطئ يا ولدي ابن بلاخوه حتْيَقوه صانع السروج. واسمك إن لم أخطئ: طَطوراش. والدك حتيقوه كان رجلاً صالحاً. ليجعله الله من أهل الجنة، كما يقول أفنديتنا. كان ماهراً جداً في دباغة الجلود. وإلى الآن، لست وحدي بل حصاني مرتاح جداً لسرجه الناعم، وراضٍ عن صانعه. حياة الإنسان يا ولدي قصيرة جداً كجناحي طائر؛ فإن تركت فيها أثراً طيباً كان مدعاة للرضا.

– رضي الله عنك وغفر لك يا ماجخ، على إشادتك بوالدنا. ولكن والدي دفع الثمن غالياً إذ ظل يثقب إصبعه بإبرته، ويلعق دمه. وتركَنا نحن فقراء على الهامش. لن أخفي الوضع تماماً: لستُ راضياً عنه وإن أمدّني بالروح.

– وماذا بإمكانك أن تفعل بوالدك الطيب بعدما توفي؟ – سأل ماجخ، مخفياً الجرح الذي أصابه به، مدركاً طبيعة الرجلين أمامه، ونواياهما.

– قررت أن أطمح إلى أبعد مما طمح إليه والدنا.

– وعلى خطاه الميمونة؟

– أما قلت لك: إلى مكان أعلى.

وضعت ابنة آل ملغش مائدة عليها البيضُ وكأسان من شراب العسل أمام الضيفين، وخرجت من الغرفة تلقي نظرات خفية على عجوزها.

– تفضلا إلى مائدة حواضر العجوز.

– لن نعتذر لأننا مشغولان طوال النهار بقضايا الأديغة، ولم نذق لقمة.

– أخمِّن أصْلَ رفيقك هذا، غير أني أظن أنه لا يُتقن لغتنا.

– أنا من البالقر التالو يا كبير. وأتكلم لغة القبرتاي. وربما سمعت باسمي: جعفر، ونسبي: بَغُنه.

– هذا أنت من نسمع باسمه ولا نراه؟! ألا تقولان هكذا إذن؟ توقَّعتُ قليلاً أن تكون أنت... إن طال عمرك رأيت قطاً حاجّاً كما يقول صديقي دمدي الطرّاق مساعد الحداد قاشرغ. انظر ما يحدث لنا الآن... كنت أقول: أراحني أنك تحملت تعنيفي لك قبل أيام، حتى فهمتُ اليوم المهمة التي تعملان

لتحقيقها... يا بلاخوه إذا كان قول قزنقوه جباغ: الأب الصالح لا ينجب ولداً صالحاً، صحيحاً، فإن انتهيتما من الطعام، وهو حلال عليكما، فاغربا عن وجهي حالاً يا من تحلبان العار! – وأكّد على العجوز التي أسرعت إلى صوت العجوز المرتفع: – هذان، يا ابنة آل ملغش، ليسا بشراً. هما من أصحاب أبرج. إن رأيتِهما يمران بباب دارنا راجلَين أو راكبين فأطلقي عليهما كلبي الصياد. لن يلومنا أحد.

– بكل سرور يا عجوز.

– ستندم يا صياد آل حتخشقوه العجوز العنيد، – التفت بلاخوه بعين غاضبة إلى العجوز، وقال له: – ليس عندنا الوقت الآن لأن مهمتنا مُلحّة لنعاقبك على طول لسانك، ولكن سنعود إليك مرة أخرى وأنت على فراشك، سنحتاج إليك.

الفصل السادس والعشرون

كان جيش القرم قد قطع نصف طريقه في أبعد تقدير حين اختارت قيادته الريفَ الواقع بين نهري لابا ووارب مقراً له. من الجهة اليمنى تظهر جبال الأبزاخ، ومن الجهة اليسرى البعيدة يسير نهر بشزه متعرجاً إلى بحر آزوف. وأمامهم،حيث تتجه رؤوس خيلهم، تظهر الجمكوي والمخوش والبسلني والأباظة، وكذلك خيام النغوي. وإن تركت هذه البقاع وراءك وصلت إلى القبرتاي في حوالي أسبوع. والجانب الآخر، حيث يعيش الأمير الوالي حتخشقوه، لم يعد بعيداً.

كانت شمس الصيف الحارقة قد بدأت بالانحدار حين وصل قبلان – جري متمهلاً معتداً بنفسه إلى ضفة نهر لابا، فأنزلوا عرشه الذي يحملونه معهم.

– لست بحاجة إليه الآن، – خاطب رجاله بلطف، – سأروِّض رجليّ قليلاً ريثما يصل مرتاض باشا قائد القوات التركية.

وكأي نهر، يحمل نهر بشزه نفسه إلى بحر آزوف حيث يفنى فيه، غيرَ ملتفت إلى من يشربون منه أو يستحمون، أو يستمتعون بمنظره فيفرحون به، أو

يحزنون.
لم يكن قبلان – جري يرى لأول مرة أنهار لابا وبشزه ووارب وينْجِج. فقد شرب من مياهها قبل أعوام حين أُرسِل قائداً حربياً إلى نغوي القرم. وكاد يغرق في ماء نهر ينجج الجبلي السريع. لم يكن ما يفكر فيه الخان هذه اللحظة هو كونه قائداً، وأنهم أخرجوه نصف ميت من النهر، كانت أفكاره المتسائلة شيئاً آخر: "ما هذا النهر وإلى أين يجري بلا وعي؟ وما الذي ينتظره: الفرح أم الحزن؟.. نحن ماضون إلى مشرق الشمس وإن كانت تنظر إلى مغربها. الله رحيم، ونحن معه، ويعرف سبب مسيرنا، اعطف علينا يا الله، واحمِنا، وحقِّقْ طموحاتنا!"
وفيما قبلان – جري غارق في هذه الأسئلة – الأجوبة ارتسم أمامه فجأة منغل– جري الذي استدعاه سلطان تركيا في العام الماضي وحبسه عنده. نظر قبلان– جري إلى كل الجهات مرتعباً ناسياً مكانه، وأنه على ضفة النهر. ولما صحا برّأ نفسه لحصانه مما جرى وإن كان يتحمل جزءاً من مسؤوليته: " ذهب منغل – جري إلى القبرتاي ليكسب الثناء متباهياً بنفسه حيث لن يفلح، فنكب نفسه وأهان خانية القرم. والآن نحن ماضون للثأر له ولعدةٍ من قادة جيشنا، ولنضاعف الإتاوة عليهم ثلاثة أضعاف، فنعرّفهم هكذا قيمتهم. سيزيد تعدادنا على ستين ألفاً متى انضم إلينا خمسة الآلاف الأتراك بقيادة مرتاض باشا، وعشرة الآلاف النغوي بقيادة عليغت باشا، وخمس المئة من فرسان بولتقوه الذين خصهم السلطان أحمد بوسام العلم، وجماعة الأمير شوجنقوه الذين قتّل فيهم من نغزوهم الآن، وأبناء جِلدتنا البالقر. لن تسع أرض القبرتاي بكاملها لكل هؤلاء... – ابتسم قبلان – جري ذو الثلاثين عاماً، الذي يوصف بأنه ينظر بعين حادة، وتصل فطنته إلى الكثير من الأمور، ويمد يداً قوية، ويُعمِل سكينه جيداً، فتساءل مرتعباً من جرأته وفرحه بآماله العريضة: – وإن لم تجر الأمور كما نتوقع؟.. ولماذا لا تجري وكلُّ هذا الجيش تحت يدنا؟!"
نادى الخان حراسه على سبيل إيجاد ذريعة للنداء، متجاهلاً العرش الذي أمامه:

– أين ذهبتم بعرشي؟
وبعد قليل قال وراق مرزا للخان يتودد إليه:
– هذا النهر يا خان الخانات فيه سمك طيب.
وحسم الخان الأمر:
– لم نأت إليكم لأكل السمك!
–كما تريد يا خان، كما تريد.
– أين الذين دعوناهم؟
– حان موعد وصولهم، ننتظرهم.
– نحن لا ننتظر أحداً. ليِنتظرونا هم!.. لماذا تتركونني تحت الشمس ولا تستفيدون من ظل تلك الشجرة؟
– هذا المكان قريب من الضفة أكثر مما ينبغي.
– ألا يستطيع أن يحملنا؟
– لا يا خان الخانات. المكان الذي تختاره لنفسك مبارك لأي إنسان. ولكن نقول: من يعرف؟ ربما الشراكسة...
ارتمى الخان بقلبه إلى القرم دون أن يرتاح في ظل شجرة البطم، فانتصبت أمام عينيه زوجته ألسو بقوامها الرشيق وكأنها تعاتبه، فتوسل إليها: "لا تلوميني على أني لم أصطحبك إلى هنا، اغفري لي، يا شبيه روحي... كان اصطحابك ممكناً وكنت سترين فيه أشياء كثيرة، ولكن، وأنت تعرفين، ليس ما نسعى إليه مجالاً للترويح عن النفس. هذه الديار، كما عندنا، جميلة جداً، وقد تكون أجمل. ولكن كل مكان هنا يبعث على الرعب. نعم يا حلوتي لم أنس رجاءك: متى وصلتُ إلى القبرتاي، وضعتُ تحت تصرُّفِك الفتاتين اللتين خدعتانا، وجعلتا بيت الخان وكل الناس يسخرون منا. سأعيدهما، ولا تهتمي بأعدائنا الذين حاربونا في ديوان خان القرم ، ولا بغيرهم. وماذا أيضاً؟.. كما كنت أروي لك فجبال هذه المنطقة مكسوة بالثلج حتى لَتُنسيك جبالنا، وغابات متنوعة، ومنابع أنهار كثيرة جداً. نعم يا حلوتي، الليالي المقمرة هنا جميلة مثلك وإن كانت الليالي الأخرى مظلمة. والنجمة التي اخترتها لك لا تغيب عن بالي،

تدفئ قلبي. ونجمتي أنا، كعيوني، لتكن دفئاً لك. والحزام الذهبي – الفضي لزوجة الأمير حتخشقوه المدللة، الذي يأتون على ذكره سآتيك به، وألفّ به خصرك بيدي حتى لَيحسدُك الناس عليه..."

قفز قبلان — جري الغارق في خيالاته اللذيذة إذ رأى الفرسان الذين خرجوا فجأة من الغابة على ضفة النهر الأخرى، فامتشق سيفه، ونادى وراق مرزا:

– من هؤلاء؟

– هؤلاء إن لم أخطئ، – أجاب مرزا كمن لا يبالي، – فرسان شراكسة لصوص.

– وهل أنت في الغابة فتخطئ! — أين جماعتنا؟

– ها هم تصدَّوا لهم. هؤلاء يا خان الخانات لن يعبروا النهر. سيتظاهرون بحركات سيوفهم أنهم يرعبوننا، ثم ينصرفون.

ابتسم قبلان — جري، وعاد إلى عرشه واضعاً رجلاً على أخرى، متظاهراً باللامبالاة. ولكن الفرسان الشراكسة على الضفة لم يفعلوا كما قال وراق مرزا، بل تقدم أوسطهم إلى الماء، وصرخ عبْره:

– يا خان القرم، نرسل إليك سلامنا مع عليغت البدين القادم إليكم راجلاً. سلِّ نفسك، لن تنتظره طويلاً!

– من هذا الفارس العنيد؟ كأني أعرفه من وجهه وصوته؟..

– لم تخطئ يا خان الخانات! — هذا داور، ابنُ أخت أمير الجمكوي حتخشقوه.

– نعم!– صرخ قبلان — جري الذي حضر إلى خياله الأمير بولتقوه الذي سيسلمونه السيف المرافق للقب " سنجق بيه " الذي شرّفه به الأتراك. — وسأل بصوت ألطف: – أهو ابن أبرج شركس؟

– نعم يا خان، ولكنه وقف ضد والده.

– وبولتقوه؟

– هذا من الصعب أن تعرف حقيقته. هو كالسمكة. لا يمكنك الإمساك بها. وإن أمسكتها هربت منك. الخبير به هو عليغت باشا مرزا.

– أنت تثرثر!– نهر الخان الممتلئ غضباً نغوي مرزا. ثم عاد وسأله: – أين من ذكرت اسمه؟

ظهر قريباً من جهة الغابة الكثيفة القريبة من موقف الخان عدد من الرجال العزل من السلاح ومن القبعات، يتزعمهم عليغت باشا. ولما وصلوا ارتمى عليغت على ركبتيه أمام الخان مطرق الرأس. وركع معه رفاقه الخمسة.

وقف قبلان – جري على رأس هؤلاء، وخاطب عليغت:

– انهض؛ لا تُهنّني! – ثم سأله بصوت فيه نبرة رحمة: – ماذا حدث معكم؟

– كمن لنا ونحن قادمون إليك يا خان الخانات، عدد من فرسان الشراكسة، فأهانونا في خيلنا وسلاحنا وقبعاتنا... اغفر لنا يا موفد الله!

– أنا سأغفر لكم هذا، ولكن لا أعرف كيف ستغسلون العار عنكم؟

– سنغسلها بدماء الشراكسة يا خان الخانات.

– ألم نتفق على أن تصطحبوا بولتقوه سنجق بيه؟

– اختفى عنا.

– انهضوا يا حراس الباشا العديمي الشرف! – قال الخان لمن أمامه كمن لم يسمع شيئاً، وسألهم: – مَن بينكم كبير حراس عليغت باشا؟

– أنا، قال نغوي باوبيك.

– اجلس يا وراق مرزا إلى جانب هذا العديم الشرف؛ سأُريكم كيف تحمون خانكم وقائد جيشكم. – ضرب قبلان – جري بالسوط وجهيهما بحيث أرعب الآخرين أيضاً، ثم كرّم عليغت بأن احتضنه. ولما وصل إلى موقع خيمته قال لِمن كانوا يتابعونه بعيونهم: – لا تسمحوا، ليس لإنسان، بل لطائر، أن يطير قربه.

دخل الخان مع عليغت باشا إلى خيمته، فدلّه على مجلسه بطرف السوط نفسه الذي ساطهما به،وعاد هو إلى عرشه.

الخان صامت، وعليغت كمن يجلس على رأس إبرة.

ما يفكر فيه الخان هذه اللحظة هو مجموعة الفرسان الذين نادوه من الضفة، وليس ما فعلوه بموفده إلى النغوي عليغت باشا. وليس سلوكُ الأمير بولتقوه ما

لا يفارق ذهنه. بل السيفُ الموضوعُ في الصندوق، والمرصَّعُ بالذهب والفضة، وعليه كتابات، والذي كلفه السلطان أحمد بإعطائه إياه. ماذا سيفعل به الآن؟ كيف سيُفهِم السلطان ما جرى لهم؟ ومن يسمع بالخبر ألن يسخر منهم؟ – سؤال بعد سؤال، – أيكون هذا البدين الجالس أمامي جاهلاً بما جرى بل حُيِّل إليه؟ إذن ما القضية التي يتابعها الشاب ابن أخت الأمير بولتقوه الذي لوّح لنا بقبضته من وراء النهر؟ أظن أننا نحتفظ بدون جدوى بهذا الجالس أمامي يتأملني... موقفنا اليوم هو الموقف الذي نميز فيه المكشوف والخفي ولكن متى أنهينا مهمتنا في القبرتاي فسأرميكما أنت وبولتقوه في نهر ينجج الذي أنقذتموني منه... " – صحا قبلان – جري وكأن الأفكار القلقة لم تكن تتناهبه، وقال:

– بولتقوه من النوع الذي يصفه الشراكسة بقولهم "نضج لحمه دون أن تسودّ سياخ الشيّ".

– نعم يا خان الخانات، نعم. هذا الرجل رياؤه وذكاؤه متلازمان. لم يبخل بخرافه على جيشنا، ولا أفهم ما لاحظنا عليه.

– صحيح، – تابع الخان دون اهتمام بكلمات الباشا الأخيرة، – المرائي ذكي، والذكي مراءٍ، كما يقول الروم والأرمن في نواحينا. ولكن المكان الذي سيظهر فيه صحة هذا الكلام في المستقبل، هو أرض القبرتاي. وبعد قليل أنهى بلهجة الناصح: – لا تجثُ على ركبتيك بعد الآن يا علي باشا!

– فعلتُ هذا لأبرئ نفسي في حضرتك يا خان الخانات. ولو سُطتني كما فعلت بالاثنين الآخرين لما عتبت عليك.

– لا! احتد الخان، ثم قال حذراً على سلوكه: – لا أحب مثل هذه التصرفات يا وراق مرزا. هل عرفتم خبر مرتاض باشا القائد؟

– قادمون يا موفد الله، قادمون، سيصلون حالاً.

– إن كانوا قادمين، – قال الخان السعيد بلقب "موفد الله" – فأعِدّوا المائدة التي تشفي القلوب! ولْيبقَ بيننا ما جرى لنا اليوم! لا تدَعوا مرتاض باشا القائد التركي يعلم به. لماذا نُقلق السلطانَ أحمد، موفدَ محمد الذي هو موفد الله، بمثل

هذه الأحداث التافهة؟!

توضّأ مرتاض باشا القائد التركي الذي وصل بعد مضيّ بضع دقائق على موعد صلاة الظهر، وتوجه إلى الخيمة — الجامع المخصصة للخان. وقف وراء قبلان — جري وعليغت باشا المنهمكين في الصلاة كي لا يشغلهما، ووقف في حضرة الله بسلامٍ إسلاميٍّ. والرجلان اللذان انتهيا من الصلاة التفّا حول مرتاض باشا الغارق في الدعاء، وعادا إلى خيمة الغداء.

دخل مرتاض باشا، الرجل النحيف المتين البنية إلى الخيمة، فنهض له مرزا احتراماً. وبعدما أكلوا قليلاً سأل قبلان — جري الضابط التركي:

– ما الأخبار بإذن الله في الجهة التي تأتي منها يا مرتاض باشا؟ لماذا تأخرت عن صلاة الظهر؟ اعتقدنا أنك تصلي في الطريق لأن الصلاة كتابٌ موقوت. فلم ننتظرك.

– نعم، أنت على حق يا خان. الصلاة التي فرضها الله علينا تنتظرها أمة الإسلام، ولا تنتظرهم. ثُمنا قليلاً في الطريق الجبلي الأديغي الذي لا نعرفه كما لم نتوقع، تفضل علينا الله الذي يأتمر بأمره الجميع، فلم يؤخرنا عن وقت الصلاة.

– هل تعرّض أحدٌ لكم في الطريق؟ – سأل عليغت باشا، ولكنه لاحظ على وجه الخان عدم ارتياحه للسؤال، فغيّره: – وفّقنا الله إلى صلاة جماعية يا مرتاض باشا ولو تأخرت قليلاً. ما أشد سروري بأن أَرفقَ السلطان أحمد بنا رجلاً صالحاً مثلك.

– وعليكم سلام، يسرني أن نذكر اسم السلطان المنير أحمد بالخير في بلاد الشركس. سأبلغه كلامكم مع خبر انتصارنا. — قال مرتاض باشا، وسأل غير عارف سبب غياب من لا يراه: – رجل الرجال الأمير بولتقوه الذي كلفه موفد الله السلطان أحمد بتطويع أمراء الشركس، لا أراه!

– هذا يا باشا، – امتدح الخان أميرَ الجمكوي دون ذِكرِ اسمه، – يتابع أعمالنا. سنعرّفك عليه قريباً جداً بقدر استطاعتنا. والسيف الذي شرّفه به السلطان أحمد ها هو سنقدمه إليه أنت وأنا معاً. — خرج قبلان — جري

بمهارته المعهودة دائماً، خلافاً لعمره، من الحديث الذي نشأ بينهما: – يا مرتاض باشا، يا من حقق الله آماله، ما أخبار حرب روسيا — السويد؟

– سأخبرك يا خان، سأخبرك، – مدّ مرتاض باشا قامته على قدر فرحه بالسؤال، – ينوي سلطاننا ذو النظر البعيد إرسال عشرات ألوف محاربينا الذين أحرزوا النصر على القبرتاي، إلى نصرة ملك السويد كارل، لمحاربة أعدائنا الأزليين. حقق الله له ما عزم عليه!..

رفع قبلان — جري رأسه فجأة متظاهراً بأنه عرف الآن الخبر الذي يعرفه من قبل.

– لن نكون وحدنا يا خان. سيقف معنا أيضاً مازيب الزعيم الأوكراني.

ثم سأل مضفياً على نفسه صفة المخادع:

– ألم يعد الزعيم الأوكراني صديقاً لقيصر روسيا ذي العينين الواسعتين والشاربين الكثيفين؟

– مَن صاحَبَك اليوم فارقك غداً،كما يقول الأكراد. فلا تستغرب مثل هذه الأحداث في دنيانا العارية. هذه أسئلة لا نحتاجها، لا أنت ولا أنا ولا قادة الجيوش. نحن مهمتنا السلاح يا خان ولذا سنحقق بالسلاح ما كرّسونا لأجله، حين أوكلوا إلينا قيادة الجيش، تبعاً لرجولتنا، فنهزم الروس الكفار المجرمين بعونه تعالى.

الفصل السابع والعشرون

كلمة الخائن سهلٌ نطقها، ولكن شرْحها صعب.

منذ زمن بعيد يرتبط قيصر روسيا بطرس الأول برابطة صداقة مع مازيب زعيم أوكرانيا اليسرى. يستغرب المحيطون بالزعيمين الإخلاص المتبادل بينهما. كيف تصرف قيصر روسيا مع الزعيم الأوكراني؟ لا تحتاج إلا إلى شيء واحد لتفهم جواب هذا السؤال: أن تكون خائناً، الخيانة لا تحتاج إلى أن تكون قيصراً أو زعيماً، راكباً أو راجلاً. وبدايتها ونهايتها واحدة. ما مصدر الخيانة إذن؟ أهو الجبن أم الأنانية؟ تعرف جواب هذا السؤال حين تتأمل في العلاقة بين القيصر

والزعيم في شبابهما.
حرب السويد التي حفظها التاريخ باسم حرب الشمال، تخلّت فيها عن روسيا سكسونيا وبولونيا اللتان كانت حليفتين لها، فبقيت روسيا وحدها في الميدان، وحين كان يقال للقيصر بطرس الأول إن زعيم أوكرانيا يخطط سراً لخيانات ينضم بها إلى الملك كارل الثاني عشر ملك السويد، لم يكن يصدّق، ويعتبر الأمر افتراء على الأوكراني.
اليوم، في الرابع عشر من حزيران عام 1807 اقترف القيصر عملاً ظالماً سيندم عليه بعد شهر كما العادة: أمر بإعدام كوجوبي وإيسكرا قائلاً: "اتهمتما ظلماً الأوكراني مازيب من أجل أن تبعدا عني الشطر الأيسر من أوكرانيا".
حقاً أعدم القيصر من كانا يصرّان على تقويض البلاد، ولكن السؤال الذي لم يكن يدع له مجالاً للراحة وكأنه يخاف منه طرح نفسه اليوم لأول مرة وهو في ورشة النجارة الخاصة به: "هل تتصرف على نحو صحيح في هذا الموضوع؟.. وكما يغضب عندما يسمع ما لا يعجبه أو يُبلَّغ به، فقد غضب على نفسه: "نعم أعيش!-ثم حدّث نفسه بصوت أنعم: "تريدون أن تفصلوا عنا يسار أوكرانيا كما فصلتم سكسونيا وبولونيا... مهلاً يا بطرس بن ألكسندر: البحر لا يموج دون هواء، أيكون مازيب خائناً فيصدق كلامهم عنه؟ أيُعقل أن يخونني من أحسنتُ إليه كل هذا الإحسان؟!. هذا مستحيل".
جلس القيصر بطرس يثقل عليه جسده الضخم. ثم خرج وبيده المِسْحَج الذي جلبه من هولندا حيث تعلم النجارة في أيام شبابه:
– اسمعني يا تريفون، هات لي مينشيكوف متى عاد!
أُبلغ القيصر بخبر مقدم من كان سنده منذ طفولته إلى الآن شيركاسك ميخائيل بن ألجوقه[1] فلم يتأخر في ارتداء ملابسه وعاد إلى غرفة استقباله القيصرية

[1] عُيّن ألكسيفيتش شيركاسك ميخائيل بن ألجوقه، وهو شاب قائداً لجيش نوفجورود. ومُنح لقب النبيل. وكان العارفون بشيركاسك ميخائيل يقولون: "لقد وُلد قائدَ جيش جاهزاً بالفطرة". ويكتب بانتيش كامينسك في كتابه: "قام الجيش الذي يقوده شيركاسك ميخائيل

واستقبل ميخائيل بإشارة احترام رداً على إشارته وعانقه، ودعاه مع صاحبيه المندهشَين من البساط الجداري. واختتم ميخائيل الترحيب الحار الذي أُستُقبل به كأن لا أحد غيرهما في القاعة:

– نحن نعرف أعمالك يا بطرس. يُفرِحنا ما تفعل لبلادنا ويتحقق لها. ونحن واثقون من انتصارك على كارل ملك السويد. وخيانة سكسونيا وبولونيا عارٌ عليهما. عاشت روسيا في العهد الذي لم تكونا فيه حليفتين لها. والآن ستعيش على نحو أفضل. والآن سنُطلِعُك على المهمة التي جاءت بنا إليك. رفيقاي

بن ألجوقه بإنجازات مهمة عام 1679 في جبهات تركيا والقرم والتتر وأوكرانيا. وحين تحركت القوات الخاصة لتنصيب صوفيا الأخت الكبرى لإيفان وبطرس على العرش. وقف شيركاسك ميخائيل إلى جانب الأخوين "يكتب المؤرخ أوستريالوف الحادثة كما يلي: حين علم شيركاسك ميخائيل بالخبر وقف إلى جانب الأخوين، ودان من وقفوا إلى جانب صوفيا. جهز شيركاسك بطاريات المدفعية من جديد للحرب الجديدة. وهذه الفرق العسكرية هي التي ساندت القيصر الشاب ووطّدت حكمه"

كان بطرس الأول يثمّن جداً القوات التي جهزها. وكلّف سريعاً من يهتم بتأسيس القوى البحرية. وكتب بريكنير في كتابه: منْح رتبة جنرال لشيركاسك ميخائيل عام 1695.

وفي صورة للفنان سوريكوف تحمل عنوان "صباح إعدام ستيرليسك" ترى في مقدمة الجميع شيركاسك ميخائيل بن ألجوقه بملابس النبيل وبلحية طويلة. كان بطرس الأول قد أصدر حين عاد من أوربا أمراً بمنع تربية اللحى. ولكنه سمح لثلاثة فقط بالاحتفاظ بلحاهم، وهم بطريرك روسيا وشيركاسك ميخائيل وستريشنيف تيخون. وساهم شيركاسك ميخائيل بكثير من المال حين بدأ بطرس بصناعة سفن القوات البحرية في روسيا، فدفع تكاليف سفينتين. وورد اسم ميخائيل الذي كان مخلصاً لروسيا إلى هذا الحد في مذكرات السفير الإيطالي في موسكو إيواني كودور، وسننهي بالكلمات التي امتدحه بها:" يقدرون جداً شيركاسك ميخائيل، في عمره وعلمه. وإكراماً لنبل سلوكه وصدقه واعتزازه بنفسه حاز على محبة الجميع. وخلّف بطرس مكانه شيركاسك حين توجه إلى بحر آزوف..."

وتوفي شيركاسك ميخائيل بن ألجوقه عام 1721 " المؤلف.

آتيان من القبرتاي التي منها أصل والدي. هذا شردم إلن، والآخر تابِشَه قبارد.
نهض الرجلان لحظة نطق العجوز الشركسي اسميهما، مما أسعد شيركاسك. ثم أنهى كلامه: – ما يشهد على صدق نسبيهما كليهما يا ألكسي بيتروفيتش هو أنهما من أنساب النبلاء.
– لاحظت هذا الآن على أبناء قومك يا ميخائيل أليجوفيتش. يحافظان على أصلهما الشركسي. وأنهى القيصر كلامه على نحو مفاجئ كعادته: – ما كان أحسن أن يضم جيشنا أمثال هؤلاء الشباب، ولو أني لم أطّلع بعد على نواياكم!
قلق شردم إلن لِما سمع فنظر إلى رفيقه تابشه قبارد. فنهض بعدما استأذن العجوز الشركسي بعينه:
– سامِحني يا قيصر روسيا العظيم، ولا تؤاخذني أنت يا كبيرنا، لم نأت إلى هنا لمهمة شخصية، بل جئناك برجاء القبرتاي كلها.
صاح القيصر متعجباً من اللغة الروسية التي نطق بها الرجل أكثر من تعجبه مما قيل له:
– هل تسمع يا ميخائيلو لغة ضيفنا؟ – وعاد فسأله بسرعة: – من أين تعلّم ابن قومك البعيد لغتنا؟
ألقى الشركسي نظرة مودة إلى القيصر تشير إلى فرحه وارتياحه، فتابع كلمته:
– ألاحظ عليك وعلى غيرك من أبناء قومك إخلاص الشراكسة لإنسانيتهم الممزوجة برجولتهم. كانوا حلفاءنا منذ عهد القيصر العظيم إيفان فاسيليفيتش، نساندهم ويساندوننا[1]. والآن، وقد عجزنا عن إدارة أمورنا كما نريد تماماً، لا

[1] كان القيصر إيفان غروزني قد تزوج بعد وفاة زوجته الأولى أنستاسيا من غُشَوْناي (ماريا) ابنة كبير امراء القبرتاي إيدار تيمرقوه. وتوفيت ماريا شابة فدفنت قريباً من قبر أنستاسيا في دير فوزنيسنه. وفي عام 1929 قرر بعض العاملين في متحف الكرملين إزالة آثار جامع فوزنيسنه فاستخرجوا التابوت الخشبي، ووضعوه في قبو من أقبية الكرملين. ولا يزال إلى الآن هناك. المؤلف.

نسمح لأنفسنا أن ننسى الماضي. ماذا بيدنا؟ وجب علينا أن نتصرف بما يمليه علينا زماننا الصعب الذي نعيشه. متى انتصرنا على السويد فسنعيد النظر في الاتفاقية غير المنصفة لكم ولشمال القفقاس، التي عقدناها مع السلطان الخبيث المتحالف معهم... — انتبه القيصر الذي استدرجه الحديث إلى ما قاله في غير محله فغيّر الموضوع سائلاً موفَده:

– ما الأخبار؟

– لم آت بخبر سارٍّ.

نهر القيصرُ بطرس قائدَ جيشه على عادته حين يأتونه بخبر مزعج:

– أنت تكذب أيها الكلب القبيح!

– لستُ من يكذب عليك يا بطرس ألكسندروفيتش. بل مازيب.

– كيف؟ – سأل غير مصدِّق ما يسمع.

– حمل نقود البلاد، وهرب إلى ملك السويد كارل صديق السلطان المثير للفتن.

القيصر الذي لم تعد أرض الغرفة الواسعة تكفيه ليذرعها، والذي كان يتراءى له أحياناً الموفدان الشركسيان الشابان، توقف بسرعة، وحدّث نفسه بما جِدُّه وهزله متجاوران:

– مازيب فانيوش الذي قتلتُ الأبرياء من أجله تبيّن أنه خائن للقيصر بيتروشه... ثم حسم الأمر لمينشيكوف قائد الجيش: – لماذا أنت واقف؟ نحن ماضيان حالاً إلى ساحة الحرب!..

الفصل الثامن والعشرون

لم يكن الأمير حتخشقوه يعرف الراحة حتى في الشهر الثالث من الصيف. كان بين العاملين في تهجير سكان مضيق باخسان، وفي ترحيل مواشي هؤلاء إلى الجبل، والتحصينات التي يقيمونها في وجه العدو من الخنادق والأسوار الحجرية، والدروب الجبلية،وفي الطرق ومعابر الأنهار. التقى بالجيوش الغفيرة التي يحتفظون بها في الجبال، وكلّمهم مقنِعاً إياهم بحتمية انتصارهم. وطالبهم بالالتزام بالنصر. وما بقي الآن ليطالبهم بالتعهد هو الجيش الخليط من الفرسان والمشاة، بقيادة

زبنه حسن في غابة جبل بَغُداق.
أوقف الأمير حصانه حين تسلق الأمير حتخشقوه برفقة عدد من الفرسان، جبل قنجال الصغير، ونهرُ غُنْدَلَن على يساره، وصار على مرعى مضيق غَلَخ، ونظر صامتاً نحو مضيق باخسان. وفعل مثلَه رفاقُه الأفندي قسي، وقزنقوه جباغ، وبج نغُر، وشردم جانخُت، وأشبه مينشاقه، وحراسهم. كان قسي أفندي يريد أن يقود دعاء للفرسان، ولكنه رأى ذلك غير مناسب مع صمت الأمير. غير أن ما يراه دفعه إلى القول:
– بسم الله الرحمن الرحيم! ما أجمل دنياك الفانية التي قُدتَنا إليها. — ولكن الأفندي سرعان ما عاد إلى وعيه فبرّأ نفسه: – نعم، لن أسمح لنفسي بالخطأ، "العين مجنونة واليد أسد" كما يقول جباغ. ولن نعطي الأرض التي خصصتَنا بها يا ربي لأحد. ولن نخرج عما كتبت على جبيننا بهذا الخصوص.
الطبيعة التي شدّت انتباه قسي أفندي الرقيق الإحساس كان أمام عيني الأمير منها اتجاه مضيق باخسان بكامله: تجاوز أول منعة حجرية أقاموها عند جبل حارَقُره، ووصل إلى المنعة الثانية. وبدت من الجهة الأخرى الخنادق الطويلة التي قطعوا بها مراعي جَتْ مِشك، وحَثَبَنَقوه، وبِرْسِقوه، ووَتَرَج، وبِرامْقوه. ينظر باتجاه أجمة أَفَبْغَه. ويخيَّل إليه أنه يسمع صوت الهواء وهو يهب فوق الأشجار، وخرير السواقي وتساقُط مياه شلالَي شَبَبه. ويرى بقلبه أرض غُبْلَرِغه الحراجية، والطريق الذي تبتعد به عن أَلَشْقوه وطريق شْأَلَمِج الخاص بالعربات، والمنحدِر بشدة، مع أنها خارج مدى العين. والسهلُ المليء بالمرتفعات الواقع جهة الجبال الخمسة، والتي سيأتي منها جيش القرم له مظهر هادئ ولكن الأمير ورفاقه يعرفون حقيقته جيداً.
استأنف الأمير مسيره فجأة كما بدأه. واتخذت مجموعات الحراس المؤلفة من خمسة في الأمام وخمسة في الخلف مواقعها، والفارسان المكلّفان بالتبليغ سلكا الطريق المؤدي إلى بَغُرْداق الذي يعرفانه جيداً.
سأل الأميرُ بج نغُرَ بعدما مشت مجموعة الفرسان التي لا يصدر منها إلا وقعُ الحوافر مسافة:

– ما رأيك في هذا الجبل يا نَغُر؟
– رأيي كرأيك يا أمير.
ابتسم الأمير الوالي لأول مرة:
– ومن أين تعرف رأيي؟
– اسأل النبيل جانخت الخبير بهذا المكان يجبْك الجواب نفسه.
– وأنت أهذا رأيك يا جانخت؟
– نعم، أيها الأمير الوالي. لأني لا أعرف غيره.
– هل تسمع يا جباغ ما يقول كبارنا؟ – سأله ثم مزح معه، – ما كتمته طوال شهور أعلنوه، – هذا كما تقول يا قزنقوه: يرونك في الظلام، ويسمعونك في الفلاة.
– أنت لست على حق هنا يا أمير. لا تستغربْ ما أجابك به الكبار الذين استشرتهم. كانت قلوبكم وأرواحكم تعرف بعضها، وتطابقت آراؤكم.
– صحيح يا جباغ، صحيح. يسرّني أن تتطابق آراؤنا إذ ليس هناك ما لا يُروى، وإن كان هناك ما لا يقال. وإلا لوّحنا بسيوفنا في الهواء بلا جدوى. وقال كرغوقه، ربما لأن الرجل لا يفارق ذهنه: – يحزنني أن غُرِتْ ماجخ ليس معنا. لا أظن أن في مرتفع قنجال مكاناً لم تطأه قدماه... كان علينا، وإن شقّ عليه، ألا نتركه هو وعجوزه، في بورَحابله للنهابين القادمين...
– لم نستطع أن نثنيه عن رأيه مهما حاولنا يا أمير. — برّأ شردم جانخت ساحته، هل سمعت يا أمير سلوكه مع بلاخوه وبَغُنه؟
– سمعتُ، أعرف إنسانيته ورجولته حق المعرفة... يا جباغ كلِّم باسمي من بقي في القرية، وأخرِجوهم. مصيرنا مصيرُهم.
– نعم أيها الأمير، يا من رضي الله العلي العظيم عنه. — ذكّرهم قسي أفندي بنفسه بعدما كانوا نسوه، – سيكون ثواباً، الله الرحمن الرحيم الذي نحن من أمته يستوي عنده السليم والمُقعَد.
– تكلمتُ إلى ماجخ باسمك وباسمي وباسم القرية يا أمير. وسأروي لك ما فعله بي لما ألححت عليه: نهرني، وطردني من البيت ورأس بندقيته في ظهري.

– إلى هذا الحد يا رجل! – كان مينشاقه مسروراً لرجولة العجوز ماجخ، ولكنه غضب مستاءً من سلوكه مع قزنقوه جباغ. ثم أنهى بنبرة لطيفة: – ما العمل؟ لو كانت طبائع البشر تتوافق لما بقي في العالم ما يثير العجب.

– يا أشبه، – استعجل قسي أفندي، – أنت في دنيا فانية، لا تنسَ!

اكتفى أشبه مينشاقه بالابتسام، ولم يعلق على ما لُمِّح به إليه.

– انظروا، هناك فارسان يجريان وراءنا، – التفتت الجماعة على كلام شردم جانخت.

قال جرجه ماريم حين ترجل الفارسان عند الأمير:

– جيش القرم قادمٌ يا أمير باتجاه الجبال الخمسة بعدما عبر بفرسانه ومشاته نهر ينجج.

– إذا كانت مقدمة الجيش عبرت نهر ينجج، – مزح الأمير مع داور متظاهراً بأنه لم يستغرب الخبر الذي ينتظره منذ البارحة، – فأين تزحف مؤخرته؟

لم يفهم ماريم تعبير "تزحف مؤخرة الجيش" فنظر نحو مينشاقه المعتاد على سلوك القرم، فلم يترك مينشاقه الشاب الذي ينتظر أن يصاهره دون إجابة:

– يقصد الأمير أن الأفعى التي تزحف متلوّية تجر وراءها ذيلها.

– ذيل الأفعى يا أمير، – صحا داور بسرعة كأنه لم يسمع ما قيل له، – خرج من الجمكوي، ودخل أرض المخوش. ما إن عبر رأس الأفعى البحر يا زعماء الخير، حتى بدأ الشباب اليقظون الذين يقودهم مامسر نقار وداور جمركوي من الجانيه والبجدوغ والجمكوي والمخوش والبسلني والنغوي بقطع ذنبها.

ما إن فتح حتخشقوه أذنيه على ذِكر اسمَي مامسر نقار وداور جمركوي بالخير حتى انتصب أمام خياله أتا – إلياس وأخوه الأصغر باوبيك. وسأل بج دون أن يفسح المجال للأمير أن يفكر فيهما:

– ألم يعد نغوي أتا – إلياس مع مامسر؟ – وأجاب بج نفسه بنفسه وهو يشرح ما قاله: – من الصعب معرفة طبيعة هذا النغوي التائه. يصبح صديقاً لكل من يرافقه. ويعادي من يفارقه... هل يجوز أن تثق بالأخ الأكبر للحارس الظالم لعليغُت مرزا...

– ما تقوله يا نغر صحيح جداً، – ضحك حتخشقوه في سرّه، ونظر بطرف عينه إلى قزنقوه جباغ، وأنهى كلامه: – وأنا تصلني بعض الأخبار عن هؤلاء. سيظهر كل إنسان على حقيقته في ساحة الحرب... ماذا يمكن أن تخبرونا أيضاً إن كان خيراً أم شراً؟

– هناك خير سارّ أيها الأمير الوالي، – قال قبارد الذي تحمّل بصعوبة عدم وصول دور الكلام إليه، — أغرق البسلني أحد مدافع القرم الخمسة.

– هذا خبر سارّ، – ظهر ارتياح حتخشقوه من صوته العالي على غير عادته، ووافقه رفاقه الفرسان. — ولكن لا أعرف كيف سيستفيدون من المدافع الأربعة الأخرى، إن استطاعوا العبور بها من باخسان أو مالأقه، وجرّها إلى ظهر جبل قنجال. حياكما الله، رافقانا إن أردتما، وإلا فعودا إلى حيث كنتما. لا تحرمونا من أي خبر!

– وأنتم يا أمير، ويا زعماء الخير حقق الله لكم أمانيكم! نحن سنعود إلى من تصدّوا للجيش الغريب نواحي الجبال الخمسة.

لم يكن حتخشقوه الأمير من الناس الذين تغلب عليهم رقة أحاسيسهم، ولكنه تابع بقلبه الشابين اللذين رجعا إلى الجهة التي يأتي منها العدو. وفي الحال ارتسم أمام عينيه ابنُه محمد — باماتي ذو الستة عشر عاماً، الذي جرحته جماعة بلاخوه بقصد قتْله، والصبي ناتشاك الذي تبع محمد بست سنوات أو سبع، وأختهما جان الطفلة التي تكاد تمشي. نهر كرغوقه حتخشقوه نفسه خائفاً أن ينتبه رفاقه إلى لهفته على أسرته: "ما الذي جرى لي؟ أليس لهؤلاء أيضاً أولاد مثلي؟ مصيري مصيرُ كل الذين جعلْنا جبالَنا قلاعاً وأملاً لهم"

بدا جبل بَغُدَقه على يسار جبل ساوسرقوه، غير بعيد عن جبل قنجال. يبدو أوشحه مافه كعادته في كل وقت، ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء، بعيدَ النظر، صبوح الوجه، مرتاحاً، قريباً جداً، كأنه يقول: سيسير كل شيء على ما يرام. المنظر جميل أينما نظرت، بدءاً من الهواء المنعش الذي يهب على المراعي الجبلية، وانتهاءً بالسحب الباهتة الكسلى. ولكن جبل قنجال العاري المائل إلى السواد لا ينسجم مع المناظر الأخرى باعثاً في النفس ضيقاً وقلقاً. وينظر في

وجهك ممرُّه الضيق كأنك ستضيع فيه إن دخلت فيه.
رأى الأمير زبنه حسن وباي بلوان، ومعهما محمد بامت الذي عُصبتْ يده اليسرى فقال لابنه مخفياً انفعاله:
– وهل أنت أيضاً هنا؟
ثم تجاوزهم. وتوقف قاشرغ ودمدي مشهرين سيفيهما على شكل مثلث، وقال للمكلَّفين بتنفيذ أوامر الجيش قزنقوه جباغ وقسي أفندي: –الجيش ينتظرنا؛ ابدآ!
وقف الأمير كرغوقه حتخشقوه أمام الذين سيمرون من بين سيفَي الحداد قاشرغ والطرّاق دمدي، فبدأ أشبه قاشرغ يغني الأغنية البطولية التي تدعو إلى تنفيذ أوامر الجيش:
إي، جي، هيا، ساهموا أيها الشباب الشجعان.
إي، جي، رددوا معهم أيها الزعماء الشجعان.
أرضُ الأديغة وجهُ الأديغة.
سنحمي هذا الوجه وجهَ بطولة!
وردد المارون تحت السيفين المرفوعين، والذين سيمرون:
أرض الأديغة أملنا المنير.
وهي عندنا مثلُ أوشحه مافه.
جبلنا أوشحه مافه ينيرنا.
وما ينيره هو قلبنا الأديغي.
عاش عرق الأديغة إلى الأبد.
سيعيش عرق الأديغة إلى الأبد!
بقي حتخشقوه وقزنقوه وحدهما في الجبل بعدما توجه كلٌّ إلى فرقته فسأل الأمير الوالي رفيقه عما يقلقه:
– هل يمكن أن يكون لبج نغر عِلمٌ بالسر الذي لنا مع الأخ الأصغر لنغوي أتا – إلياس؟. أدخلتْ طريقةُ سؤاله الارتيابَ في قلبي... – أعادت حركةُ رأس جباغ السريعةُ الأمير إلى وعيه...– – لا يا نغر، ليست المسألة مسألة عدم ثقة

يا جباغ. هو واحد من رجالنا الذين لا يختلف كلامهم عن فعالهم، ولكن مع ذلك أقول ربما... — حسم الأمير الموضوع لجباغ الذي توقف عند عبارة "ولكن مع ذلك أقول ربما"،بصوت جازم: – لا يخطرْ لك يا جباغ أن شيئاً من الخوف يُداخل قلبي!

– لم يخطر لي هذا قطُّ يا أمير. كان والدي يقول: "الرجل الذي لا لُبْس في سلوكه صريح كرأس الرمح". ولكن لا أظنني أقوم بدور المرشد إن قلت لك إن في كل أمورك ارتياباً، بل يعجبني هذا الارتياب وأراه في محله. والموضوع الآخر الذي سألتَ عنه يعرفه أربعةٌ فحسبُ: أنت وأنا والأخَوان النغوي. لن نلوم أنفسنا بدعوى أن السرَّ الذي يعرفه اثنان يعرفه الثالث. ولم يصلْنا خبر عن شكِّ القرم بأيٍّ من الذين دفعناهم إلى الالتحاق بجيش القرم.

مزح الأمير مع قزنقوه:

– على رأيك يا جباغ ليس كل ما يقال يتحقق. وليس كل ما يتحقق كان قد قيل.

– فيمَ نحن أحرار يا أمير؟ ما نعيشه، كما يقول أفنديتنا، هي الدنيا الفانية التي يختبروننا فيه. — عاد جباغ فمزح مع الأمير واختتم بكلام أشد حزماً: – في هذه الدنيا يتلازم الصدق والكذب، والشجاعة والجبن، والنفاق والخيانة.

سمّر الحارس سبانج حصانه وقال:

– مهلاً، هناك مجموعة كبيرة قادمة!– ثم شرح الحارس بسرعة يغلبه حقده: – ما الذي يسعى إليه هؤلاء البالقر ذوو القبعات الشعثاء؟!

– يا سبانج، لا تقل ما لا فائدة فيه! — نهر الأمير حارسه: – ربما هم مهمومون بأمرٍ ما.

رأى الأمير بين البالقر ورسبي أزرت وسويونج الأفندي، فتعجّب غيرَ مدركٍ السببَ. قال ورسبي حين ترجل فرسان الطرفين احتراماً:

– سلام عليكم وبركات يا أمير!

– وعليكم السلام يا ورسبي، تفضَّلْ!

– لنا معك، الأفندي وأنا، مهمة يا أمير.

– نسمعك، – أجاب الأمير شاملاً جباغ معه بالكلام.
– لا علاقة لنا بجيش أقربائنا القادم من القرم محارباً، ولا علاقة لهم بنا. هذا قرار اتخذناه باسم جماعة البالقر، ولا تراجُع عنه!
– حسنٌ إن كان هذا رأيَكم، حياكم الله!
– نعم، هؤلاء يأتون ويعودون، ونحن والقبرتاي عشنا في هذه الأرض منذ الأزل، وسنعيش. ما من قوم يخلو من الأشرار ولذا لن نسمع لأمثال بغُنه وجمال مولى من عندنا، وبلاخوه وأبرج من عندكم.
– نعم، صحيح، – وافقه سويونج الأفندي، – الأفضل ألا نتشارك في الحروب وإن كنا نتشارك في الدين الذي أنزله الله.
– قضية المحِقّ، – اختتم ورسبي بعدما ركب، – مباركة دائماً يا أمير ولذا ندعو لكم بالخير، أن يغمرنا الله برحمته.
"أيكون كلامُهما صحيحاً يا تُرى" سأل الأمير نفسه وهو يركب، وفي الحال خجل من نفسه: – "ما الذي جرى لي فلا أثقَ بأحد؟!"

الفصل التاسع والعشرون

كان الأمير بولتقوه الذي لا خلفَ له معروفاً في كل إقليم الأديغة، غير أنه كان وحيداً ليس عنده من يستشيره في شؤون الإنجاب وما شابه. ولم تكن أخته الكبرى قُتاسُ وزوجتُه لاشين الجميلتان غيرَ عابئتين بما يجري له. ظل يقول: الرجل رجل، والأنثى أنثى، فلا يسمح لهما بالتدخل. ومن يستشيرهما متى تعثَّر عند القضايا المتنافرة هما حصانه والساقية التي تمر أمام باب داره. حقاً كان عنده ابن أختٍ يمكن أن يفضي إليه بما يشغل باله ولكن كان من الصعب العثور على داور في هذه الأيام كما في الأيام الماضية: هو في عِداد مجموعات الفرسان التي تُوقع الخسائر في صفوف القرم المتوجهين إلى القبرتاي.
الوضع الذي يُقلق بولتقوه في هذه اللحظة هو الموقف الذي يقال فيه: "لا تخرج، ولا تُقِم في البيت، ولا أريد أن أدخل وأنت فيه"، يُطلَب فيه المستحيل. أتاه رسول خان القرم أمس وأول من أمس. كان الموعد المحدد له هو اليوم،

ولكنه لم يسافر ولا يتوقع أن يسافر. وهو لا يجهل الأمر الذي يركب لأجله وإن فعل، وهو يتحمل جزءاً من مسؤولية ما يحدث له من سلوك القرم معه. ما العمل؟ دروب البرية ودروب الغابات متشابهة في تعرجاتها ولكن السير عليها مختلف: الأول يُعرّفك عليه، والثاني يُضللك. طرقات أواخر أيام الصيف الذي اقترب من الخريف، وكذلك صباح هذا اليوم،دافئة كأنها غير عابئة بما يجري في عالم الأديغة، واضحة وخفية.

تناول بولتقوه بضع لُقَيمات من الفطور، ثم خرج كعادته متسلحاً. نظر باتجاه الإسطبل الذي فيه حصانه، وذهب إلى الساقية التي يُسمع خريرها. وفعل كما كان والده وجدُّه يفعلان فجلس القرفصاء، وحياها، ثم سألها:

– صباح الخير يا ساقيتنا، كيف حالك؟ نعم، ونحن نعيش مثلك نتجنب الاصطدام بالصخور التي أمامنا. ولكن لا أعرف مصيرنا هذه المرة. نحن الآن في ورطة خلافاً للسنوات الماضية... — شرب من راحتيه بضع مرات، فبرّد قلبه ووجهه. ثم قعد بعدما مشى على الطريق الضيق المحاذي للساقية، وتابع أفكاره جالساً على الصخرة المرتفعة عن الأرض.

ربما كان وراء قول الناس: "من أين أتيتِ يا مصيبة؟!" واحدٌ مثلي... أنا على طريقين باحثاً عن الأفضل: أحدهما يقول: "تعال"، والآخر يسألني: "إلى أين ستذهب؟" كان عليّ منذ اليوم الأول أن أقطع الطريق أمام رغبات عليغت المرائي... لو كنت الخاسر الوحيد لما اهتممت ولكني هل أضلل الجمكوي بالخراف الكثيرة التي أرسلها إليه.؟ أسأت إلى داور قبل أيام ولكن تبيّن صحةُ ما حذرني منه تماماً... الأمير حتخشقوه جابَهَ جيش القرم والترك، والسلطان الذي لم أره قطُّ يمنحني لقب سنجق بيه، ويُرفقه بسيف ذهبي. والخان قبلان — جري الذي سيزُفّ إليّ هذه البشرى أرسل ورائي مرتين. وهددني إن لم ألبِّ الدعوة أن أُحمل إليه بالقوة... هل أذهب؟

قطع كلام الحارس أفكار الأمير بولتقوه:

– أختك السيدة الكبرى تطلبك يا أمير.

كان الأمير الذي لا يخرج عن طاعة أخته الكبرى كمن ينتظر هذا النداء،

فغادر الساقية وتوجه إلى غرفة أخته. رفعت قتاس جسدها قليلاً عن المقعد احتراماً لأخيها الأصغر حين رأته بين قائمتي الباب. وقالت وهي تدله على المقعد الوثير المقابل لها:

– تعال يا أخي الصغير، اِجلِسْ! — وسألته بعدما جلس: – كيف تجري أمورك يا روحي الوحيدة؟ – أعرف أمورك ولكن أريد أن ترويها لي بنفسك.

– أطلعتكِ عليها قبل أيام وأمسِ يا قُتاس، – خاطبها بولت بالاسم الذي كان يناديها به في طفولته، – لن أبخل عليك بها إن كنت تريدين، أعيدها الآن أيضاً.

– البارحة كان البارحةَ يا أمير، واليوم هو اليوم، – أسمعك. ابدأ بالأخبار السيئة، كما كانت والدتنا تقول، واختتم بالأخبار التي تعيد إلى القلب راحته.

– الأخبار الرديئة اليوم أكثر من الأخبار الحسنة.

– يقال: الخبر الجيد الواحد يُنسيك ثلاثةً سيئة. ابدأ بالفرسان النغوي الذين جاؤوا أمس وأول من أمس.

– يدعوني إليه خان القرم الذي يزحف بجيشه إلى القبرتاي،

– سمعتُ بهذا، يا أمير، هذا الخبر شابت لحيته كما كان والدنا يقول. أقصد منصب سنجق بيه الذي أناطه بك السلطان التركي، والذي تخفيه عني.

– وهل أخفي عنك هذا الخبر أيتها السيدة الكبرى؟ وصلني الخبر كما وصلك قيلاً عن قيل. لا تهتمي به!

– أنا مهموم يا أمير بالخبر المتعلق بأخي الأصغر والذي يُهِمّ الجمكوي. وماذا تنوي إذن؟ – ولم يكفِ هذا فأتبعتْه بسؤال آخر: – هل السبب أن الترك لم يروا في هذه المنطقة، أعني شركيسيا الدنيا، من هو أحق منك بهذا المنصب؟

كان الأمير بولتقوه يعرف فطنة أخته الكبرى وقوة شخصيتها، فشرح ما يشغل باله في هذه اللحظة مبتسماً لها: – المقرر أن يأخذوني بالقوة إن لم ألبِّ الدعوة اليوم.

– ربما يُخيفوننا فحسبُ... لا سمح الله! — وعلّقت بسرعة على نحو أشد تصميماً: – الأفضل يا أخي أن يسمع أبناء قومك أنهم أخذوك بالقوة من أن

تذهب إليهم بنفسك.
– أتقصدين أن أصبح أمير سنجق بيه[1] للأبزاخ والمخوش والبسلني؟
– نسيت النغوي والقرشاي يا أخي... — مزحت معه، وأضافت: – اسأل قلبك مرة يا أخي، لا أنا!
تبيّن أن الموعد الذي ظنه الأمير بولتقوه هو اليوم، لا الغد: خرج الأمير من البيت إثر الضجة التي صدرت من البوابة الكبيرة. ودنت السيدة الكبرى من النافذة. ولم تلبث أن خرجت من الغرفة لا تستطيع البقاء على النافذة، ووقفت على المسطبة. وخطر لها في اللحظة أن ترسل فارساً منادياً يطوف أرجاء القرية، فهمست في أذن الحارس الذي استدعته:
– أبلِغ القرية أن القرم يُجبِرون الأمير على تنفيذ أمر الخان.
ارتفع النداء الذي أبلغه الحارس فوق قرية بولت. وتجاوب معه غيرُه. رأت مجموعتا الفرسان المتجابهتان بالسيوف والخناجر قتاسَ القادمة حاسرة الرأس فترجل الفرسان الأديغة ووقفوا لها والأرسان بأيديهم. وخاطب الحارسُ باوبيك الذي رأى المنظر مغمداً سيفه رفاقه:
– أغمدوا سيوفكم وترجَّلوا للسيدة الشركسية الكبرى!
– حياكم الله، وألفُ بركة على تفهُّمكم إياي. — قالت قتاس بلغة الشراكسة وهي ترتدي غطاء رأسها، وبلغة النغوي، وسألت أخاها الصغير كمن لا تعرف شيئاً عن الموضوع: – علامَ يريد الفرسان إجبارك يا أمير؟
– هؤلاء، – قال الأمير مُسمِعاً الجميع، – يريدون إجباري على التوجه إلى خان القرم إذ تأخرت يومين على موعدي معه.
– هل سيتركون لنا رهينة منهم كما يجبروننا هم؟
– يا أختي الغالية، أيتها السيدة الكبرى!
– نعم يا أمير، نعم، لو تركوا أمامي الخان الكبير بشخصه ما قبلته ضمانة. إذا

[1] السنجق: مقاطعة أو متصرفية في الدولة العثمانية. وبيه هو الحاكم أو الوالي. ويقصد السلطان هنا تأكيد تبعية شراكسة القفقاس للدولة العثمانية كما اعتادت. المترجم.

كنتَ اتفقت معه على هذا فعليك الذهاب. ولكنْ ليعرف كل أبناء قومنا بمن فيهم القبرتاي أنهم أخذوك عنوة. ولْيتبعْك، لا حراسُك المعدودون بل كل من يستطيع ركوب الخيل. أعادك الله إلينا بالخير يا أخي الصغير!

أُخبِر قبلان – جري المتمدد في عربته ذات الأحصنة الأربعة وهو يجتاز حدود أرض البسلني بقدوم الأمير بولتقوه فسأل متظاهراً أنه لا يسمعه:

– أين هو؟

– ها هو، يمر من أمام الجيش.

ولما التفت سأل متعجباً مما يرى:

– هل يأتي إلينا بجيش الجمكوي الذي نتأمله منه؟

– لا يا بديل الشمس، يأتي معه قرابة مئة فارس من الحرس.

ابتسم قبلان — جري:

– الشراكسة، مثلُهم مِثلُ القبرتاي الذي نزحف إليهم، ليسوا من النوع الذي يمكن أن يتفاهم معك... يُفنون أنفسهم في تباهيهم، وينتحرون على مذبح رجولتهم المرائية... انتظِروا قليلاً بعد وصولهم، وأردِفوه بعربتي. لِيتبعني هذا الذي انتظرته يومين، ينظر فيراني، ويخاف مما سأقول له وما سأفعل به إلى أن نصل إلى المكان المحدد.

فهم الأمير بولتقوه حين ضموه إلى الفرسان الحراس الذين يجْرون وراء عربة الخان أنهم يُهينونه بهذا التصرف، ولكنه كتم انفعاله. ولما التفت لم ير وراءه من الفرسان المئة إلا عشرة من حراسه. واختفى زعيمهم الحارس باوبيك الذي أرسلوه وراءه. ويُعلِمه الحارس أيدمر أن على يمينه ويساره حراساً من القرم.

عربة الخان السريعة التي تثير الغبار وراءها تجري بلا نية للتوقف. والحراس، وبينهم الأمير بولتقوه، يسرعون وراءه. من الجانب الأيمن تبدو سلسلة القمم البيضاء المتراصة. ويرتفع فوقها قمة أوشحه مافه التي لها شكل سرج حصان شركسي. ومن هذا الاتجاه يرين السواد، وجيش القرم بفرسانه ومشاته يسير في رتل يتجاوز طوله بضع عشرات من غلوات الحصان فلا تدركه العين. وإذا تصورت أرض القبرتاي طولاً وعرضاً رأيت أراضي الإنغوش والشيشان

والداغستان الشامخال وراءها. ووراء جبل البالقر التالو يعيش الكرج السّفان. ومَن يحتل الجانب الأيسر هو ريف القالمق الذي يبتعد نحو أستراخان.

أعادت المناظرُ التي كانت تمر أمام عيني الأمير بولتقوه، والأفكارُ التي تعصف برأسه الأميرَ إلى وعيه، فسأل نفسه: "ماذا أفعل بنفسي؟ أأكون ظننت نفسي سأخرج دون أن أبتل لمن ألقوا بي في الماء اللجب فلوثت نفسي بنفسي وخدعتها؟! يبدو أنني ضيف على الخان المخادع الذي يغزو أبناء قومي، وأسيرُه وحارسُه. — وارتسم أمام عينيه ابن أخته داور وكأنه يعيّره بالكلمات نفسها. وارتسمت أيضاً أخته قتاس التي قالت له اليوم: "اسأل نفسك مرة دون أن تسألني". بأي عين سأنظر في وجوه الجمكوي والأبزاخ، وغيرهم ممن سيسمعون ما أسمح للعدو أن يفعل بي ويهينني؟ وكيف أغسل العار عن وجه أسرتي؟ قال لنفسه:"إذا كنتَ ولدت في يوم، وستموت في يوم، فتَحَلَّ بالشجاعة أيها الأمير بولتقوه!" وصاح إلى من وراءه: – لا تدعْنا نتخلى عن الرجولة يا أيدمر! — أسقط بولتقوه الحارس الذي على يساره بضربة سيف، وألحقه أيدمر بالفارس الذي على اليمين. ولما توقف الفُرسان الذين في الوراء لا يعرفون ماذا يجري في الأمام هاجمهم بضعة الفرسان الجمكوي. وساعة دخولهم عمق الغابة وهم يحمون بسيوفهم الأمير، ناداه من بعيد الفارس الضخم الذي كان يتحضر لاستقباله بالسيف:

– يا بولتقوه هل تركض لتحتمي وراء ظهر أختك!

– يا باتر أفندي، رفاقك يتركونك وراءهم.– ناكد بولتقوه الفارسَ الذي عرفه من صوته.

سأل الخان قبلان — جري الذي أفسدت الضجة نعاسه، وهو يفرك عينيه:

– ما الذي جرى بين من يتبعوننا؟

– الأمير بولتقوه،وجد نقطة ضعف يا بديل الشمس فهرب. — كتموا عن الخان أن بعض حراسه قُتلوا.

– لا تهتموا بأمر الأمير الشركسي الذي تقولون إنه هرب! لن يفلت منا. — قال لهم الخان الذي طارت الغفوة من عينيه. — متى انتهينا من القبرتاي

فسأريكم الأميرين حتخشقوه وبولتقوه مربوطين إلى عربتي. وسنفعل هذا بعينه بكل من لا يُطيعنا. ألم نصل بعدُ إلى مكان غدائي؟ ألستم من أمرناهم بالاستعجال؟

قال الحارس أيدمر ملهوفاً للأمير بولتقوه:

– مفصل قدمك اليسرى يا أمير يسيل منه الدم.

– إذا كنت تنتظر حفلة الجابشه فأنت مخطئ[1]. – مزح الأمير مع حارسه وكأنه يعرف ما سيقولون له.

لم يخطئ الحارس أيدمر في شأن جُرح الأمير: تورم مفصله في طريقه إلى البيت، فخلعوا عنه الجزمة بصعوبة. ولما بقيت قتاس السيدة الكبرى مع أخيها الأصغر وحدهما سألته بدلاً من أن تتألم لألمه:

– جرحك سيكون ذريعة جيدة لنا يا أمير. لِيعرفِ الناسُ أن آل بولتقوه عندهم "جابشه"!

– قُتاس!.. – صرخ الأمير محتجاً على ما سمع.

– أمرتك أن تهدأ، إن تصرفنا هكذا أفضل.

– ولكنْ هناك في القبرتاي، عند داور...

– الوضع واحد في القبرتاي وفي كل مكان... لو كان البائس داور يطيع أمه كما تطيع أنت أختك... ماذا بيدي؟ وكّلتُ أمري إلى الله في شأن ابن أختك. يرحمنا ويحميه!..

الفصل الثلاثون

في أواخر الشهر الأخير من صيف عام 1708 توقف كارل الثاني عشر ملك السويد في المكان المسمى غورك إلى الجنوب الشرقي من نوفجورد سيفير.

لا تحرق الشمس الحمراء القانية التي تغرب وجهَ الملك كارل. بل تدفئ قلبه

[1] الجابشه حفلة سمر ومنوعات تقام للجرحى والمصابين بكسور خطيرة للترفيه عنهم ليلاً بمراسم خاصة، لينامو مرتاحين نهاراً. المترجم.

ونيّته. تهيجهما للنصر القادم. وتجعله يهدد بقبضته قيصر روسيا: " سأجعل من عامك قبل الماضي، عام 1706 نحساً عليك. أين هم الآن مَن كنت تتأمل نُصرتهم: دانيير وسكسونيا وبولونيا؟ احترقوا كلهم على ناري التي تشبه نار تلك الشمس. وأنت وحدك الباقي. لم أعد وحيداً كما في البداية: السلطان التركي،والزعيم الأوكراني موضع ثقتك، وخان القرم وقفوا إلى جانبي. ولستُ من يعتمد عليهم بل هم من يعتمدون!"

الملك كارل الثاني عشر، ملك السويد، الشاب المعتد بقوته وسلطته، سأل قيصر روسيا وهو يسخر منه في سرّه: "هل تتذكر كيف رجوتني أن نعقد اتفاق سلام حين اقتلعت حلفاءك من جانبك فبقيت وحدك؟ الآن ستركع أمامي على ركبتيك، وتتوسل إليّ على مسمع من أوربا كلها. هل تعرف متى سيجري هذا؟ حين يحتل جيشي الباسل موسكو..."[1]

---

[1] تقرأ في السيرة الذاتية للملك كارل الثاني عشر ملك السويد: لم يكن يخشى أحداً، ولا يعتريه الضعف مطلقاً. كان عنادُ القائد الأعلى للجيش أقوى من صلابته. وكان صدقه أقرب للقسوة. ولما سُلِّم الحكم للملك كارل انتزع التاج من البطريرك، وتوّج به رأسه بيده.

لم يكن ملك السويد يتوقف عند انتصاراته، ولا يهتم طويلاً بهزائمه. وكانت راحته وإهماله موضوع حكايات كثيرة. يكتب فولتير: فيما يُملي الملك كارل على أمين سره رسالة سقطت قنبلة على الغرفة المجاورة لتلك التي يجلسان فيها، فسقط القلم من يد أمين السر المرعوب. سأل الملك: ماذا جرى؟ لماذا توقفت عن الكتابة؟ أجاب الموظف:"انفجرت قنبلة". فقال الملك: "وما شأننا نحن بها؟ تابع أنت عملك"

في عام 1700 قررت الدول الأربع المتحالفة: دانيا وسكسونيا وبولونيا وموسكوفيا أن تُبعده عن سلطته على السويد والبلطيق، فشنت على الملك كارل الثاني عشر ما يُعرف بـ "حرب الشمال". نصحه بعض مستشاريه أن يصالح أعداءه حين صارت البلاد في موقف حرج. ولكنه تجاهلهم وأجاب: "أيها الأمراء، أنا قررت ألا أشنّ في حياتي حرباً غير عادلة. ولكني سأرفع السلاح على من يحاربون النظام، ولن أضع السلاح ما لم أقتل أعدائي".

التفت الملك كارل الثاني عشر إلى صوت العربة. وبعدما قدم له مازيب الأوكراني الذي خرج منها مظاهر الاحترام قال له:

– اليوم، ومن هذه اللحظة، أيها الملك القائد العظيم، أقف معك كما اتفقنا، وأعادي معك قيصر روسيا الذي لم أُكنَّ له الود طوال عمري. جيشي جيشك، وفعلك فعلي، وقولك قولي. وقد جلبت معي خبراً ساراً آخر: سيقف معنا قبلان – جري بجيشه الذي يعد الآلاف بعد أن يخرج من القبرتاي بين عشية وضحاها، ويحارب معنا.

– حياك الله يا مازيب الذي سنضع أوكرانيا كلها في يده!. وقد أثبت السلطان أحمد الذي أثق به صدقَ ما وعدني به بشأن القرم. تفضلْ، سنفكر معاً في النصر الذي ينتظرنا.

الفصل الحادي والثلاثون

قرية بورحابله التي لم يبق فيها إلا بعض المسنين هادئة. ينظر العجوز ماجخ عبر النافذة التي يسودها ظلام الخريف، وينصت، ولا يسمع شيئاً. تمسّكَ بالحبلين المعلقين بعارضة السقف فجلس ونظر إلى الجهة الأخرى حيث ترقد عجوزه. ولما لم تتحرك العجوز التي قضى معها أكثر عمره ولم تنتبه إليه قال لها يلوم نفسه، وبنيّة طيبة: "أرهقت المسكينة بخدمتي التي لا تنتهي. استريحي بعدُ قليلاً، لن أوقظها. وليت الكلب البائس مشد، لم يقف مع الفجر على النافذة كما عوّدته منذ صرت قعيد الفراش".

نظر ماجخ عبر الفجر الذي لطّف جو الغرفة بعين حادة، ثم ارتحل بقلبه إلى جبل قنجال حيث الأمير حتخشقوه وقراه، ويحتفظ بجيشه: يرى كل شيء من

كان القيصر بطرس الأول يعرف أن الجيش الذي يقوده الشجاع كارل جيش قوي، وأن خطر الحرب خيَّم عليهم. فودّ أن يعقد اتفاق سلام مع السويد، ولكن كارل الثاني عشر لم يقبل. وأبلغه أنهم سيبحثون هذه المسألة بعد دخول الجيش السويدي إلى موسكو. ثم ندم كارل على هذا... المؤلف.

الطرق المتفرعة والقمم الناتئة، والمضائق، والوديان، والأماكن الحصينة، وانتهاء بالأماكن الضعيفة التحصين.: الأمير صياد جيد، وعنده نظر حادّ، ورام ماهر، ويد قوية، ورجلان لا تعرفان التعب، ويعرف كثيراً من حيل الوحوش ونقاط ضعفها، وحِيلِها، وساعات يأسها، الوحش الذي يقع بيده لا يستطيع الإفلات منه. حكيم وهادئ. يتحلى بالرجولة والرحمة والصبر. ولكن هل أكذب على نفسي في ما لا أعرف؟ ليس عندي فكرة عن طريقة قيادته للجيش... يا ماجخ، أيها الصياد القديم، لا تقلْ هذا وأنت في فراشك. ليس الأمير مثل من يحارب من وراء الصخور. سيجابه أي عدو كما جابه الذئب الذي هاجمه قبل أعوام بخنجره. لولا ثقته بنفسه، ولولا أنه وجد نقطة ضعف في العدو ما كان استدرجه إلى الجبل!"، – ضرب العجوز ركبتيه كعادته حين يغضب، معبراً عن شعوره بالإهانة مما جرى له، نادى عجوزه خائفاً أن تكون ارتعبت من صوت ضربته:

– سامحيني يا عجوز، هل أرعبتك؟.. — وفي الحال هجم مشد وهو ينبح على النافذة فناداه من الغرفة: – اهدأ يا مسكين، أُريح ابنة آل ملغش، ستأتيك بعد قليل بطعامك. — والآن نبح مشد في أرض الدار باعثاً الخوف في النفس. — ما الذي جرى؟ ألا تسمعين يا ابنة آل ملغش، يا كنّة آل غُرت؟ ألستِ من أناديها؟ ألا تفيقين، ألا يكفي ما نمتِ؟ أسمعينا صوتك! حين لم يأت ردٌّ من الجهة التي نادى إليها ماجخ بضع مرات نهض من الفراش مستعيناً باليدين القويتين، وزحف على ركبتيه إلى الأريكة التي تنام عليها العجوز. لمس جبينها برفق كي لا يُرعبها ففهم أن العجوز التي قاسمته أفراحه وأتراحه وقلقه،والتي كانت تهدئ باله، رحلت إلى الأبد. أغلق ماجخ جفني العجوز متغلباً على ضعفه، وأسبل يديها إلى جانبيها، وربط ذقنها بالمنديل. ثم قرّب رأسه منها وقال لها بين اللائم والملاطف: – الآن فحسب يا حلوتي فهمت أنك تركتِني وحيداً في العالم المظلم. نعم، نعم، أسمعك:عندي بنات صالحات وأحفاد وحفيدات وأصهار رُحماء، ولكن البنات يبقين بنات، والأصهار أصهاراً. والأحفاد أحفاداً. هؤلاء لن يحلوا محلك مهما كانوا محبوبين..."

وفيما يتفكر ماجخ في المأساة المفاجئة ويعزي نفسه، صدر وقْعُ أقدام من أرض الدار فرفع رأسه لا يدري أنام طويلاً على وسادة العجوز أم لم ينم. وفيما يخاطب نفسه وهو يغطي الجثمان باللحاف: "من بلّغ الناس بخبر مصيبتي؟ وأين الكلب؟.." نظر إلى الباب فلم يعرف سبباً لقدوم بلاخوه وبغنه وأبرج وباتر أفندي، ولكنه تذكر حالاً أن بلاخوه هدده قبل أيام بأنهم سيعيدون الزيارة. غير أن هذا لم يمنعه من أن ينظر إلى باتر أفندي بعين الود، ويقول له متأملاً مساعدته في مراسم الجثمان:

– ربما جاءني بك الله يا أفندي، أرجو أن تدعوا للعجوز المسكينة التي رحلت.

تواقح بلاخوه الذي هجم عليه الكلب دون أي حسٍّ أديغي:

– يا غُرت ماجخ! — نحن لم نأت للتعزية بالمرأة التي أطلقت علينا الكلب.

– مهلاً يا بلاخوه، مهلاً طوطراش، لا يقال مثل هذا الكلام الجارح في حضرة من رجع إلى ربه. هناك من ينتظرها ليميز حسناتها في الدار العاجلة من سيئاتها. نعم، نعم، ما العمل؟ هذه دنيانا!فاحذروا! لا تنسوا أن تقوموا بما يرضي الله في أي مكان وجدتم فيه أنفسكم. قولوا: " آمين!"! لم يُسهب باتر أفندي في الدعاء. ولما انتهى سأل الصياد العجوز الجاثي على ركبتيه، مُشعراً إياه بمقاسمته حزنه: – أخبرنا يا ماجخ، يا من غمره الله برحمته، فيمَ يمكن أن نساعدك؟ نحن من عرق واحد، وكلنا مسلمون، كلنا أملنا في الله الخالق كلَّ المخلوقات إلا الكفار والجن والشياطين.

– إن كان هذا رأيكم، وكنا جميعاً مسلمين، – قال ماجخ، – وإذا كان الله العلي يتأمل منا المعروف فلي عندكم رجاء واحد.

– الله هو من يدعو إليه الناس، ولا يحتاج إلى أحد، – اطمأن باتر أفندي إلى أن نيته الحقيقية تحققت، – فنحن نسمعك إذ أن في كل إحسان ثواباً. سنخفف عنك يوم مصيبتك؛ ألسنا مسلمين؟

فهم العجوز ماجخ الواقع الآن في المصيبة ما يعنيه دعاء الأفندي المختصر، ولكنه أخفى شعوره، وبعدما جلس مدة قال كمن يخاطب نفسه، دون أن يرفع رأسه إلى الواقفين عنده:

– ما العمل يا أفندي، إذا كنا في دار عاجلة، وإذا كان دعائي ودعاؤك فانيين، فأروني مراسم العجوز التي قاسمتني حياتي. ومن الناحية الأخرى فكما يقال: الجرة القديمة تنكسر؛ أنتم ترون إن كنت قادراً على تلبية دعائك، فسأتصرف معكم على قدر طاقتي.

– يا غُرت! – احتدّ بلاخوه وقد تذكر العجوزَ الفارس عند الجامع وكيف تصرف معهم في بيته، إلى أن أعادته إلى وعيه نظرة باتر أفندي المرائية، فبرّأ نفسه: سامِحني يا أفندي!

– نعم، هذه هي دنيانا يا أخي المسلم. بديهي أن نسامحك. وسيوافقنا كبيرنا أبرج في حضرة من رجعتْ إلى الدار الآخرة. ما من أحد صنعوا له مهداً إلا حفروا له قبراً. ولذا سنرقق قلوبنا. – توقف باتر أفندي قليلاً ثم استأنف "وعْظَه": القوة التي يحتاجها حفر القبر لا يحتاجها رجاؤنا منك يا ماجخ. مراسم المرحومة تحتاج إلى أيدٍ نسائية. ولكن ما العمل؟ إذا لم يبق في القرية مثل هؤلاء النساء، وإذا كان الإسلام يسمح لنا بالتصرف حسب الضرورات، فسندعو لها وندفنها دون أن تمتد إليها يد رجل.

– مقبرة بورحابله بعيدة؟ – مرة أخرى لم يُطق بلاخوه صبراً.

– إن كانت الحديقة تصلح كما يفعل الأباظة، فترابها ناعم.

– ولماذا لا تصلح؟ ألم أقل لكم: إن ديننا العزيز يسمح لنا بالتصرف حسب الضرورة؟! هيا يا طوطراش وجعفر أنتما شابان،الله يكافئ من يحفر القبور، أنجزا هذه المهمة دون توانٍ!

– والكلب؟ – أسرع بغنه.

– لن يؤذيكما مشد... – طمأن العجوز بغنه.

صاح باتر أفندي وراء من سيحفران القبر:

– لا تنسَيا أن قبر المرأة أعمق من قبر الرجل! – هكذا يأمر الإسلام. ولكن باتر أفندي غيّر الموضوع ليموّه على ارتفاع صوته وقت إصدار الأمر: – يا ماجخ، يا من يشملك الله برحمته، أليس لهذه المرأة أقرباء في بورحابله؟

– لسنا كلانا من بورحابله، أتينا من جلخستانيه. عجوزي من آل ملغش

النبلاء، وأنا من عامة الناس، ولذا تركنا جلخستانيه إذ رفض أهلُها مصاهرتي.
– أنتما غرباء عن هذه القرية إذن، – قال أبرج، وشرح بصوت منكسر، – أنا فهمتُ وضعك جيداً.
– لم أسمع في حضوري ما يؤذيني، إن لم يقل ذلك أحدٌ من وراء ظهري.
– وكيف تسمع وأنت الصياد المشهور للأمير حتخشقوه؟! — وصل أبرج في درج الكلام إلى ما يريده.
– لم أكن مجرد صياد للأمير الوالي حتخشقوه... — شرح ماجخ الموضوع على غير ما توقعا منه، – كنت أعتني بأرض الصيد الخاصة به. أعرف كل درب فيها، إن لم تنسني هي.
– كيف تنساك؟ – قال الأفندي، – كان الله قدّر هذا فوجب أن ترضى به، ولكننا نعرف كيف تقاعدت في بيتك، وأنك لا تزال تركب حصانك، وأنك لم تنس دروب جبل قنجال ومراعي مواشيها وبعض أسرارها. وسنتكلم متى انتهينا من دفن المرحومة على هذه الأمور بمزيد من التفصيل؛ قولوا: آمين! — ولما عاد الرجلان من الحفر جدد الأفندي الدعاء وسألهم: – هل أنتم جاهزون؟ وهل الضريح جاهز؟ إذا كنتم جاهزين فسندفنها في ملابسها، سيغفر الله الرحيم لنا هذا. لفُّوها باللحاف وأنزِلوها. تعال يا مرزبج، سنسدي المعروف مرة أخرى كما قدّر الله لنا إلى ماجخ الرجل الطيب، وندعو لعجوزه على رأس قبرها.
– نعم، صحيح، – قال أبرج مدركاً أنه يبالغ في ريائه، وموّه ممتدحاً عدوه المعروف في القبرتاي كلها، – وكما يقول قزنقوه جباغ: لن نتصرف كأنصاف نبلاء! وأنا واثق أنك ستختم القرآن على روحها بصفتك أفندياً "متى انتهينا من مواجهتنا ".
وعلى مبدأ: المضطر لا يعبأ بالطريق المتسلق، فقد أخرجت عبارات الرياء المتبادلة بين الأفندي وأبرج، العجوزَ من أحزانه: "وقع حبال صيد أربعتهم في رقبتي. كنت مضطراً فأوقعتُ نفسي بنفسي في هذا. فهمت نيّة هؤلاء العديمي الشرف منذ لحظة دخولهم إلى بيتي. لن أحقق لهؤلاء الذين لا تردعهم إنسانية، ولا روح الأديغة مهما فعلوا بي. ولكن ألم نتفق؟ " نهر ماجخ نفسه، – " ناوَروا

بموضوع نيتهم ولم يكاشفوني تماماً إلى الآن. ألم تسمع يا ماجخ كلام أبرج: "متى ما انتهينا من مواجهتنا"؟ أنت لا تعني مواجهة القبرتاي والقرم فحسب، بل تعني مواجهتنا، أنت وأنا. واجهناكم لأنكم غزوتمونا. مَن الغريب يا أبرج أنت أم أنا؟ أنا لم أبدل أديغيتي فأتحالف مع عرق آخر.ولن أفعل هذا في القليل المتبقي من عمري. من حظك يا ابنة آل ملغش، يا امرأتي الطيبة أنك لم تسمعي نوايا من دفنوك... واغفري لي اعتناء الغرباء بك بدلاً مني ... لولا المصيبة التي تسبَّب لنا بها هؤلاء لكانت بورحابله بكاملها في دارنا اليوم. أنا معك الآن في هذه اللحظة قلباً وروحاً في الوقت الذي أفهم فيه أن الموت صعب تحمّلُه. تعرفين أن عجوزك لن تبدر منه بادرة ضعف فاطمئني! ولكن إن كنت تسمعين شكوى مشد فهي ما في قلبي ". مسح ماجخ على وسادة العجوز، ثم تسلق سريره اعتماداً على الحبلين المربوطين إلى السقف. وارتاح إلى بندقيته المسندة إلى جانبه.

سمع ماجخ وقع أقدام من جهة الدار فأمسك البندقية. ارتعب باتر أفندي لرؤية البندقية المشهرة عليه:

– ماذا تفعل يا ماجخ رحمك الله! هل تشهر السلاح على من دفن لك زوجتك؟ ضعه!..

– أليست نيتك أنت سلاحاً مشهراً؟!– ردّ ماجخ. وفيما هو يعي ما جرى له ولا يعي، ألجأه السؤال الذي يذيب القلب، فدفع الأفندي إلى معاتبته، إلى وضْع سلاحه.

– لم تخطئ يا ماجخ إذ سمعت نصيحة الله تعالى الذي خلقَنا.حمتك رجولتك وإنسانيتك. ولكني، وإن حزّ في نفسي تشبيهُك نيتي التي لم أُفصِح عنها بسلاحك، أغفرُ لك فنحن في هذه الدار العاجلة التي تُلجِئنا إلى مثل هذه التصرفات.

استغرب أبرج مرزبج ما يرى عندما دخل البيت:

– أراك عدت إلى فراشك يا ماجخ!

– وهل تريدني أن أنام على الأرض يا أبرج؟!

– نحن قمنا بما علينا، والآن أنت...
– مهلاً، مهلاً أيها المسلمان، توقَّفا عن هذه المجابهة بقلبيكما المتعاديين! ليّنا قلبيكما أولاً... إن كنا اتفقنا فتعال معنا يا ماجخ، يا من رضي الله عنك، وسانِدْنا في رجائنا. لن نحتفظ بك طويلاً في الجبل. أين أنتما يا جعفر وطوطراش؟ ساعدا العجوز ماجخ!
– لا حاجة! — مد ماجخ يده إلى الحبلين. سأخرج بنفسي من البيت كما اعتدتُ. هاتوا لي حصاني إلى جانب درج المسطبة.
فرح باتر أفندي:
– كما تريد يا ماجخ، كما تريد!
صعد ماجخ بركبتيه القويتين مسلحاً بالسيف والخنجر والبندقية والقوس، فابتسم طوطراش وجعفر. قال لهم العجوز بلا مبالاة وهو يمتطي حصانه:
– لماذا تضحكان؟ هل أمسك كلبكما بثعلب[1]؟ إن كان بسبب السلاح فالصياد لا يخرج إلا مسلحاً. وإن كان بسبب ركوبي فأعيُنُكم تخدعكم. اركبوا أنتم يا أفندي! أما أنا فسأُطلُّ على قبر العجوز. لا، لا، الأفضل أن أكون وحدي.
كانت الشمس تتوسط السماء حين وصل الفرسان الخمسة إلى مضيق جَتِشك، بعدما عبروا نهر غُنْدَلَن، تاركين على يسارهم مرعى دومباي.
– قولوا لي نيتكم يا أفندي؛النهار يتسرب من أيدينا. — قال العجوز.
– عندنا نية واحدة فحسبُ.– ابتسم أبرج، – سيخبرك بها خان القرم متى وقفت أمامه.
– أأنا من يحتاجه " خانُكم " الآن؟ – أعاد العجوز السؤال ساخراً من نفسه ومن الخان، – إن كنت سأمثُل أمام الخان فعليّ أن أصلِح هندامي قليلاً.
صبّ بلاخوه الذي نسي إن كان أديغياً حقده على العجوز:
– ما يحتاجه خاننا هو ما في رأسك، لا إلى عجُزِك!

[1] تعبير دارج إلى أيامنا عن الضحك بلا سبب. المترجم.

– كفى يا بلاخوه، لا ترهق نفسك! لماذا قالوا: "الله يفعل بك والناس يعيّرونك به[1]"؟

– حناً يا ماجخ، حسناً، – يُصلح الأفندي كلمة "تْحه" الشركسية إلى "الله" العربية: "الله يفعل بك...". ولكن إن عملت معروفاً مع موفد الله العلي، خان القرم فسيردّ لك المعروف بمئة. وسأقول لك شيئاً آخر: خان القرم متى هزم القبرتاي فسيضع جبل قنجال تحت تصرفك. وحينها سترى أميرك الأمير حتخشقوه صار صياداً لك.

– أيها الأفندي الذي بارك الله فيه، أنت تبالغ في الكلام. — استعجل بغنه جعفر الذي لم تكن عيناه تحيطان بمراعي الجبل الساحرة، ناسياً أنه برفقة فرسان من الأديغة. — هذه كانت مراعي للبالقر سلبها منا القبرتاي.

– منذ متى كانت مراعي للبالقر؟ – غضب بلاخوه مما سمع، – ما أكثر ما نصحتك أن تزيل هذه الأوهام من رأسك! أخرجناكم من وراء الصخور مستمتعين بطريقة كلامكم، وأردفناكم بخيلنا وأنتم بلا ركائب ولا أزمّة إلى "أوشحه مافه" التي لنا. والآن تحاولون تربيتنا من جديد.

– أهذا أنت يا بلاخوه؟

– نعم أنا.

– إن كنت فكُفّ عن صلَفِك القبرتاويّ!

– أأنا يا بالقر؟! — استلّ بلاخوه خنجره فوقف جعفر بحصانه أمامه بخنجره.

– كلبُ من عضّاكما أنتما!– وقف أبرج بين الفارسَين مرعِباً، ثم قال لجعفر ملاطفاً وناصحاً: – تعال يا جعفر!

– إلى أين؟

– اِمشِ متى قيل لك اِمشِ! سنبتعد عن هؤلاء الثلاثة بمن فيهم ماجخ الصياد، ونؤلف أغنية لـ " أوشحه مافه " خاصّتنا.

– إذا كان هكذا فلْنمشِ! — ألقى جعفر الذي وجد الذريعة فجأة نظرة

[1] يستعمل المتحدث هنا المقابل الشركسي للفظة "الله " العربية، وهو "تْحَه". المترجم.

ساخطة إلى بلاخوه، ولحق بأبرج.
– انتظِرونا على حدود معسكر الخان! — قال باتر أفندي في إثر الفارسين، ولام بلاخوه طوطراش: – لا تحتدّ على البالقر دون سبب، هؤلاء مِن قوم مَن نحالفهم.
– وهل عجيب إن كانوا من قومهم؟! لا يدَّعوا ما يعجزون عنه، ولْيعرفوا مكانتهم! — غمغم بلاخوه.
– لماذا نحن واقفون؟ – غيّر الأفندي الموضوع، – لن نتجاوز ساقية قازي متى وصلنا إليها. ونعتني بهندامنا.
– ونتخلص من رائحة زبل البالقر.
– بلاخوه! أنت تجاوزت الحدود، – اعترض ماجخ على بلاخوه، – لا نُهن البالقر الذين شاركتَهم الباستا والملح. هم أناس مثلنا – ثم توجه إلى باتر أفندي، وصارحه بما في قلبه نجوه: – وأنت يا أفندي أراقبك طوال النهار فأراك متصامّاً. تكذب لتتابع أمورك الشخصية فحسبُ.
– أأنا الأصمّ الكذاب؟! نهض باتر الجسيم ناسياً أفنديته، وعيناه المعكرتان جاحظتان، – لماذا تتخذني مهزأة أمام هذا الشاب؟ – ثم تناول من الأسفل العجوز ماجخ الذي لا حول له، – سأرميك في هذا المضيق فتموت بلا قبر!
تحقق للعجوز الصياد ماجخ ما فكر فيه طوال النهار، فأمسك بركبتيه القويتين عنق باتر. وحمله معه وهو يفقأ عينيه إلى الوادي الذي تفوح منه الظلمة الباردة. وفي الحال هجم مشد الذي وجم لحظة على بلاخوه فخنقه.

الفصل الثاني والثلاثون

المقاتلون القبرتاي السريعون الذين كانوا يُنزلون ليلاً ونهاراً ضربات مباغتة بالجيش القرمي– التركي تحت قيادة قبلان – جري، فقسموه إلى قسمين بعدما تجاوزوا الجبال الخمسة ووصلوا إلى مضيق باخسان، كانوا يستدرجون إلى الجبل القسم الأكبر عدداً منه الذي تظاهر جيش حتخشقوه بمحاربته، والقسم الأقلّ عبروا "مالكه" عبْر "بَبَغ" ليكمنوا للجيش المعادي الذي "كان يتراجع"، وتوقفوا

أسفل جبل قنجال، غير بعيد عن جبل ساوسرقوه وغابة "لَخَّران". ثم انضموا إلى جيش الخان الذي كان يُستدرج شيئاً فشيئاً إلى الجبل، الذي اختار مكاناً سهل المتناول.

خيام قبلان – جري منصوبة كمن ذهب إلى الصيد للاستجمام. وموقع قائد الجيش التركي مرتاض باشا غيرُ بعيد عن موقع الخان. وخيمة مرزا عليغت النغوي منصوبة على الجانب العالي المقابل لجبل ساوسرقوه. وخيام المرزات الأخرى متناثرة هنا وهناك.

ساعات النهار جميلة في الجبل، غير أن عيني قبلان – جري لا تريان هذا الجمال. ويسأل نفسه والرعب الذي يستتر في قلب الجمال ينبعث فيه: " توقعنا أن يستسلموا بين عشية وضحاها فإذا بالشراكسة الذين نلاحقهم اختفوا منذ البارحة. أيفكرون في مثل ما فعل بنا العجوز الذي يعرف مخابئ حتخشقوه العنيد؟ إن تحقق هدفنا فليقتلوا أنفسهم إن أرادوا!.. متى عدنا بالنصر كما وعدْنا السلطان أحمد فلابد أن نلقن القيصر بطرس الأول قيصر روسيا الكثيرة السكان درساً بتحالُفنا مع السلطان والأوكراني مازيب. ولا شك أن هذا سيتحقق إذ أن فيه عِلم الله وقراره".

نهر الخانُ وراقَ مرزا الذي تسلل عبر الباب:

– كم قلت لك ألا تفاجئني هكذا! ماذا تريد؟

– يرفض الشركسي أبرج والبالقر بغنه جعفر أن يفارقا باب خيمتك.

– ألم تُخبروهما أني لا أريد أن تقع عيني على من لم يستطيعوا حمْل الصياد العجوز إليّ!

– بلى، يريدان أن يستغفراك شخصياً.

نهض الخان باسماً، وقال مِن أمام المرآة لمن وراءه كمن لا يبالي بشيء:

– سأغفر لهما متى وضعوا رأسي الأمير حتخشقوه والنبيل قزنقوه جباغ أمامي... وإن لم يطيعاكم فعندكم السوط النغوي! مهلاً، مهلاً. لا تفعلوا هذا بعينه! ربما نحتاجهما مستقبلاً. أبلِغوا مرتاض باشا وعليغت مرزا أن يمثلا أمامي. – لما خرج قبلان – جري من الخيمة ضائقاً بها صدره، غيّر تعليماته

للحارس: – قادة الجيش، ليس الآن، بل بعد الظهر. أعيدوا هذين الفارسَين!
شدّد قبلان – جري على الشخصين اللذين أُستُدعيا إلى الخيمة:
– ما عجزت عنه رجولتكما أمرٌ مضى، ولهذا لن نخوض فيه ثانية. أسمعكما إن كان عندكما ما تعرفان عن عدونا!
قال بغنه دون انتظار أبرج:
– أظن أيها الخان الكبير أن القبرتاي في مأزق.
– لا فائدة مما "تظن"، – حسم الخان، وسأل أبرج: – وأنت؟ بِمَ يمكن أن تخبرنا؟
– أنا كلامي مختصر: ما بقي لأعدائنا يوم أو يومان.
– بمن فيهم ابنك؟
– انتهى أمر ابني بالنسبة لي أيها الخان العظيم.
– وقومك البالقر تالو؟
– هؤلاء يا خان الخانات ينتظرون خنجرك المسلول.
توجه الخان إلى وراق مرزا قائلاً "أنتما لا تعرفان شيئاً":
– ضعوا هذين تحت تصرفنا إلى وقت الحاجة: أبرج في يد عليغت، وجعفر في يد مرتاض باشا. توقف يا أبرج! تجاهل الخان أن من ناداه غيرُ راضٍ وأنه من طبقة النبلاء، فسأله: ما أخبار الثعلب بولتقوه؟
– يدلِّل نفسه في حفلات الجابشه التي تقام له.
– ألم تُشْفَ رجله بعدُ؟
– وكيف تشفى الرجل السليمة!
– وأنت ترى هذا؟ – سأل أبرج وهو يبتسم برياء،، واختتم له مهمته: – هذه هي المسألة، الدار الفانية مختبَر كل إنسان... كما سمعت لِتكنْ بطلاً مع مرزا عليغت باشا. ومتى رجعنا يا أبرج فسنتكلم بتفصيل أكثر على موضوع مرزا باشا والأمير بولتقوه.
ما إن بدأ قبلان — جري بصلاة الظهر حتى هبّت الريح فجأة، كما يحدث في الجبال عادة. هزتّ الخيمة الكتانية ثم توقفت فجأة كما بدأت. وبعد الريح

أظلمت الخيمة بسبب الغيمة السوداء التي خيّمت من الجبل، غير أن الخان أكمل صلاته.

قال قبلان – جري عندما انتهى شاعراً بالانتعاش: "حققْ لي يا إلهي ما فيه عِلمُك وقرارك. وانصر حظي على كل من لا يُضمرون لي الخير. ثم سخط على نفسه: –" ما الذي جاء بي إلى هذا الجبل الشيطاني؟! اغفر لي يا إلهي. أعرف أن هذا الجبل هو مكان ابتلائي. ثقْ بي في هذا ولكن... أود أن أعرف سبب صمْتِ أعدائنا..."

أطلت الشمس من النافذة الغربية بعدما تخلصت من السحب. فخرج قبلان – جري لا يطيق قعوداً في الخيمة. كان عالَم الجبل منعشاً بالبرودة رغم شروق الشمس. جيش القرم يملأ الجبل المقابل لجبل قنجال،جيشٌ لا تدركه الأبصار: جيوش المشاة وجيوش الفرسان موزعون في مجموعات. وفي المرتفعات نصبت المدافع. وتسمع في كل مكان خليطاً من لغات التتر والنغوي والترك. تسمع حمحمة الخيول. وتبدو النيران من أماكن الطبخ. وتحوم بعض الصقور في السماء خلافاً للأيام الماضية فلا يعرفون تفسيراً لها.

يرتاح قلب قبلان – جري لتنظيم جيشه، ويزداد اقتناعاً بالنصر ولكنه مهموم بتأخره، وبمُضيّ الأيام دون نتيجة واضحة، وبمواجهة من وعدهم بالنصر. وتدخُلُ عوامل أخرى في أفكاره القلقة.

نادى الخان حراسه وهو في هذه الحالة:

– أين سيونج؟

بعدما تفقد الخان يتبعه حراسه مواقع جيشه مبدياً لمقاتليه أنه معهم بشخصه، ورجع، رأى القائدَين اللذين ينتظرانه، فقال لهما بعدما تجاوزهما متظاهراً بعدم الانتباه إليهما:

– تعالا! – ثم غمغم بحيث لا تدري إن كان يخاطبهما أم يخاطب نفسه: – لا أعرف لماذا نؤخر الجيش الجاهز... – والآن سأل الاثنين: – ما الأخبار التي جاءكم بها جواسيسكما؟

– هناك خبر جيد يا بديل الشمس، – قال عليغت باشا وقد نهض دون أن

يثقل عليه الجسد البدين.
– وما هو؟ اجلسْ!
– قرر الشراكسة أن يدفعوا الإتاوة التي فرضتها عليهم.
– هذا جيد إن كان صادقاً... – جلس الخان قليلاً، ثم سأل الضابط التركي دون أن ينطق اسمه: – وأنت ما رأيك؟
– وأنا جاؤوني بالخبر نفسه.
– هل كان جواسيس عليغت باشا ومرتاض باشا معاً؟ – بدا من سؤال الخان الساخر عدم ارتياحه لكلمة "جاؤوني".
– كان جواسيسي غيرَ جواسيسه. – أبرز مرتاض باشا للخان أنه موفد السلطان التركي.
وفجأة هيمن السكون على الخيمة.
وتبادل القائدان نظرة صامتة.
نهض قبلان – جري مخفياً انتباهه لتلك النظرة، وذرع أرض الخيمة مبدياً إطلاله على اللذين نهضا لأجله وقعدا. وقال لمرتاض باشا وكأنه اطّلع على الخبر الذي يعرفه:
– وأنا جاءني جواسيسي بالخبر نفسه. وأنتما وأنا نرى كيف يلتحق بجيشنا الشبابُ الذي لم يعودوا يتحملون كلمة العبودية. ولكن يا مرتاض باشا، وأنت يا عليغت باشا، لا ننخدعْ بالصلح الذي لا نعرف بعدُ حقيقته؛ الشراكسة خدّاعون لا قرار لهم. لا تدَعونا نثق بهم إلى أن يركعوا أمامنا مُطرقين. ولا تنسوا ما فعلوا العام الماضي بقادة جيشنا. بلِّغوا المقاتلين أننا سنعطي كلاً منهم حصة من الإتاوة التي سنرغم الشراكسة أعداءنا على دفعِها. ولن ننسى من سقط ببسالة على طريق القبرتاي. ولن نترك أُسَرهم دون حصة. الله حريص، وإن طمأنتما نفسيكما بطريقة ما، فاحرصا على نفسيكما. ولا يزال أمامنا كثير من الانتصارات التي كتبها الله الخالق لنا. أوصِلا آمالي وتحياتي إلى قادة جيشي والمرزات. وسندعو إلى ربنا أن نجتمع اليوم على أخبار سارة.
كان قبلان – جري قد نفّس عن شواغله ظاهراً، ولكنه لم يجد راحة وطمأنينةَ

بالٍ: ينتصب أمام عينيه جبل قنجال العاري المائل للسواد، المواجه لخيمته. والقمم الناتئة الأخرى والغابات الداكنة، والقمم المرعبة المتباعدة. وتمر أمام ناظريه الوديان التي تنبعث منها رائحة البرودة. ولم يكن يصدق خبر استسلام القبرتاي لدفع الإتاوة لأنه لم يتحقق بنفسه من صحة الخبر.

"أيكون خبراً بلا جذور؟" — لام قبلان – جري نفسه وسألها. — إذا كان الشراكسة قرروا هذا فلماذا استدرجونا إلى الجبل وهم يحاربوننا؟ أيحضِّر لنا هؤلاء الأشرار خدعة ما؟..– طفا من جديد على ذهن الخان مرغماً السؤالُ نفسه الذي عذبه أمس وأول من أمس. ولكنه بدّل الموضوع بسرعة إلى ما يعجبه: – ربما جاءتهم الفكرة حين أيقن أمراؤهم ونبلاؤهم أن قضيتهم خاسرة... وقد يكون هذا السببَ في توجه شباب عامّتهم إلينا... وحسناً نفعل إذ نجعلهم يُقسمون على القرآن على الإخلاص لنا. — وفي الحال انتصبت أمام وجهه ألسو زوجتُه كأنها تقاضيه: – نعم ألسو، يا حبيبتي. قد وفيت بنذري تماماً، وسآتيك بنالمس الصبية الشركسية. وسأضاعف الإتاوة عليهم بضع مرات. ولْيفكروا ثانية بما جلب لهم تباهيهم الخادع!.."

الإنسان الذي ليس عنده من يقاسمه أفراحه وأحزانه مسكين وإن كان ملكاً أو خاناً أو أميراً أو فلاحاً... يقضي قبلان — جري عمره، وإن لم يكن من هؤلاء تماماً، وهو يتهم نفسه ثم يبرِّئُها، يخاف من نفسه ويمدحها. وليس الأمر أنه يخلو من رجولة وذكاء ورحمة وقسوة. يسمعك ويوافقك ويُريك ويخدعك بعدها. ويعيرك أحياناً بما قدم لك. ولكنه لا يثق بأحد كما يقال: إنه لا يثق حتى بنفسه. أهو من قبيل الحذر أم الغرور أم التباهي؟ إنه مثلُ كل الناس المجبولين من الطيبة والشر، والهشاشة والقوة، والصدق والكذب، والرجولة والجبن.

نادى قبلان — جري وراق مرزا، وقد بدأ الظلام الذي يخاف منه منذ طفولته:

– أين أنتم؟ أي ظلام تركتموني فيه! — ثم سأله متلاطفاً: – ماذا يجري في العالم؟

– الهدوء يسود كل مكان يا بديل الشمس.

– أكيد، يجب أن يسود في مكاننا، حيث نحن، السلام، – ألقى نظرة لطيفة على محدِّثه.– وبعد وقفة قصيرة سأله: – هل أنت واثق من خبر المصالحة الذي جلبه لنا باوبيك؟

أجاب وراق مرزا بسرعة:

– أنا واثق من باوبيك.

– إن كنت أنت واثقاً منه فأنا كذلك. ولكن سنرى كيف يكون غدنا... — وقال في إثر من دعا له بليلة سعيدة: – لا يجوز أن يعرف عليغت ومرتاض باشا وغيرهما أني سأسمي باوبيك قائد جيشٍ.

الفصل الثالث والثلاثون

الزمان: 12 أيلول عام 1708.

المكان: مضيق حَدْرِكْلَغُوه[1].

كان فجر الخريف اللطيف قد بدأ يُطل من مضيق حدركلغوه، حين دعا حتخشقوه كرغوقه وقزنقوه جباغ ومعهما قسي أفندي، قادة جيشهم الأربعة: أشبه، وبج، وشردم، وزبنه، إلى موقعه الحالي في منبع نهر وْرد.

قال قسي أفندي في بداية اجتماع القادة:

– ندعو للمقاتلين الشجعان الذين ضحَّوا ببسالة، ولماجخ الذي قضى أمس، أن يكون مثواهم الجنة؛قولوا: "آمين".

– لتُلازمْنا رجولةُ الأديغة، ولْيكنِ الموتُ من نصيب الأعداء! — قال الأمير الوالي حتخشقوه، وتابع كلامه: – تعرفون موقفنا، فلن أُسهِب فيه. العدو طامع في الأماكن التي سهّلْنا عليه بلوغها في جبالنا. هؤلاء يعرفون أن النزول من المرتفع أسهل من الصعود، ولكنهم ينتظرون إشاعة طلبِنا للصلح الذي أوصلناه إليهم شفاهاً، غير أننا سنماطل في إرسال بج نغر الذي سيطلب الصلح، وإن كنا لن ندعهم ينتظروننا طويلاً، ريثما نبلغ ما ننويه بحقهم ، ليس

[1] حرفياً:درب معبر الأموات، كما في الأسطورة اليونانية. المترجم.

لأننا ندمنا على حرب الحماية التي قمنا بها ضدهم: أقول لنفسي ولكم: لا تراجُعَ! — رأى الأمير أن زبنه حسن يطيل التأمل في وجهه، فسأله: – هل تريد أن تقول شيئاً يا حسن؟

– لا، أيها الأمير الوالي، ولكني كنت أريد أن أعرف من سيرافق بج في سفرته.

– وافقنا نغر على الرفيقين اللذين اختارهما بنفسه: قبارد، وإلن، إن وافقتنا على ابنك يا جانخت.

– لم أسمع أنا والجالسون كلمة "إن وافقتنا" يا أمير. انطق اسمي وأنا حاضر حالاً.

– حياك الله يا كبير. — ثم أضاف: – ليس من عادة الأديغي أن يمدحوه في وجهه، ولكني سأنقض هذه العادة اليوم. أنتما الأب والابن تثبتان أنكما رجلان أديغيان حقاً. — قال كرغوقه هكذا شاملاً مَن أمامه، ومن هم في الحرب، واختتم: إن قررتم أن الثلاثة يكفون وفداً فلْيركبوا لأن مهمتهم واضحة. مهما طلبوا منكم يا نغر في شأن الإتاوة وغيرها فكما اتفقنا، ماطِلوا في الأجل الذي يحددونه متظاهرين بالمساومة والاتفاق.وسننتظركم وقت عودتكم.

ولم يستطع أشبه مينشاقه إلا أن يُفصح عما يقلقه:

– لا تتصاغروا لأن هؤلاء لن يروكم وإن تعاليتم، كما يقول جباع.

– الكبير والصغير يخلقهما الله تعالى بعلمه، ويبتليه في الدنيا الفانية. — قال قسي الجاهز دوماً لأمور الدين، وأوّل كلام أشبه على هواه وإن لم تكن للكلام علاقة بالدين، فأضاف إليه: – نعم يا مينشاقه، أنت على حق. كل من يخالف تعاليم الله والإنسانية التي أمر بها ينتظرهم سراط جهنم. وأمام خان القرم العنيد هذا المصير.

أبلغ الخان بوصول موفدي القبرتاي إلى مقره فأمر وراق مرزا أن يستقبلوهم في الخيمة المجاورة لخيمته، ويجتمع بهم مسبقاً عليغت باشا ليستطلع ما يريدون دون تأميلهم بشيء، ثم يجتمع بهم الخان بناء على تقرير عليغت. وهنّأ نفسه على تحقق هدفه، وهو يفرك راحتيه.

قال عليغت باشا للوفد لا تسعه المهمة التي كلف بها:

– نسمعكم.
– نحن، موفدي أمير القبرتاي الكبير، – قال نغر ساخراً في نفسه من السُّمنة الزائدة لقائد الجيش الجالس أمامه. – كلّفَنا الأمير الوالي باللقاء مع خان القرم.
– لا ينتظركم خان القرم، بديل الشمس، فتقابلوه متى شئتم. أسمعكم باسم مَن أوفدني خان الخانات ، وإن رفضتم...
– مهلاً،مهلاً عليغت باشا! – دخل قبلان – جري الذي كان يُنصت من وراء الستارة، فقفز واقفاً عليغت الذي يشبه طائراً قصيراً متخماً. – هؤلاء مسلمون وإن كانوا موفدي أعدائنا؛ احترِموهم! ولا تُبقوهم واقفين. والشركسي دون سلاح كشجرة مقصوصة الأغصان فأعيدوا إليهم سلاحهم الذي طلبتم منهم وضعه.
– لا يا موفد الله، – لم يقبل وراق مرزا. ووافقه حارسه باوبيك. – أيّ شخص يمثل أمامك يجب أن يكون أعزل.
– هكذا؟ إذا كان هذا رأيكم، وكنت أنا أيضاً أعزل، فسأطيعكم.– ثم قال كأن الكلام ليس موجهاً إلى أحد: – من سيتحدث إليّ، ومن أي أسرة؟
– أنا، – قال نغر، – أنا من أسرة النبلاء بج. ورفيقاي الأصغران من النبلاء أيضاً. هذا قبارد، والآخر إلن.
– أهذا أنت النبيل نغر؟ – لاطف الخان نغر كأنه يعرفه منذ زمن بعيد. ثم قال بصوت حازم: – أستمع إلى كلامك الموجز.
– سيكون كلامي موجزاً أيها الخان، جئنا من أجل السلام.
– السلام يعني الكثير.
– معناه عندنا واحد: نرضخ لما وصلنا إليه.
– كنتم تتباهَون بالأمس فما الذي جرى لكم اليوم؟
– لن نطيق الحرب أكثر من هذا. ما تحمّلوننا حِمْلُنا.
– سنرفع الإتاوة التي عليكم ثلاثة أضعاف. بالإضافة إلى تعويضنا ضعف خسائرنا. وتقدمون لنا أيضاً خمسمئة صبي وصبية لا تقل أعمارهم عن سبع سنوات، ولا تزيد على ست عشرة. والمهلة ثلاثة أيام بالإضافة إلى هذا اليوم.

– هذا حملنا كتبه الله علينا، غير أن مهلة الأيام الثلاثة قصيرة...
– كان على أميركم أن يقبل ما طلبنا منه دون أن يُلجئنا إلى قطع كل هذه المسافة. أين هو هذا الأمير الذي لا يسمع الكلمة؟ هل صحيح أنه التجأ إلى القبرتاي الصغرى؟
– وكيف يلتجأ الأمير الوالي حتخشقوه إلى القبرتاي الصغرى وقد أرسلَنا إليكم؟! – أجاب بج متظاهراً باستغراب ما يسمع: – سنوصل كل كلامك دون أن يسقط منه شيء إلى الأمير الكبير للقبرتاي. ولكن سامِحنا في موضوع الصبيان والصبايا، نرجو إعادة النظر في المهلة التي حددتها لنا، قصيرة جداً.
– إن كان هذا رأيَكم فهناك مخرج واحد على قولكم أيها الشراكسة: ما مضى كثيره فسيمضي قليله: إن أعدتم إلينا الصبية التي سرقوها من حضرة ألسو السيدة الكبرى، نورِ القرم، فسأعيد النظر في المهلة مقدار يومين.
– كما تريد يا خان.سنعود إذن إلى أميرنا الذي ينتظرنا.
– لا ننتظركم، ولكن اتركوا الشاب قبارد أمانةً عندنا. ورأيتم جيشنا في طريقكم إلينا، فبلّغوا أميركم بضخامته.اسمحوا لهم بأن يرحلوا... – أمر الخان حراسه.

الفصل الرابع والثلاثون

توقف أشبه مينشاقه ومامسر نقار اللذان لا يعرفان الخبر الذي جاء به البارحةَ الوفدُ المفاوض من القرم، وقد حبسهما الضباب الجبلي على تلة يسار جبل قنجال. أينما نظرت فلن ترى إلا عالماً من الضباب لا حراك فيه.
– يقال إن ضباب الصباح يأتي بنهار سعيد يا نقار. ولكن لا نعرف ما جاء به موفدونا.
– هل تتوقع خبراً جيداً؟
– الخبر خبرٌ سواء كان خيراً أم شراً. سأعتبره خبراً حسناً إن وافق القرم على طلبِنا.
– ثم ماذا سيعقبُ هذا الخبر يا مينشاق؟
– ستظهر ظهيرةُ الصباح الضبابي... – ابتسم مينشاقه، وقال لنقار كأنْ لا

عتب له عليه.
– أنت تعرف سراً ما يا مينشاق... لا تكلِّمْني بلغة مبطنة!
– لا أخفي عنك يا نقار. ما يشغل بالي هو ما يُنطِقني.
– سأقول لك يا مينشاق بِم كنت أنفِّس عن ضيقي أيام الصعلكة: الأقوال المأثورة الأديغية: المساء المحمَرّ سبعةُ أيام من الصحو، والصباح المحمرّ سبعة أيام من المطر. أردِفه بما تعرف أنت أيضاً!..
– ولماذا لا أعرف: لا تعارُضَ بين الصحو وغزارة المطر.
– لا ثلج إلا بعد الصقيع.
– لا تُرعد السماء كل يوم.
– ما تُشعل به النار هي النار.
– ما يدنو من النار تقليه، والماء المغلي يطفئ النار.
– لا تميز النار بين ماء وآخر لإطفائها.
– من النار ينتج الفحم.
– والنار تصبح رماداً... — أنت ماهر في الأقوال الأديغية المأثورة. ولكن أتعرف ما الذي لا أفهمه أحياناً؟ – سأل نقار وشرح: – حال الدنيا وترتيبها... ضبابها سرّ، ونهارها مضيء، وليلها مظلم، وصاعقتها مفاجئة... وإن جئت إلى ناسها فهم مختلفون بلُغاتهم وبقلوبهم. رُحماء وقُساة.
– حتى إن لم يكن هذا في الدنيا فضبابها ونهاراتها ولياليها مختلفة.
استعجل نقار:
– وناسُها يا نقار، ناسُها؟..
– وناسها، بمن فيهم نحن، جزء من هذا العالم الذي شكوت أنك لا تفهمه. الرحماء أكثر وهذا سرُّ وجودنا.
– وأنا عندي الرأيُ نفسُه... — تنهد نقار وقد ارتسمت في خياله زوجته سورت الحامل.– سيفنى عالمنا إن سمحنا للظلم أن يتغلب علينا. لسنا نحن المشكلة؛ المشكلة أطفالُنا.
وتصور أشبه مينشاقه ابنة أخته نالمس، ومن ورائها بعيداً جرجه ماريم. كان يريد

إبعادهما كليهما من أمام نظرته الحزينة، ولكنه لم يُطق صبراً: ماريم ونالمس، يضيعان في الضباب ويخرجان، يشفق مينشاق على ماريم أكثر مما يشفق على نالمس، ماريم الشاب الذي في سن الزواج. كل الأمور المتعلقة بأسرته ونسبه جيدة. وهم جاهزون في أي وقت منذ الساعة، لا شيء يعيقهم، غير أن من ستصبح كنتهم ما تزال في حِداد على أمها، ثم أضيفت الحرب إلى المشكلة... — يقول مينشاقه: – الحرب حرب، ولكن الحياة لا تتوقف حيث تدور رحاها. تجري فيها الأعراس والمآتم معاً... وسَّطنا معها مامخ التي في بيتي وغيرها، ولكنها لم تقبل إلا بعد انقضاء عام الحِداد. ورغم العلاقة الطيبة بين الشابين فقد قيل في حقهما الكثير من السخافات. وهذا هو السبب في قول قزنقوه جباغ: "البشر يُعزّونك، وغير البشر يلطّخونك". وهل البيت الذي كانت الفتاة محبوسة فيه دار بغاء؟! — موّه مينشاقه عبر نقار غضبه على نفسه وصراخه في قلبه:

– ما أخبار سورت ووالدها حطاط يا نقار؟

– وماذا ستكون أخبارهما! — كان نقار سعيداً لسؤاله عن زوجته وحميه، غير أنه قال وخجلُ الرِّقّة يغلبه: – سمعتُ أن حطاط القلق دائماً، شوهد هنا بصحبة عدد من الجانيه. متى خرجنا من ضباب قنجال، – ابتسم نقار، – الصهر لا يتدخل في شؤون الحم، ولذا سأسأل عن موقعهم هو وعدد من أبناء قريتي. وماذا أقول لك عن سورت؟ لا أعرف كيف أتكلم على زوجتي!.. كلهم بخير يا مينشاقه.

– لست أسأل عن كون سورت ربة بيت ممتازة، بل: هل ستبقيان اثنين فحسبُ؟

– هذا هو السؤال؟.. — ألا تعرف طبيعة نسائنا؟ هل يبحن لك بأسرارهن حتى تعاينهن بالعين؟.. — كأني عرفت منها شيئاً بسبب نفورها من بعض الأطعمة... لا تستغرب يا مينشاق! — قال نقار بصت عالٍ، – من حظنا أن من سألتَ عنها كانت حالها هكذا اليوم. كان والدها سيقف إلى جانبها بكل سهولة.

– أدعو لكما أن يحالفكما الحظ في أملكما. — ثم أضاف داعياً إلى الله بصوت منكسر: – صارت سورت جزءاً من المأساة الشركسية بسبب ما جرى لها فلاشكّ أنها ستقف معنا، ولكن الأفضل ألا تتدخل النساء في موضوع الرجل. وأقول هذا لنالمس ولا أستطيع إفهامها.

– كلانا يفهم ما عانت نالمس الصبية يا مينشاق... — قال نقار وأنهى: – لا أفهم أن يتصورْن أننا نتخلى عن رجولتنا... في هذا الموضوع يجري شيءٌ لا أفهمه... — ثم غيّر نقار الموضوع سريعاً: – سأُسمِعك يا مينشاق أصول الكلمات المأثورة على مبدأ: "من يحفر حفرة يقع فيها".

– تفضل. ربما يتبدد الضباب ونحن نتسلى...

– وكيف أعرف ما ينوي الضباب؟ ولكن إن كنت ستصدّق حكايتي فستكون قصيرة. كان صديقان مقربين من أحد الملوك. — بدأ نقار الحكاية التي سمعها في الجانيه أيام شبابه، – قرر أحد الصديقين الإيقاع بصديقه عند الملك ليصفو له قلب الأخير. وفي أحد الأيام أطعم صديقه ساعة توجههما إلى الملك كثيراً من الثوم وهو يشرح له فوائده. استغرب الملك ابتعاد الصديق بفمه عنه وهو يحدِّثه. وفي اليوم التالي ذهب الصديق الحسود وحده إلى الملك، وروى له أن صديقه اعتذر عن مرافقته لأن رائحة كريهة تنبعث من فم الملك، فلا يمكنه مجالسته.

سأل الملك:

– ألهذا السبب كان يتنحى عني ساعة يكلمني؟

أعطى الملكُ الصديق المخدوع رسالة، وبعث به إلى حيث سيلقى حتفه. فقطع المخادع طريق صديقه وسأله:

– إلى أين؟

– الملك يرسل معي هذه الرسالة... ولكن بطني ليس في حاله...

– هات الرسالة، سأوصلها عنك.

أوصل الصديق الحسود الرسالة إلى الشخص المحدد وهو يطير من الفرح. فقتل المرسَلُ إليه حاملَ الرسالة لأنها كانت تطلب قتْلَه حالاً.

– هذا لا يجوز؟! – صرخ مينشاقه الذي كان يعرف الحكاية كمن يستهجن عمل المخادع.

– هذا ما جرى له وإن كان لا يجوز. ما الأمر؟ ألا ترى ما جرى للأناني مناسباً؟ على كل حال فقد قال الناس: "من حفر لأخيه حفرة وقع فيها".

– وكيف لا أراه مناسباً. وأنا سأروي لك حكاية مشابهة جعلت الناس يقولون: "من سيشي بي؟ هل كسار الزبادي يفعل هذا". – نظر أشابه إلى مامسر برياء، وربما سمعتَها...

– إذا كانت الدنيا الغائمة ملأى بالأسرار فأنا سأتخيل الكذب صدقاً.

– لا تخطئ يا نقار؛ ما سأرويه لك جزء من أحداث الحياة اليومية كحكايتك. اشتهى أحدهم زوجة صديقه. وفي أحد الأيام خدع صديقه وخرج به. فلما أوقعه على شفا الموت، قال: "أنت تقتلني وأنا بريء؛ لن أغفر لك" أجاب المخادع: "ومن سيشي بي؟ أهو كسار الزبادي؟" وقتلَه على مرأى من كسار الزبادي، وانصرف عنه. بقيت المرأة الشابة التي لم تكن تعرف ما جرى لزوجها أرملة، فتزوجت بعد مدة غير قصيرة صديق زوجها. وفيما هما يعيشان في تفاهم وإخلاص، حمل الهواء في أحد الأيام الزهرة المذكورة إلى الغرفة. فابتسم الرجل.

سألت المرأة الرجل:

– لماذا تضحك؟

– سأقول لك السبب يا حلوتي، صارَحَها بالحكاية التي كتمها كل هذه السنوات في محبة وتفاهم واثقاً من أن الأمر انتهى: – قضى الرجل على يدي لأنالك أنا فحسبُ. روى لها التفاصيل وهو يتأمل الزهرة الواشية.

لم تنبس المرأة بكلمة. وفي الليل، بعدما نام القاتل قتلت قاتِلَ الرجل البريء، وخرجت.

قال نقار بعدما جلس قليلاً يهز رأسه:

– ما أعجب ما صنعت المرأة ذات غطاء الرأس!

ولم يصبر مينشاقه:

– الرجل لابس القبعة، المحب لنفسه، هو من جنى على نفسه.

– أليس هذا ما أقوله يا مبارك النسل؟!. كيف توفّق بين الأنانية والحب... ما كنت أريد أن أقول ما سأقول، ولكن أتعرف يا مينشاق من نُشبه كلانا؟
– أعرف، أنا مثلُ الذبابة التي حطّت على قرن الثور.
– وأنا؟
– أنت من قال لي إن كنت تتذكر لما رأيتني أحطّ على قرن الثور الذي ينقط عرقاً، ويُزبد فمُه، فسألتَني عما أفعل فأجبتُك: "نحرث الأرض يا صاحبي".
– أتذكَّرُ... ليت كل عاطل عن العمل يعرف أنه عاطل...اسمع إذن ما سأقول لك الآن: ضحك أشبه مينشاقه، – أنا مثل القط الذي نظر إلى اللحم المعلق، فلم يصل إليه فقال: "هذا اللحم منتن".
– ولماذا تضحك الآن أيضاً؟
– أضحك متسائلاً: أتكون الفأرة منتنة أيضاً؟ – ردّ مامسر على المزاح بالمزاح.
– لستُ ممن يتخذون الفأرة موضع أسرارهم؛ اسأل القط!
– كان حسناً إذن لو سألت أنت الثور الذي كنت أحط على قرنه.
– أتريد أن ينطحني الثور الشِّعّيل الذي أسخطتَه؟– لمح له كأنْ بلا عتبٍ، وعاد فسأله: ما مغزى الحكايات التي حكيناها؟
– وكيف لنا أن نعرف؟ ربما يعرف الضباب الذي يتبدد... تعال يا نقار، لا تدعنا نجلس، نقصُّ الماء الذي لا يستطيعون قصّه؛ انهضْ!
بددت شمس الخريف التي قامت وسط السماء الضباب على المرعى كأن لم يكن. والحشائش تتهامس بأصوات متنوعة وتتنادى. وتتبادل الأشجار الابتسامات بأوراق متعددة الألوان. وتتبادل الجبال التي لا تستثقل الثلج نظرات منيرة قريبة — بعيدة. وتبدو القمم الشعثاء وكأنها ملّت من التناطح. ومياه الأنهار والسواقي تتناغم بأمواج فضية. والطبيعة التي تطل منها الشمس الدافئة نظيفة تماماً.
سأل مينشاقه صاحبه نقار:
– هل ترى مرعى جبل قنجال القبرتاي لأول مرة؟
– لا، ولكن أتعجب مما أرى كلما أعدت النظر فيه.

– وخيام القرم تلك أيضاً؟
– كل ما ليس من عالم الأديغة يا مينشاق، كتلك المدافع تصدم العين. ثم تقول: سنصالحهم!
– لست من يقول، وعلى قول جباغ: ليس كل ما يقال يتحقق، وليس كل ما يجري يُروى.
– أفهم يا مينشاق رغم تلميحاتك أن ما يعرفه اثنان لا يبقى سراً. ولكن ليقلْ كلُّ إنسان ما يشاء، الصلح لا يصبح مسألة منتهية، ولذلك لا أوافق عليه.
وفي الحال سقطت قذيفة مدفع من مدافع القرم فرجَّت الجبل كله.
– هل سمعت؟ يقال لنا إن قوتنا مثل تلك القذيفة.
– والرعد يدوي يا مينشاق... — وبعد سكتة قصيرة قال نقار لنفسه: – "مينشاقه يخفي عني شيئاً لا أعرفه... كان هذا حسناً لو كان وراءه خير...".

الفصل الخامس والثلاثون

الشمس مشرقة اليوم في الجبل.
الجبل الذي يسميه الأديغة طوال عمرهم"أوشحه مافه" ينتصب عالياً أبيض تحت السماء. الخريف اقترب من الجبل بأيامه الأولى، غير أن الحشيش في المرعى الضارب إلى الصفرة ما يزال أخضر. والغابات القريبة — البعيدة تتباعد بأوراقها المتنوعة الألوان في أربعة أقطار العالم. والهواء الضعيف غيرُ المهتم بكل هذا يهبّ، ويتعثر، وحين ينهض يختفي في مثيله خجلاً مما جرى له. والشمس تداعب كل ما سبق بأشعتها الدافئة حتى تصل إلى الظهيرة.الطبيعة التي اختبأت في عالم من القلق والخوف جميلة في كل مكان.
وهذا الموقف يُسعد قبلان — جري، ويزيد في ثقته.ويطور آماله — أهدافه. ولكن أعماله التي لا تجري كما يريد لا تطمئن إليها نفسه. حقاً لقد شهد جواسيسه على صحة ما جاء به وفد الأديغة أمس فجأة، ولكنه ينتظر الآن ما سيأتيه به جواسيسه الذين أرسلهم وراء الوفد غير واثق مما جاء به الأخير. وإن احتاج الأمر فسيبثّ في صفوف الأعداء جواسيس آخرين موثوقين. قال قبلان

– جري لنفسه: "إن قارنت الكِذبتين أمكنك استنتاج الصحيح منهما"،ونادى وراق مرزا:

– هاتوا لي الشاب الرهينة الشركسي.

مضى على توقف جيش قبلان – جري في مرعى الجبل عدة أيام ولكنه لا يعرف هو نفسه سبب عدم إعجابه به، وبما يحيط به منذ وقعت عيناه عليه لأول مرة. ولا يجد من اللائق مصارحة "مرزات" جيشه القادة حتى لا يلاحظوا عليه ارتيابه من الجبل. يدير لمرعى الجبل ظهره سواء كان راكباً أم راجلاً، جالساً أم واقفاً، ويغيّبه عن ساحة نظره.

جيء لقبلان – جري بقبارد المقيد بالأغلال. نهر الخانُ الحارسَ على منظر الأغلال ولو أنه قُيِّد بعلمه:

– ما هذا الذي أرى! الرهينة لا يقيد بالسلاسل. ارفعها عنه حالاً! – اجلسْ! ستقول يوماً ما إن الخان دعاك إلى مائدة غدائه... لماذا لا تزال واقفاً؟– أجبرتْ لامبالاةُ قبارد الخانَ على رفع صوته: اجلس عندما يُطلب منك الجلوس!

– هذا لا يعرف لغتنا يا بديل الشمس. – قال وراق مرزا.

– إذا كنت أنت تعرف لغتهم فلْيتعلموا لغتنا!– ترجم وراق الكلام فأفهم الشاب الجالس أن الخان يُحسِن إليه:– لا تدع اللحم يبرد!

– نحن الأديغة لا نأكل لحم الخيل.

سأل قبلان – جري كالمستغرب وإن كان يعرف أن الأديغة لا يأكلونه:

– كيف عرفت أنه لحم خيل؟

– من رائحته.

– كيف؟

– الحصان المتعب تفوح من لحمه رائحة العرق.

– ومن الغنم والكبش تفوح... – ابتسم الخان،وشرح لقبارد دون أن يعنّفه: – على مائدة الخان لا يُقدم لحم حصان متعب! بل لحم المهار، وهو مهر أنثى لا ذكر. لا إكراه إن لم تكن ترغب. هاتوا لضيفنا لحم خروف!

كان بج نغر يعرف حين أتى وفد القبرتاي إلى الخان أن أحد رفيقيه سيبقى رهينة. وكان رفيقاه مدربين على التعامل مع هذا الوضع. عبر أن قبارد لم يتوقع، لو قيل له، بل لم يخطر له مجرد خطور، أن يجلس على مائدة الخان ويتبادل معه حواراً صريحاً. ولم يكن الأمر مصدر افتخار له، فالخان خانٌ ما دام في منصبه، عدواً كان أم صديقاً... نهر قبارد نفسه قائلاً:" ماذا أقول وإلى من أتصاغر!". تمر أمام عيني قبارد المظالمُ التي كانت تمارس بحق العبيد التي شهدها منذ طفولته وإلى الآن، متذكراً كلام مينشاقه: "إذا كانوا لن يروك وإن تعاليت فلا تتصاغر أمامهم"، "لا يكفي هذا الشفوق الهادئ أني رهينة بل ينوي بحقي شيئاً. سنرى ما هو".

– لا تؤاخِذني يا خان إن أسأت في وصف لحم الخيل!

– ولماذا أؤاخذك؟ ما تكلمنا عليه هو لحم خيل ولحم غنم، وليس لحم خنزير الكفار. اغفر لنا يا إلهي أننا أتينا على مائدتك الإسلامية على ذِكر اسم الحيوان المحرم.– دان الخان نفسه وضيفه الشركسي، ثم غيّر الموضوع: – أأنت أمير أم نبيل؟ هل أنت كما قيل لي من أسرة نبلاء؟

– لو لم تغزونا لكان عندي أسرة.

– وهل نحن من هاجموكم — انتفض الخان، ثم أجاب مهدّئاً غضبه: – جاء بنا إليكم عصيانكم أيها الشراكسة.

– المسافة بيننا وبينكم يا خان أبعدُ مما بين الحرية والطاعة.

– هل هذا رأيُك؟

– لم أقل إلا جواب ما قلتَ.

– كلامك صحيح، صحيح، – قال قبلان — جري، ومرة أخرى حنا على قبارد: – لا تدع الطعام يبرد... نعم أنتم ونحن ما نقوله صحيح. هل تصدِّق أنت مهمة السلام التي أتيتم من أجلها؟

– أنا شاب، قيل لي: اَذهب، فأتيت.

– تمام، ولكنك لم تجب على سؤالي الصريح بجواب صريح. هل تتفق مع أميركم في شأن السلام؟

– شخصياً لا، ولكن لا أتجاوز ما يقول كبارنا.
– وهذه رجولة... وهل أقرانك من رأيك؟
– نعم، هؤلاء مثلي. ولكن ما نتكلم عليه اللحظة، رأيي وحدي.
– لا أظنك تعيش بلا أصدقاء... إذن ما العمل الذي يقوم به داور جمركوي بن أبرج في القبرتاي؟
– ما يقوم به داور هو ما لم يستطع والده أبرج فهْمه.
– ألا يزال يحمل لقب "أبرج"؟ ما سمعتُه هو أنه غيَّره إلى "بولتقوه"؟
– ليس من عادات الأديغة أن يبدلوا أنسابهم إلى أنساب أمهاتهم. لم أسمع فحسب بل أخبرني بنفسه.
– يبدو أنكما تتبادلان الثقة.
– صحيح، نحن الشباب، كلامنا وفعلُنا وفِكرُنا واحد.
نهض قبارد لما نهض قبلان – جري عن المائدة كأن الحساء يُحرقه، فقال له الخان:
– اجلسْ أنت!
– كيف أجلس إلى المائدة وحدي؟
وقف قبلان — جري الذي يذرع أرض الغرفة فجأة عند قبارد، وصاح به:
– أنت يا شركس لست إنساناً صالحاً. إن كنتَ محظوظاً تحققت مهمة السلام... أبْعِدوه عن وجهي! ولكن احرصوا عليه، لا تؤذوه!
وراق مرزا المترجم الذي لاحظ نوعاً من الارتعاب على جسد الخان المحاط بجيش الخمسين ألفاً نظر إليه مُخفياً ما يعتمل في قلبه. كان ذهنُ الخان الذي لم يلاحظ هذا يسرح في مكان بعيد. ينظر نحو تركيا دون أن ينسى من يعارضونه في الخانية. يرى إلى يمين السلطان أحمد ويساره الملك كارل ملك السويد، والأوكراني مازيب. يقول لهما: "اصبرا، لم يبق إلا القليل. ثلاثة أيام أو أربعة". وفي الحال تسمر قبلان – جري وسط أرض الخيمة كمن وقف على شفا هاوية، ثم سأل وراق كمن يموّه على وِقفته المفاجئة:
– هل قلتَ شيئاً؟

– لا يا بديل الشمس!
– ما رأيك في الرهينة التي جعلتُها تثرثر؟
– لم يُثلَم حدُّ خنجري بعدُ، كما تريد.
– لم أسألك إن كان خنجرك قد صدئ. أقصد السلام مع الشركس... هل تصدِّقه؟
– أصدِّق يا خان الخانات لأن جثمان أحدهم عندنا.
– ولماذا لم يعد جواسيسنا إذن؟
– ليكنْ باوبيك موضع ثقتك يا بديل الشمس.
– لا أسمع هذا للمرة الأولى!.. – غضب الخان، ثم أنهى بنبرة أهدأ مما دعاه إليه قلقه: – أنا واثق من باوبيك. – وأضاف بسرعة لنفسه: "ولا أعرف حقاً ما سيأتي به من أخبار... وكما يقول الشراكسة الذين لا قرار لهم: "أنكون شمرنا عن سوقنا قبل أن نصل إلى المخاضة؟".
عاد قبلان – جري إلى المائدة التي قام عنها، وتناول من الأطعمة ببطء. ولما مد يده إلى لحم الخيل ابتسم وقال لمرزا:
– الطعام المحرم عند الشراكسة برد. بدِّلْه! خذوا هذا الطبق باسمي إلى الشاب الرهينة، وضعوه أمامه سواء أكل منه أم لم يأكل. وسترونني أُطعمه من لحم الحصان المدلل لأمير القبرتاي العنيد.
– إن شاء الله يا خان الخانات. يتحقق لك مرادك، ونشهده.
– لا شك في أن هذا سيتحقق لي! – نهض قبلان – جري عن المائدة، ووقف إلى المرآة. وقال لمن وراءه وهو يرفع رأسَي كتفيه: – يجب تحضير جيوشنا البطلة ومرزاتنا، والضباط الأتراك لإعلان ورقة انتصارنا.
– إن قلتَ هذا فسأستدعي يا موفد الله كاتب أوامرِك!
– نعم أقول هذا! – أكد الخان كلامه، وأنطقته ريبته كلاماً آخر حالاً: – ليس الآن، "لا تقف في طريق الخيل المتسابقة"، بل متى عاد باوبيك مرزا. – مرة أخرى سأل قبلان – جري وراق مرزا: – هل أنت واثق منه؟.. ولكن لا أفهم سبب الجفاء بين أخيه الأكبر أتا – إلياس وأبرج.

– مهما تودّد معنا أبرج الشركسي يا بديل الشمس، فهو في النهاية شركسي لا يوثق به. أما أتا – إلياس فهو منا. وهو جاسوس في صفوف أعدائنا بإمرة عليغت باشا. وأخوه الأصغر باوبيك رجل منا صلب، قاسٍ متى ما طلبت منه شيئاً ضحى بروحه لأجلك.

– عليغت البدين كتم عني سرَّه!.. – أجبر الكلامُ الذي سمعه قبلان – جري على القول، ولكنه سرعان ما صحا فأكد على وراق مرزا: – أنت لم تسمع شيئاً، ولا أنا قلت...

– نعم يا خان الخانات، لم تقل شيئاً ولم أسمع. أنا أعمى وأصمّ مثل جبل قنجال هذا.

ارتسم منذ البارحة جبل قنجال الأسود المريع أمام عيني قبلان – جري. هزّ رأسه كأنه يتصدى له،وعاد إلى عرشه بخطاً صامتة. كانت الشمس الخريفية الدافئة تشع عبْر النوافذ الثلاثة. فرح الخان الذي خُيِّل إليه أنه جالس في الظلام بالخبر القادم مع وراق:

– وصلت جماعة باوبيك أيها الخان.

قال قبلان – جري الذي كان استكنّ على العرش كأنه شخص آخرُ الآن، بقامة مشدودة:

– انتظرناهم طويلاً، أدخِلوهم! وبادَرَهم دون أن يُتيح لهم الفرصة للتحية: أسمعكم!

– يا خان الخانات، القبرتاي – الشراكسة صالحَونا.

ابتسم الخان، وشرح لزعيم وفده:

– أعرف هذا الخبر منذ أول من أمس. ما خبر المهلة التي حددتها للقبرتاي – الشراكسة؟ مضى عليها يومان.

– لا يزالون يجمعون الأولاد والصبايا يا بديل الشمس. عرضوا علينا الثمانين ولداً المجموعين في جامع حتخشقوه. وفي جامع قزنقُيَه نصف هذا العدد تقريباً. ولكنهم يجدون صعوبة في جمع الصبايا.

– وهل عجيب إن كانوا يجدون صعوبة؟! هم من جلبوا المصيبة لأنفسهم! –

ولما هدأت عينا الخان المصفرتان على حمرة سأل الموفدين الثلاثة الآخرين: وأنتم ماذا عندكم تبلغونه لخانِكم؟

– ما قاله باوبيك مرزا كلامنا نحن أيضاً. – قال أحد الموفدين فاستبقى الخان باوبيك وأخرج الآخرين بمن فيهم وراق مرزا.

بقي الخان وباوبيك وحدهما، فسأله قبلان – جري عما يشغل باله:

– ما أخبار الصبية نالمس التي كلفتك بإحضارها؟ ألم تبلغهم أنني لن أصالحهم إن لم يعيدوها إليّ؟

– يجهزونها ليعيدوها إليك غداً أو بعد غد.

– يماطلون... ليس المقصود أن يحتفظوا بها في جامعهم، بل يأتوا بها إلى هنا. وما موقف أشِبَه خالِها؟

– أشبه ليس عقبة، المشكلة هي زوجته مامخ التي لا تقبل البتة.

– كان عليك أن تأمرهم باصطحاب مامخ بشخصها أيضاً. لا تشكّ في أن هذا سيحدث. الخان ينفذ كلامه. – وبعد سكتة قصيرة أكمل الخان: – أمير القبرتاي الكبير لا يخدعنا على ما يبدو.

– لا شكّ في هذا.

والآن صاح قبلان – جري إلى خارج الخيمة واثقاً من نفسه:

– أدخِلوا كاتب أوامري ! – قال للداخل: – أخبِر جنودي البواسل أننا أخضعنا القبرتاي الشركس وأني أُثني على الأحياء منهم والشهداء. وأنا أسمح لكم بإطلاق أربع قذائف مدفعية في أرجاء الجبل الأربعة احتفالاً بالنصر.

الفصل السادس والثلاثون

تسمع بصعوبة خرير نهر وُرْد الذي يصمت في المنخفض الضيق المنفرج شيئاً فشيئاً. ويتبع النهرُ أوشحه مافه بنظره حزيناً من الجهة التي تشع منها شمس الخريف، كأنه فارس فاته رفاقه. والريح الخفيفة اللطيفة تتلاعب بأوراق الأشجار الملونة. وفي السماء يحوم عدد من الجوارح كأنها تترقب المأساة القادمة على الأرض. وعالَم الجبل الذي ملّ من انتظار ما سيحدث اليوم وغداً يستمع إلى

جدال امرأتين:

– اسكتي! من يقول من هذا؟! لم أسمع شيئاً ولا أريد أن أسمع. – تقول مامخ لنالمس وقد ضمتها إلى صدرها.

– ألم تفهمي أن غزاتنا لن يصالحونا إن لم أفعل هكذا؛ ألم تفهمي؟ سننتكب على أيديهم.

– لن أسلّمك إليهم ولو لم يبق غيري! يكفي ما ساموكِ من عذاب... لم أكن أريد أن أتدخل ولكن في القبرتاي الكثير من أمثالكِ. ليقدموا لهم غيركِ! قلت: لن أسلمك لهم يعني لن أسلمك! والمسكين ماريم الذي انتظرك إلى الآن مذعور من الخبر، وصرفتِ رفيقيه ألن وداور جمركوي واجمين. وخالك لن يتحمل هذا. وأنا ستأتين بأجلي إن فعلتِ...

انفجرت نالمس التي صبرت إلى الان باكية. ولكنها صحت حالاً دون أن تسمح لضعف عواطفها أن يتملكها:

– سأمتثل لِما كُتب على جبيني. ما حمّلني الله حِملي. والآن عندي لك رجاء واحد يا مامخ.

– أي رجاء؟ – أبعدت مامخ بيديها القويتين نالمس، وسألتها وهي تحدق في عينيها.

– أريد حزاماً من الجلد أشد به صدري.

– ماذا تفعلين به؟

– سأحتاجه.

– يا لمصيبتي!

– ليس ما تخيلتِ.

– ماذا إذن؟ انتظري حتى يعود خالك.

سأل مينشاقه المرأتين وكانه لا يعرف المهمة التي أطلعوه عليها:

– ما الذي جرى لكما؟

– نرثي أنفسنا... – أجابت مامخ.

– لم يصل بنا الأمر إلى هذا حتى الآن. ماذا أيتها الصبية؟ هل قررت؟

– نعم يا مينشاق.
– سامحينا يا نالمس... ستسير الأمور كما أخبروك. نعم يا مامخ، سيكون كل شيء على ما يُرام.

الفصل السابع والثلاثون

اجتمع الأمير حتخشقوه كرغوقه وقزنقوه جباغ كما اتفقا على قمة مرعى دومبي حيث يلتقي نهر ورد بنهر غُنْدَلَن.
قال كرغوقه اللابس فروا من جلد الذئب بعدما نهض لجباغ الذي ترجل:
– تفضل يا جباغ!
– سامِحني يا كرغوقه، تأخرت قليلاً.
– لم تتأخر يا جباغ، ونحن وصلنا تواً. ولما ابتعد حراس الرجلين سأله: – ما الأخبار حيث كنت؟
– جاهزون. — وأولادنا " الأعداء"، بمن فيهم الخان، ينتظروننا في مواقع التتر.
– وما الذي يأتي بخان القرم إليهم؟ – مزح معه الأمير كأنه لا يعرف شيئاً، وسأله عما يؤلم قلبه: – ما كان علينا الرضوخ لهم في شأن الصبية نالمس... أتفهّم أن أناسنا سيحرصون عليها، ولكن أقول من يعرف ما قد يحدث؟!.
غيّر جباغ الذي عصر الألم قلبه غير قادر على التعليق الموضوع:
– ها هم ماضون... ارحمنا يا الله، افهم ما فعلنا في موضوع الصبية، واجعل صِدقنا خيراً عليها!
خاطب الأمير الوالي نفسه بالكلام ذاته، وابتعد لا يتحمل ما يرى.

الفصل الثامن والثلاثون

العربة تجري باتجاه موقع الخان تترجح مع تعرجات طريق المرعى الجبلي. والطبيعة تحاكي ما يجري في قلب نالمس: الريح الشرقية الراكدة تهب دون حماسة، وفي السماء العابسة غيوم بيضاء مسودّة تتصارع وتتهارش، ويجاوز بعضها بعضاً. والشمس التي تنحدر من جبلها عجلات العربة الأربع تلتفت إلى صريفها.

وتسمع وقع الحوافر الحزينة.
لم يكن عند القبرتاي مخرج. ما كان الخان يلح في طلبه منهم هو أن يركعوا على رُكبِهم ويبيعوا حياتهم وأرضهم له. وفي مقابل هذا قرر الأديغة أن يقابلوه بالخبث والخديعة: تظاهروا بالاستسلام، فأفهموا الخان أنهم يستسلمون دون حرب، فأراح قبلان — جري جيشه في أرجاء الجبال.
اتفق أمراء القبرتاي ونبلاؤهم من جهة، والفلاحون عامة الشعب من جهة،أن يحاربوا يداً احدة. القادرون على حمل السلاح، المعتدّون برجولتهم جمعوهم في جيش من المشاة والفرسان يعدُّ خمسة وعشرين ألفاً.
ومع ذلك كان جيش القبرتاي — الأديغة أقل مرتين من جيش التتر — الترك، فيفهمون أن اتخاذ قرارات مستعجلة دون تفكير لن يحقق أهدافهم. وكان واضحاً أنهم لن يحرزوا النصر في حرب المواجهة المباشرة. وهذا هو السبب في أن الأمير الوالي ترجّى، مستغلاً الطلب الكاذب للسلام، خان القرم أن يخفف عنهم الإتاوة. ولكن قبلان — جري تجاهل كل رجاء ولم يتزحزح عن جوابه الأول لهم: "لن يقل عدد الرهائن الذين ستحضّرونهم عن ثلاثة آلاف". وهذا هو الوقت الذي قرر فيه القبرتاي خداع الخان وشنَّ هجوم ليلي عليه.
ليل الجبال مظلم دائماً حتى إنك لا ترى من يمد يده إلى عينك. ولهذا اختاروا موعد اكتمال القمر. وفكروا في طريقة محاصرة جيش العدو. ومنعاً لإمكانية تراجعه قرروا الهجوم من جهتين.
ولم ينس الأديغة الأسلوب الذي يستعملونه أكثر من مرة: يحضَّرون قشور شجرة الدردار اليابسة، ويحزمونها. ويعلقونها برؤوس الحمير وأذيالها ويشعلون فيها النار، ويطلقونها في ساحة المعركة وجنودُ العدو نائمون. فيظن الجنود المذعورون المستيقظون من النوم، والنار تصل إلى عنان السماء، أنه يوم القيامة. فتنتشر الفوضى في صفوفهم، ولا يعودون قادرين على متابعة الحرب.
لم تكن نالمس التي يصطحبونها إلى الخان برفقة فرسان شراكسة على علم بشيء من هذا. لم يكن غيرها يعرف ما تتصوره. كانت ذكرى إقامتها في بيت الخان لا تغيب لحظة عن عيني زوجة الخان، تظل تطفو على سطح الذاكرة. وتعرف

جيداً أنْ لا رجوع لها بعد اليوم. كانت تفهم أنها ستصبح خليلة لأحدهم، فتبدأ حياتها في دار البغاء. وتعرف أنهم يحافظون على عذريتها، إن فعلوا، لتُباع بسعر أغلى. ومثل هذه الحياة هي مالم تكن نالمس تريده البتة. وها هي الآن في طريقها إلى الخان الذي يعتبر النصر دان له. وتعرف أن الخان لن يدعها تفلت من يده. ولكنها لن تغفر له. ستجزّ عنقه بالسكّينة التي تخبئها تحت صدارها. ليعرفْ أن نالمس مثلُها مثلُ كل الناس، تستطيع أن تموت في دقيقة واحدة،وتتخلى عن طموحاتها كلها. نالمس مستعدة للتضحية بحياتها من أجل قومها. ستضحي بنفسها كي لا يلاقي صبي شركسي أو صبية مثل مصيرها.

لم تكن نالمس تحس بتعثُّر عجلات العربة على الطريق، ولا بالفرسان الأديغة مرافقيها الذين يُخفون وجوههم عنها. تكلم في نفسها أباها وأمها: " لا أفعل ما يشين يا أبي ويا أمي، فاطمئنّا! أنا لا أزال في العالم الذي أُجبرتما على هجره من أجلي كما ربيتماني. لم يجبرني أحدٌ على ما أفعله اليوم. ومينشاقه ومامخ على علم بالأمر. مصدر الإكراه هو من جلب لنا المصيبة، جلبها الله له، خان القرم! يقول جباغ: الشجرة تحترق من أجل أن يشعر الناس بالدفء فلْيشعرِ الأديغة في مأزقهم بدفئي وإن لم أكن شجرة". قالت نالمس تتحسس السكّينة على صدرها: "أعرف أن مأساة الشراكسة لن تنتهي بإزهاق روح الخان، ولكن لِيعرف الأعداء بسلوكي أن الأديغة لا يُذعنون. اغفر لي أنت أيضاً يا ماريم إن كنت أقول او أفعل ما لا يجوز..."

توجهت نالمس بتفكيرها إلى ماريم. لم يفارق ذهنَها دقيقة واحدة أيام كانت في القرم، وحين سلكت طريق العودة إلى دياره. كانت تعتبر عرسهما منجزاً؛ تتصور شكل العرس، والضيوف الذين سيؤمونه. تريد أن ترى بينهم سورت التي عانت العذاب معها في الغربة، وزوجها نقار. تعرف أنها زُفَّت وأنها تنتظر الآن مولوداً. تدعو لمن كانت بمثابة أختها الكبرى أن تتحقق لها السعادة التي حُرِمت هي منها. شدَّت نالمس قبضتها بقوة وهي في غمرة الدعاء، وسالت الدموع على خديها،فمسحتها بسرعة خوفاً من أن يلاحظ رفاقها ضعفها. ونصحت نفسها أن تتحلى بالصبر والقوة. وقد يدفنونها في مقبرة الأسرة قرب والديها بعد

أن يجري المقدور. ألن يتذكرها ماريم يوماً ما؟.. ارتاحت نالمس مع هذا الدفء الذي لامس القلب.

جيش القرم منتشر في المرعى الجبلي الذي لا تحيط به العين: خيام المرزات، والضباط، والأعراق المتنفذة تؤلف مجموعات. وعلى الأرض مقرات قيادات دنيا للجيش. والخيل المقيدة وغير المقيدة ترعى في البرية. ويرتفع أذان العصر إلى السماء. ومن بين كل هذه التجمعات تبرز خيام قبلان — جري الأربع التي كلٌّ منها بلون. وفوق كل تلك المناظر يطل أوشحه مافه غير راضٍ عن شيء مما يسمع أو يرى.

– موقف الخان هذا هو نهاية رحلتنا يا أختي الصغيرة، تجلَّدي، ولا داعي لليأس، – نصح شردم إلن نالمس.

سألت نالمس خلافاً لِما توقع شردم:

– وهل لطريق الأديغة نهاية فأقعَ في اليأس؟ ألن نكون عِشْنا، كما يقول الأمير الكبير كرغوقه، كمن لم يعش؟! سامحني يا إلن، ربما أقول ما ليس من حقي... ولكن ما لا أفهمه هو أن الخان الذي جاءنا بكل هذا الجيش غافل اليوم.

– ربما يعدُّ نفسه قد انتهى من المعركة بالنصر لأننا أخبرناه برغبتنا في مصالحته...

– وأنا يعتبرني طعماً للسمكة التي لا يأكلها... — سخرت نالمس من نفسها وإن كان في كلامها شيء من الصحة.

استعجل إلن:

– لا تنظري إلى نفسك هذه النظرة، لن تكوني وحدك.

– وكيف أكون وحدي وأنا طعم في صنارته لا يأكله...

أحس إلن بالحزن الذي في كلمات نالمس:

– ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله لك يا أختي الصغيرة، قبارد أيضاً يحتفظون به هناك رهينة.

– ومن سيقف إلى جانبي؟ أنت أم ماريم؟

– لا يا أختي. سيحميك شبابنا البواسل الذين لا تعرفين من أين أتوا عند

الضرورة. و"الأعداء" الذين لا تثق بهم سيساندونك.
– يبدو يا إلن أنك تعرف أموراً كثيرة لا أعرفها أنا... – مزحت نالمس مع إلن ثانية، وقالت له: – أنا أيضاً أعرف ما سأفعل عند الضرورة على مبدأ "إن كانت يدك مدهنة فامسح بها رأسك"، انفع نفسك. ماذا ينوون بالمدافع التي يأتون بها من الجبل؟ – استغربت نالمس ما ترى.
– ربما كان إنزال المدفع من الجبل أسهل من الصعود بها... – مزح إلن مع نالمس وشرح لها: – أما قلت لك إنهم ربما يعتبرون أنفسهم انتصروا علينا وانتهت الحرب.
– ربما... – ردت نالمس بلامبالاة.
كان شردم إلن يستغرب أفكار نالمس وكلماتها أكثر من المدافع: "أنا أرجوها أن تتصبّر ولا تفقد الأمل، وهي تواسيني. تسخر من الخان. لا تُفصح عما ستفعل، ولكنها تعد الأمر منتهياً، ولا يبدو في صوتها ولا في وجهها أي علامة حزن أو يأس. كأنها راغبة في من نصطحبها إليه... أيكون بينها وبين الخان الذي عملت خادمة عنده سرٌّ لا نعرفه كما يُشيع بعضهم؟ إن صحّ هذا فستجلب العار لكرغوقه وجباغ ومينشاقه وماريم. وستلوث سمعة القبرتاي كلها، وستبقى هي عاهرة فحسبُ... وهل هذا معقول؟! إن لم يكن ممكناً فلماذا هُرعت عائدة من القرم حالما سافر خالها إلى القرم من أجلها؟ ولماذا هاجمَنا الخان حالاً؟.. هل جرى لعقلك شيء أيها النبيل شردم؟.. ما هذا الكلام؟!"
– نهر إلن في الحال نفسه.
– الفرسان يستقبلوننا... – قالت نالمس وهي تصلح غطاء رأسها بنبرة لا تنمّ عن رضا أو غيره.
– بديهي أن يستقبلونا... – نطق إلن بصعوبة بالغة.
– يا إلن!.. – نادته نالمس من العربة وكأنها تعرف ما في قلبه نحوها. ثم ترجّته لآخر مرة وهي تمد إليه المنديل المطوي: – أعط هذا الخاتم لماريم!
قال لهم أحد الفرسان الثلاثة الذين استقبلوهم:
– اتبعونا!

قال وراق مرزا للفرسان الأديغة بعدما تجاوز بالعربة الخيمة التي يطل الخان من نافذتها، إلى الخيمة التالية:

– أنتم انتهى دوركم هنا، عودوا!

– سنعود بعد أن نعرف مصير ابنتنا. وقد كلفونا أن نعرف حال قبارد الرهينة، ونقابله.

– لا تُثرثر!– احتدّ وراق مرزا مما سمع. – نفّذْ ما يطلب منك! أنا من طلب منك، وإن تجاوزت هذا الحد...

– مهلاً، مهلاً يا وراق مرزا!.. – جثا الجنود التتار والنغوي، بل والجواسيس الشراكسة أيضاً، الذين رأوا الخان يخرج من الخيمة مع هذه الكلمة للخان. وترجل إلن ورفاقه الفرسان للخان. سألهم قبلان – جري الذي أعجبه هذا الموقف: – انا زعيم من جَثَوا أمامي. وأنتم ما الذي دعاكم إلى الترجل عن خيلكم؟

– نعبّر بهذا عن احترامنا للصلح المنجز بيننا، وعن تقديرنا لأنفسنا، – أجاب إلنُ الخانَ.

ابتسم قبلان – جري دون أن يعير اهتماماً بكلام إلن، وقال:

– إن كنتم تعتدّون بأنفسكم هكذا فسنغفر لكم في يوم انتصارنا على مبدأ: الدبُّ المقتول لا يُطعَن بالسكين. ادعوا هؤلاء إلى الطعام، أنتم ضيوف. مزح الخان مع وراق مرزا بعدما أصدر له الأمر: – ولا تُطعموهم لحم حصان متعب! أرسل قبلان – جري فرساناً إلى جبل قنجال يبثّون خبر الانتصار. فارتفعت في كل مكان أصوات المحاربين المسرورين. وشرعوا يغنون ويرقصون. ويصل مديح الخان إلى عنان السماء، ويقدمون الذبائح، ويقطِّعون اللحم، والطباخون شمروا عن سواعدهم. واللحم يغلي في القدور. ويتناقلون دلاء الشراب. ويرفعون أنخاب النصر. ولا يبخلون بطلقات بنادقهم فتئزُّ في الفضاء. ويتناقشون في ما سيصيبهم من الغنائم. واسم الخان على شفاه الجميع. وفرحة النصر الذي جلبته رجولته تنتشر في كافة جبال الأديغة.

بغنه جعفر الذي ثمل من المشروب يترنح من السكر. يرقص متناسياً عرجه.

يعانق من يعرفه ومن لا يعرفه. يخطب بالنيابة عن البالقر الذين حُرِّروا من نير القبرتاي، وهو أولهم. ولا يفارق ذكر خانهم الحكيم لسانه. وأبرج مرزبج جالس على طرف بعيد من مائدة الخان قائلاً: "ونحن أيضاً فلحنا الأرض ولو أننا جالسون على قرن الثور" غيرَ ناسٍ أنه "مرزا"، رغم أنه لم يحقق ما أراده تماماً. يشرب كأس النخب إلى آخر قطرة متمايلاً مع الكلام الذي لا يسمعه. ينظر جهة الخان حتى يخطب خطبة لم يسبقها إليه أحدٌ ولكن الآخر لا يسمعه. يفكر في أن يتوسل إليهم غير أنه يتورع عن ذلك قائلاً في نفسه: "ما الفائدة من أن نذرّي وليس لنا مواشٍ"؟

صمت جميع من على المائدة حين رفع قبلان – جري يده:

– ننهي حفلتنا عند هذا الحدّ. لا يزال أمامنا غداً مهام كبيرة. أُدعوا إلى الله العلي العظيم أن يُسعِد غدكم، وأن يقرِّب أمنياتكم، وأنا سأدعو من أجلكم. بلّغوا كلماتي إلى محاربيّ الذين حازوا على رضاي. وتصبحون على خير. –كان عليغت مرزا يود أن يقول شيئاً للخان المهتاج، ولكن الأخير لم ير الوقت مناسباً فقال: "في وقت آخر، لا يزال أمامنا يوم آخر. استريحوا، وأنت أيضاً يا مرتاض باشا، تصبحون على خير".

كان ما يشغل بال الخان هو ليلة الحب التي يشتهيها، لا المهام المنتظرة غداً التي يعدّها منتهية: "لو تحقق مسعاي الليلة دون إكراهها لكان حسناً... هل هناك أسعد من لقاء محبّين يريد كل منهما الآخر؟ لم أسئ إليها طوال إقامتها عندنا، كنت أرعاها، كانت شكوك زوجتي ألسو تُجبرني أن أتحاشاها... إذا كنت أخضعت القبرتاي بكاملها فمن تكون هي؟! الأفضل لها أن تلبي رغبتي. وأنا من جهتي أحقق لها ما تري من الدنيا... نعم، الأفضل ألا ألجأ إلى العنف... اللذيذ ما تتناوله شاعراً بلذته، لا ما تتناوله مرغماً"...

– قاعة حمامك منيرة تماماً من ضوء القمر، – قال وراق مرزا للخان بكل لطف.

– هكذا؟ – سأل الخان الذي قوطعت أحلامه اللذيذة بصوت قلق، وأجابه بسرعة: – الآن حالاً!

لم يطل مقام خان القرم في الحمام. ولم يعد يطيق البقاء طويلاً، وهو يحلم منتظراً ليلة الحب المأمولة. جلس قبلان – جري مدة يُنعش نفسه بالهواء البارد مرتدياً فراءه المذهَّب، ووقف إلى المرآة. تأمل نفسه متفاخراً، وبعدما تمشى على أرض الغرفة مدة وجلس، نادى وراق دون أن ينطق اسم من سيستدعيها:

– هاتوها! – وبعد قليل سُمعت ضجة من وراء الباب. سأل وراق الذي بدا له واجماً: ماذا جرى لكم؟

– لا تسمح لنا الفتاة الشركسية المتمردة أن نتمكن منها.

– كيف ستمسكون الفتاة بأيدي الرجال؟

– نحن، حراسَ الخان، يستوي عندنا الرجال والنساء؛ كلهم أعداء!

– عفارم إن كنت تحمي خانك هكذا، أنا راض عنك. – امتدح الخان حارسه، ومازحه في ما يشك فيه:– ولكن لا أعرف سبب حلاقتك لحيتك.

– هذه هي؟ – مدّ وراق يده إلى لحيته، ثم غير الموضوع: – ماذا نفعل يا خان الخانات بمن لا تسمح لنا بالاقتراب منها؟

ابتسم قبلان – جري بلامبالاة:

– يا وراق، هل تشكّ في رجولة خانك؟ – ثم شدد عليه مسمعاً نالمس وراء الباب: – أدخِلوا حالاً نالمس التي أعادوها إلينا دون أن تمدوا أيديكم إلى شعرة من رأسها!– استقبل الخان باسماً نالمس واقفاً على غير عادته: لا تقفي إلى جانب الباب يا حلوتي؛ تعالي واجلسي هنا.

– أسمعك يا خان من مكاني، مكان الخادمة، الذي أوقفتني فيه في الماضي.

– اسكتي يا نالمس، لا تقولي شيئاً يا جميلة. أنا كنت أعرف مكانك ونحن في القرم، ولكن لم تسمح لي الظروف. والآن جمعَنا الله، كلينا، بمعرفته. نحن وحدنا، أنت لا تعرفين جمالك وحلاوتك يا قمري المنير.

– أنا أعرف حقيقتي وسبب حياتي! – اختطفت نالمس السكينة من صدرها:

– سأقتلك إن خطوت خطوة واحدة!

توقف قبلان – جري:

– إن كان هذا رأيَك استمعتُ إليك. ولكن لا تنسَي أننا لسنا وحدنا...

وفي الحال سمع صراخ حمير وخيل. وبدأت كرات النار ولهيبها تدور في أرجاء جبل قنجال، ومواقع الجيش المعادي. والمحاربون الذين أسكرهم "انتصارهم" في ساعة القيامة لا يعرفون ما يجري. وفوق كل هذا قصفُ الرعد ودوي المدافع اللذان أجبرا المحروم من ليلة الحب المنتظرة على الانحناء.

صرخ وراق الذي اقتحم الخيمة "مخدع العروس":

– قامت القيامة يا خان!

وقالت لهما نالمس التي كانت تنتظر هذه اللحظة:

– هل فهمتم الآن؟ جرى لكم ما تستحقون.

وارتمت نالمس التي لا تزال غائبة عن الوعي والموسى بيدها نحو الخان الذي لا تطيقه:

– هذا ما كان ينقصك أيها الخان الظالم!

وفي اللحظة التي اختطف فيها وراق السكينة من يد نالمس اقتحم قبارد الرهينةُ وباوبيك "حارس الخان" الخيمة، وأسقطا وراق والسكينة أرضاً.

– الخان!.. صاحت نالمس بمن أنقذوها.

– أين هو؟

– هرب من النافذة!

– لن يستطيع الابتعاد!– قال قبارد لإلن: – الحقوا بالخان!

الطريقة التي تعرف بها الحق من غير الحق في "قيام الساعة" منتصفَ الليل،هو قفا رأس العدو الهارب بجلده. اللاجئون دون أن تمنعهم الخناجر والسيوف والرصاص إلى الممر الضيق للجبل تصرعهم بنادق المحاربين على التلال وسهامهم، وتسحقهم الحجارة التي يُهيلونها عليهم. فيتصارعون فيما بينهم ويتفانون.

حين جفل عليغت مرزا الغارق في نومه عرف أن لا خير في المحيط فقفز من خيمته. ولما صار على الجانب المقابل لجبل ساوسرقوه وهو لا يدري أين يذهب، والنوم ما يزال يهيمن عليه، سقط دون أن يستطيع التوقف. وسقط وراءه بغنه جعفر المملوك بذعره.

تبيّن أن مرتاض باشا قائد الفرقة التركية خبيث: ارتمى على ظهر حصانه المجهز كأنه كان يتوقع ما سيجري لهم، ونجا بجلده مثل قبلان – جري، على رأس عدد من جنوده.

كان بين جنود التتار الذين غاب عنهم خانُهم وقادة جيشهم مَن استسلم ومن لم يفعل. الذين استسلموا متجمعون دون سلاح في أماكن كثيرة: في مرعى سفح جبل قنجال، وفي بئر قازي، وفي برية قنجال الصغرى، وسهل دومبي، وفي البرية المقابلة لنهر ورد، وفي غابة لخران ومرتفع غَلَخ، وفي معبر نهر بَبْكوي مالق، وغيرها. والقتلى يملؤون المرعى حتى إن العين لا تحيط بهم،كلٌّ بالهيئة التي قُتل عليها: بعضهم وجهه إلى السماء، وآخرون إلى الأرض.

قال أشبه مينشاقه:

– إن لم ندفن هؤلاء كما دفنا شهداءنا أيها الأمير الوالي فسيصبحون الليلة طعاماً للوحوش.

لم يقبل زبنه:

– كيف تستطيع أن تقول هذا يا مينشاق كأنهم لم يأتونا بالمصيبة؟! دعِ الوحوش يصبحوا طعاماً للوحوش!..

كان الجرحى من الأسرى وغير الجرحى من المقاتلين يتبادلون النظرات منتظرين ما سيقول الأميرُ الوالي، وقزنقوه، وقسي أفندي وغيرُهم من الكبار. وصاح من بينهم مَن يؤيد أشبه ومن يؤيد زبنه.

– من هذا الفارس الذي جاء إلى القتلى على المرتفع؟ – لفت الأميرُ أنظارهم وإن كان يعرف هوية الفارس.– إن لم أخطئ يا نغر فهو داور جمركوي؟

– ربما يبحث عن والده أبرج... — قال بج نغر وقلبه يتمزق أسىً على داور.

– أستغفر الله، أستغفر الله. ما يحدث في دنيانا الفانية عجيب يا إلهنا العزيز.

— صاح قسي أفندي شاملاً المجموعة كلها التي هو بينها، ثم توجه إلى الله: – كل ما يجري إنما بعلمك؛ فامنحنا مزيداً من القوة لنتحمل ابتلاءك، وارحمنا، واحمِنا!

لم يُمهل الأميرُ قسي ليتلو دعاءه، بل أمر أصدقاء أبرج داور بمن فيهم ابنه

محمد- بَمات:
– هيا يا قبارد وإلن وماريم وبمات، توجَّهوا إلى أبرج داور وقاسِموه مأساته!.. ونحن يا قسي أفندي، سندفن قتلى العدو بمشاركة أسرانا والبالقر الذين يشاركوننا الحياة على هذه الأرض. وإن كان بينكم من لا يعجبه كلامي فليسامحني! إنسانيتنا تملي علينا هذا السلوك.
كان داور – جمركوي جالساً إلى والده المستلقي يتنفس بصعوبة نتيجة الجرح العميق، غير أنه محتفظ بوعيه. منظر داور يفطر القلب حزناً: تقرأ في وجهه مختلف المشاعر من الشفقة إلى نقيضها.
سأل داور والده بعدما جلس قليلاً إليه:
– هل أنت راضٍ الآن عن هذه النهاية؟
أدار داور ظهره غير متحمل نظرات والده المتوسلة، ورفع قبارد رأس الرجل المحتضَر:
– يا داور... – استجمع الأب قواه الأخيرة ونادى ولده، – يا ولدي، سامِحني!.. أتوسل إلى كل من أسأت إليهم أن يغفروا لي باسم الله الغفور... أنا أموت يا ولدي، اغفـ...
أعاد قبارد رأس المتوفى بحرص إلى الأرض.
تنحى داور جمركوي، وعاد بعد مدة، وقال للأصدقاء:
– ادفُنوه مع النغوي... لا مكان له في مقبرة الأديغة.
رفع قبارد وإلن وماريم وبمات جثة أبرج الثقيلة، وأنزلوها في حفرة عميقة خاصة بنغوي القرم.
– نعم، هكذا، – وافق قسي أفندي الأميرَ الواليَ، يا أميرنا الكبير الذي لن ينسى الأديغة رجولته وإنسانيته، نحن مسلمون وهم مسلمون...
– الإنسانية يا أفندي، – قال دمدي،– قبْل الإسلام!
– أنت على حقّ يا صديقي، الإنسانية هي أساس دينِ كل عرق من البشر، – وافق الحداد قاشرغ معاونه.

الفصل التاسع والثلاثون

جبال القنجال شاحبة جداً، وسماؤها خضراء مسودّة، ومن قممها تفوح رائحة الثلج الرطب كأن الشمس غائبة عنها.

بعدما انتهى، ليس القبرتاي وحدهم، بل الأباظة والبالقر والأوستين — ديغور، والنغوي، من مراسم دفن ضحاياهم في اليومين التاليين لليلة انتهاء المعركة، قال الأمير حتخشقوه للأفندي قسي:

– لنتلُ الآن دعاء باسم الطرفين المتجابهين.

تقدَّم قسي أفندي قليلاً على رفاقه، ورفع، ومعه سويونج، أفندي البالقر، راحتيه الرقيقتين إلى أمام وجهه، وبدأ:

– بسم الله الرحمن الرحيم. باسم الله الخالق الذي هدانا لدين الإسلام الحقّ، الذي يتضرع إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد، قولوا آمين يا جماعة!

توجه الأمير حتخشقوه الآن إلى من انتهوا من الدعاء:

– رضي الله عنكم جميعاً يا من تعبوا معنا ولأجلنا وقاسمونا مشاقَّنا. حماكم الله، وعشتم بعيداً عن الحزن، يطغى الخير على حياتكم. نقول لمن سيركبون إلى ديارهم بعد أن يتناولوا شيئاً من الطعام على أرواح الضحايا: رافقتكم السلامة! وأنتم ادعوا لنا ألا يتكرر مثل هذه المأساة. ونحن ندعو لكم.

أطلّت الشمس من وراء السحب السوداء كأنها سمعت ما قيل على الأرض...

خاتمة

لو استطاع أوشحه مافه وجبل قنجال أن يرويا لنا بنفسيهما ما شهدا وسمعا... بل كنت أرضى لو روت لي قطعة الحجر التي سقطت من جبل قنجال، التي بقيت على طاولتي ريثما انتهيت من هذا الكتاب! ولكن ما العمل؟ الحجر يصبر، ويحدث أن يفتته الصبر أحياناً، ولا يستطيع التنفيس عن ضيقه كما يفعل البشر.

سأُطلعكم على أخبار من نجا من هذه الحرب إذ أطلعتكم على الطريقة التي فني بها من خطر لي منهم ومن لم يخطر، دون أن أميِّز بين العَرق الذي سال من

بئر تعبي التي حفرتها بقلمي، والماء الذي نبع من هذه البئر.
الأمير حتخشقوه الذي دمر مئة الألف، قِوامَ جيش قبلان – جري دخل تاريخ الأديغة بصفته رجلاً حكيماً لبيباً مغامراً بروحه. ولايزال اسمه يتردد إلى الآن في الحكاية، لا يضيع كما لا يضيع المعروف.
يظهر بعد مرور سنتين على حرب قنجال ملوك، ويختفون، وكذلك تخلى الأمير عن ولايته إلى القبر، فدُفن هو والسيدة الكبرى نارنه في قبرين متجاورين، وحلّ محلهما ابناه محمد بامت ونيتشاك،وأختهما جان، الذين نشؤوا على التربية الأديغية. وكان محمد بامت متجهاً بعواطفه نحو روسيا، فقاوم الاتجاه نحو القرم، وخدم بذلك مصالح روسيا في بلاد القبرتاي. وجان زوجةُ خان القالمق دوندوك – أومبو (تحوّل اسمها بعد التعميد إلى دوندوكوفا فيرا كورغوكوفنا) كانت عون زوجها في التحالف مع روسيا. ورحل نيتشاك عن الدنيا بلا عقِبٍ. ولا نعرف سنة وفاة الأمير حتخشقوه، ولا سنة وفاة نارنه.
وعاش النبيل قزنقوه جباغ خمساً وستين سنة. وقضى حياته معتمَداً معروفاً لحياة الأديغة ولِشرعتهم بِحِكَمه الصائبة والأقوال المأثورة التي رواها، وموفِّقاً بين المتخاصمين، ووكيلاً للفقراء والأغنياء، لم تنخدش رجولته ولا شرفه ولا إنسانيته. وتوفي عام 1750. ودفن في قريته قزنقُيَه، في مضيق باخسان. وأقام له القبرتاي المعاصرون تمثالاً جزاء على إحسانه.
والنبلاء الذين اجترحوا البطولات في حرب قنجال أشبه وزبنه وبج وشردم، والعامّة قاشرغ ودَمْدي وقُنْدَت، وغيرهم، لا تزال أسماءهم في ذاكرة الأديغة. ويمكن لكل راعي غنم أو بقرٍ في جبل قنجال أن يدلّك على "ممر أشبه ومنحدره" و"المضيق الذي لا تستطيع العربات السير فيه" و"المرتفع مرصد مامخ" و "مضيق ساقية قازي" و"الجرف الذي سقط منه عليغت باشا".
عاش أشبه مينشاقه تسعاً وعشرين سنة بعد الحرب. ولم يكن بقي له إلا ثلاثة أشهر ليبلغ الثمانين. وبعد نصف سنة لحقت به زوجته مامخ. وعاش ماريم ونالمس شيخوخة سعيدة مع أولادهما الثلاثة وابنتيهما، وأحفادهما الستة من ابنتيهما. ولم يتأخر ماريم عن نالمس إلا شهراً واحداً.

تزوج أبرج داور من فتاة من القبرتاي بعد عام من مقتل والده. ولم يقبل بالعودة إلى الجمكوي مهما أرسل إليه خاله الأمير بولتقوه أو والدته. وتوفي في الحادية والستين وقد تحول اسمه الذي حمله في القبرتاي "جمركوي" إلى نسبٍ له. ولما تزوجت ابنتا قُندت ضاع نسبه الجمكوي في القبرتاي.

ولم يعش الأمير بولتقوه بولت الذي خدع الطرفين إلا قليلاً بعد الحرب: بعد وفاة أخته الكبرى سيدة الإمارة قتاس عام 1709، لحق بها وقد تجاوز الستين بقليل، نادماً على أنه لم يُقاسم قومه أفراحهم وأحزانهم، فرحل عن الدنيا العجيبة التي يصعب معرفةُ كنهها كما معرفتُه هو.

يمكن أن يضاف إلى قولهم "تعيس الحظ يعضه الكلب وهو على ظهر جمل"، مثل هذه الفكرة، كما كان يقول قزنقوه جباغ: "الحظ حين يقرر المجيء يسحبه خيط الصوف، وإذا عزم على الرحيل لا يمنعه قيد الحديد". ففي اليوم الذي عاد فيه مامسر نقار بعد الحرب إلى الجمكوي، توفيت سورت مع الطفل ساعة الولادة. ولم يتحمل حطاط ما جرى لابنته. ومامسر الذي لم يتحمل هو الآخر هذه الفاجعة لم يستطع متابعة حياته في الجمكوي، فقرر العودة إلى حياة الوحدة والحجرت، كسابق عهده، وفي طريقه إلى القبرتاي وقع في أيدي عدد ممن انضموا إلى جيش الخان فقضى على أيديهم، وضاع أثره في إحدى الغابات دون أن يُدفَن.

وتوجه الأخَوان النغوي: أتا – إلياس الأكبر وباوبيك الأصغر إلى جلخستانيه دون العودة إلى النغوي، وضما إليهما أسرتيهما وعاشا فيها. ولايزال أخلافهما يعيشون في القبرتاي إلى الآن، يستاؤون حين يسمعون من الناس: " أنتم نغوي، لستم من الأديغة".

وخلال قيام قسي أفندي بتسيير أمور "الدنيا الفانية" بين أهل باخسان، توفي، كما كان يتمنى، وهو يصلي بهم عشية يوم جمعة، فدُفن في مسقط رأسه "إسلامي" يوم الجمعة، وفقاً للأخبار التي سمعتها.

ومن سآتي على ذكرهم الآن ينطبق عليهم القول الأديغي المأثور: "من يشعل النار يحترقْ بها"، ولذا سأروي أخبارهم كما بقيت في التاريخ دون زيادة أو

نقصان.
عوقب مرتاض باشا الذي لم يعد من فرقته التي تعد أربعة آلاف إلا ستة وثلاثون، بأن جُرِّد من القيادة وأرسل إلى السجن قبل وصوله إلى مضيق شرك على بحر آزوف. حتى مات في تركيا.
واستدعى السلطان أحمد الثالث الخان قبلان – جري الهارب بجلده، إلى إستانبول، ونفاه إلى جزيرة رودس. وبعد خمس سنوات قضاها هناك أعاد السلطان العثماني لقب الخان إليه وأرسله ليحارب مع جيش السلطان عام 1719 في النمسا، ولما انكسر جيشه خُلِع عن منصب الخان للمرة الثانية. وفيما هو يعيش في مدينة بورسه التركية أعيد إليه لقب الخان للمرة الثالثة وأرسِل إلى إيران للحرب. ولكنه أعيد إلى بخجساري في خلال الفتنة التي جرت هناك، وانتُزِع عنه اللقب. وفي عام 1738 قضى هو وزوجته بفارق ثلاثة أشهر بينهما: الخان أولاً، في مدينة جَشمه على ساحل آجي.
مهما نُسب من مساوئ إلى قبلان – جري، فقد حفظ التاريخ اسمه بصفته نشيطاً مليئاً بالحيوية. هل كان تعيس الحظ؟ لا أعرف؟ ربما...
بدّدت حرب قنجال آمال مازيب الأوكراني وكارل الثاني عشر ملك السويد. حطم بطرس الأول قيصر روسيا جيش السويد عند بولتافا، فلجأ مازيب وكارل إلى تركيا. ومات مازيب عام 1709 في مدينة بندر. وبعدما عاش كارل الثاني عشر بضع سنين في تركيا توفي عام 1718.
أما السلطان أحمد الثالث الذي لم يكن يدع خانية القرم تعيش في أمان فقد انتفض ضده سكان إستانبول، فعزله الجيش الإنكشاري عن السلطنة ورحل يائساً عام 1730 في عمر الثامنة والخمسين عن العالَم الذي كان يتجبر فيه.
الأديغة من أقدم الأعراق التي تعيش على الأرض. ولا يزالون يعيشون على أرضهم، يتلازم فرحهم وترحهم، وشِرعتهم التي ورّثهم إياها أسلافهم أساس شرفهم، على الأرض التي حمَوا بعضها ولم يحموا بعضها طوال قرونِ العذاب. يحزنون على الماضي، ويتأملون المستقبل. كم من القرون سيعيشون بعدُ؟ واحد أم اثنان أم أكثر أم أقلّ... لا يعرف إلا الله. أدعو إلى الله باسم أسلافنا الذين

أسسوا لنا شرعتنا "أديغة خابزة"، وباسم من يعيشون بفضلها إلى الآن، أن يمد في عمر قومي الأبرياء المستقيمين، ولو قرناً واحداً.